بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله وحده والصلاة والسلام على من لا نبي بعده

ط سنة ٩٧ البرجانية

الفكر الإسلامي

في مواجهة الغزو الثقافي

في العصر الحديث

الطبعة الأولى
١٤١٨ هـ - ١٩٩٨م

رقم الإيداع القانوني
٩٧ / ٥٦٣١
الترقيم الدولي:
977 - 253 - 150 - X

دار الدعوة للطبع والنشر والتوزيع
المركز الرئيسي : ٢ ش منشا - محرم بك - الإسكندرية.
ت:٤٩٠١٩١٤-٤٩٠٧٩٩٨ - فاكس :٥٩٥١٦٩٥
مكتب توزيع القاهرة :ت :٢٨٣٢٧٤٧

الفكر الإسلامي

في مواجهة الغزو الثقافي في العصر الحديث

دكتور
مصطفى حلمي
كلية دار العلوم - جامعة القاهرة

دار الدعوة



بسم الله الرحمن الرحيم
﴿ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا
الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ
فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ ﴾
[الرعد : آية١٧]



إن الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، ونشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله ، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً.

أما بعد :

فقد صدر هذا الكتاب - بتوفيق الله تعالى وعونه - في وقت عصيب، تتعرض فيه الأمة الإسلامية لأشد الابتلاءات في تاريخها، أخطرها شأناً -وقوع المسجد الأقصى في أسر الصهاينة- وتضييق الخناق عليها بقيد حديدي يسمى نظام (العولمة) ، أي إحكام الهيمنة على الشعوب وفرض الثقافة الواحدة عليها .

وفي هذه الأيام العصيبة لابد أن نتذكر أن المِحَن والابتلاءات والحروب ليست أمراً طارئاً أو جديداً على الأمة الإسلامية، إذ لم يخلُ عصر من هجمات أعدائها بالخارج والداخل، ولم تتوقف غزوات الغرب، منذ عصر النبي ﷺ ، فقد كانت الحروب سجالاً بين (الروم) وأحفادهم من الصليبيين والمستعمرين الجدد في العصر الحديث ، وقد صحّح الشيخ/ محمد الغزالي - رحمه الله - طبيعة العلاقة بين الشرق الإسلامي والغرب المسيحي، بينما تحاول أجهزته الإعلامية تصوير المسلمين بالعدوان ، بعناد غريب وإنكار الحقيقة التاريخية التي تسجل أن أهل الغرب هم البادئون .

ويقول الشيخ محمد الغزالي :

(فمن الوضاعة أن يقدم الرومان من أوروبا فيقاتلوا نبينا ﷺ في مؤتة

وتبـوك ، وفي سوريا ومـصر وفي الأناضـول والمغرب ، ثم يجيء بعـدهم أحفادهم المستعمرون الجدد ليكرروا العدوان نفسه ثم يقولون في صفاقة : إن الإسلام دين عدوان !!)[1] .

كذلك يسـتخلص الدكتـور عبدالرحـمن سالم بدراسته المـستوعبـة لأبعاد معركـة مؤتة، أن النتيجة المحقـقة لها هي بروز العدو البيـزنطي على الساحة الإسلامـية بكل جبـروته وعنفوانه، مـقرراً أن كل العداوات المسـتقـبلية بين المسلمين والبيزنطـيين يمكن رد جذورها إلى المواجهة القاسـية في مؤتة، وهي الشرارة الأولى في الصراع الإسلامي البيزنطي طوال أكثر من ثمانية قرون[2] .

وقد استمرت الحروب بعـدها في سلسلة لا تكاد تنقطع ، متّسمة بالطابع الديني، الموغل في التـعـصب، والذي يتـضح من سلوكـيات القـادة والجند الرومان ببـشاعة عدوانهم الطافح بالحـقد والذي يكتسح أمـامه النسل والزرع ومظاهر العمران ليتركها خراباً ، وقاعاً صفصفا!

ونجتزئ فقط بعض سلوكيات أحد قـادتهم وهو « نقفور فوقاس » - قائد الرومان خـلال القرن الرابع الهجري - حـيث كان يرتكب أفعـالاً يندى لها جبين الإنسانية خجلاً ، بدءاً بتـخريب المباني والمساجد ونهب الأموال ، مع أعمال القتل والنهب والتدمير لمدينة حلب بأكـملها ستة أيام كاملة ، وإشعال النيران واللجوء إلى حيل التخويف والترويع والإرهاب !

وأمام هذه الأحداث المروّعة، لايسع الدارس المسـتقصى لها، إلا أن يقرر - كما فعل الدكتور صابر دياب - أن عـصر الحروب الصليبية إنما يرجع إلى

---

١ - ص٨ من كتاب (سر تأخر العرب والمسلمين) محمد الغزالي دار الصحوة بالقاهرة ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م

٢ - ص١٠٢ من كتاب (المسلمون والروم في عصر النبوة) الدكتور عبدالرحمن سالم - ط دار الفكر العربي بالقاهرة ١٤١٨هـ - ١٩٩٧م .

القـرن الرابع الهـجـري ،لأن الروم منذ ذلك الحين وهم يشـعلونهـا حـرباً دينية[١].

ليس عجباً إذن أن يأتينا في العصر الحديث أشخاص مستنسخة من(نقفور) أمثال نابليون وألنبي وجودو وستالين ، وقادة الصرب وغيرهم كثيرون .

ويقول مـحمـد أسد (ليـو بولد فايس قـبل إسلامـه) « إن روح الحرب الصليـبية ، فـي شكل مصغـر على كل حال ، مـازال يتسكـع فوق أوروبا ولاتزال مدنيتهـا تقف مع العالم الإسلامي موقفاً يحـمل آثاراً واضحة لذلك الشبح المستميت في القتال »[٢] .

وعندمـا اكتـشف الغـرب أن الحـروب والغزوات العـسكرية لا تُجـدي، وحدها لإزاحة الأمة الإسلامـية عن طريقه، تفتقت أذهان السّاسة، ورجال الكنيسة على استخدام المستشرقين والمبشرين في تخطيط وتنفيذ أهداف الغزو الثقافي (وإذا كـان الاستشراق والتبـشير قد قام على أكـتاف الرهبان والآباء أول الأمر، ثم اتصـل من بعد ذلك بالمستـعمـرين، فإنه لايزال حـتى اليوم يعتـمد على أولئك وإن تظاهروا برسـالتهم الدينيـة والخيرية، فـإنهم يقظون دائماً، يحدقـون بعيونهم ويصيـخون بآذانهم إلى جميع الأوسـاط لمعرفة كل الاتجاهات، حـتى يستطيـعون أن يذللوا أي عـقبـة تعتـرض سبيل نشـاطهم وعملهم، فهم في سرية أعمالهم كالجمـعية الماسونية، تنشد في الظاهر سلام العالم، لكنها دعوة سرية لاستتاب حكم التوراة في ربوع العالم)[٣] .

---

١ - المسلمون وجهادهم ضد الروم في أرمينية والثغور الجزرية والشامية خلال القرن الرابع الهجري ص ١٣٩ للدكتور صابر محمد دياب - مكتبة السلام العالمية بالقاهرة ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م ويُنظر صفحات ١٣٦، ١٦١، ١٦٣، ٢٠٠ .

٢ - الإسلام على مفترق الطرق ص ٦٤ ترجمة د/ عمر فروخ ط دار العلم للملايين / بيروت سنة ١٩٧٤م.

٣ - الاستشراق والتبشير وصلتهما بالإمبراطورية العالمية إبراهيم خليل أحمد ص٧٧ مكتبة الوعي العربي بالقاهرة ١٣٩٣هـ - ١٩٧٣م .

لذلك جاءت نتـائج الغزو الثقافي - بلا مـبالغة - أشد تدميـراً من الغزو العسكري ، فإن الريح الصرصر العاتية الـتي أخبرنا بها القرآن الكريم لعقاب قوم عاد ، ومازلنا نسمع بمايشابهـها في بعض سواحل أمريكا وأوروبا وآسيا وغيرها من بلاد العالم ، فكأنها تُذكِّرنا بالسُّنَّة الإلهية في عقاب العصاة ، أو التحذير من غضبه وعقابه .

إن هذه الريح - رغم شدتها - ربما تُعَدُّ أخف وطأة على شخصية الإنسان المسلم من ريح الغـزو الثـقـافي المتـواصل والمتنوع، الذي لا يقـتلع المبـاني والأشجار وينسف الطرق والكباري، بل يقـتلع العقائد من القلوب، ومن لم يصدّق فعليه بقراءة كتاب (تغريب العالم) الذي لخصّنا بعض محتوياته بهذا الكتاب! ولقد طُوقّت الشخصية الإسلاميـة منذ الاستعمار الغربي في العصر الحديث بأطواق مـصنوعة وفق ثقـافة الغرب، وفُـرِضَتْ عليهـا تصوراته في المعارف والسلوك والعادات، ومن الـنادر أن يقف بعضنا ليتساءل عن طبـيعة حياتنا المصنوعـة بأدوات غربية : ما أهدافها وغايتـها ؟ . . . وهل تتفق مع عقائد الإسلام وشرائعه أم لا ؟. . .

ولعلنا وُفِّقنا بهذا الكتاب في الإسهام بالتوعية بأمرين :

أحدهما : أن التراث الإسلامي يتفوق على ثقافة العصر .

الثـاني : معرفة ما يدور حولنا وما يراد لنا .

وجاء الكتاب على النحو الآتي :

ففي الباب الأول عـرضنا لبعض المصطلحات المتـصلة بالفكر الإسلامي ، مع التحذير من الخلط بين المصطلحات وأثره التخريبي على المفاهيم الإسلامية الصحيحة الأصيلة .

وعرضنا في الـباب الثاني لأثر واقـعة انهـيار الاتحاد السـوفيـتي وتهافت الماركسية على ثقافة العصر حيث برزت نظريتان :

أولهما : نظرية (نهاية التاريخ وخاتم البشر) لفوكوياما .

والثانية : نظرية (صدام الحضارات) لهانتجتون .

ثم بيَّنا موقف الفكر الإسلامي من كليهما .

وخصصنا أحـد الأبواب لتناول أزمة العالم الحديث، وألقـينا الضوء على الفكر الإسلامي الغربي في العصر الحديث باختيار بعض الصفوة من مفكري الغرب (علي بيجـوفيتش، رينيه جينو، مراد هوفمـان، روجيه دوباسكويه) وأفكارهم في مجملها تعطي القارئ صـورة متكاملة عن نتائج الصراع الدائر بين الغزو الثقـافي والفكر الإسلامي وتشدّ أزره في مواجـهة العواصف التي تهدف إلى فقدان الشخـصية الإسلامية لتوازنها واعتزازها بعـقائدها وانتمائها إلى خير أمة أخرجت للناس، وقد عـثرنا بمؤلفات بعض مسلمي الغرب على خير زاد في معركتنا الثقافية لكي تشد أزرنا وتجعلنا الأقوى في المواجهة .

وللقارئ فكرة موجزة وهي تغري بالتوسع في دراسته والإفادة منه :

أن حصيلة أفكار الرئيس **على بيجوفيتش** تثري الفكر الإسلامي المعاصر وتمنحه دفعات قوية لمصارعة الفكر المـتغرب ببلادنا إذ أظهر بكتابه (الإسلام بين الشرق والغرب) حاجة العصر الماسة إلى الإسلام بعد فشل الأيدولوجيات - لا تطويعه للعصر كما يريد البعض منا !- وفي سياق عرضه الممتاز صحح التصورات المنـحرفة في الفلسفة الـغربية عن الإنسان ، وأحل محـلها تصور الإنسان في الفكر الإسلامي الشامل للعقائد والدوافع النفسية وطبيعة علاقاته الاجتماعـية والدولية ، مع تحديد الغايات الدنيوية القـصيرة الأجل في ضوء

الشرع والغايات الأخروية اللانهائية .

كذلك وظّف بعض النظريات العلمية في زيادة الإيمان ، نافثاً في الأمة الأمل في مستقبل مشرق لكي لا تقع صريعة لصاحب فكرة (نهاية التاريخ).

وباختصار ، يخرج دارس كتابه بأنه باتباع منهج معايير العصرفي التقويم - أثبت أن الفكر الإسلامي يتصدر المقدمة بلا منازع - لا كما يصوِّره أعداؤه بدعاوي ملفقة ، وأكاذيب مثيرة للسخرية !

وتعلمنا من **رينيه جينو (المعروف بالشيخ عبدالواحد يحيى)** أنه بسبب نسيان أو تجاهل طبيعة الحكمة الحقة التي تستند إلى التراث نشأت الفلسفة (الدنيوية)، التي تنكر كل ما يسمو على المستوى العقلاني، وشاع ما يسمى بالمذهب الإنساني، لا بمعنى المحافظة على كرامة الإنسان وحريته وحقوقه، بل بالابتعاد عن السماء بحجة امتلاك الأرض !

كما تعلمنا من **د/ هوفمان** بعد طول البحث والتجربة والاطلاع على تراثنا الإسلامي وموازنته بالثقافة التي نشأ عليها ، أن الإسلام هو البديل للانهيار الغربي فسمَّى أحد كتبه وأهمها (الإسلام كبديل) ، ويمثل بمضمونه مواجهة حقيقية تصدم الفلسفة العصرية الغربية وتكشف جهلها بالقيم وإباحيتها المطلقة لكل شئ ، لقد قام بالدفاع عن الوحي الذي تلقته الأجيال تلو الأجيال بمنهج النقل البالغ الدقة ، كذلك قام - كما فعل سلفه (رينيه جينو) - بنقد الفلسفة المادية لما عانته من أزمات بسبب القطيعة مع الروح النقلي ، فانتهت إلى الفلسفة النفعية المجردة من القيم ، وحرمت الإنسان من معرفة العالم الغير المحسوس .

ومروراً بنفس التجربة وبعد المعاناة الشخصية في ظل أجواء القلق والتوتر

وفقدان الأمل في الاطمئنان النفسي، عثر روجيه روباسكويه (عبدالكريم) على ضالته في السنة النبوية الخاتمة في سلسلة التنزيل الإلهي، وهي الكفيلة لكل من يلتزم بها بمقاومة الفوضى الحاضرة وإعادة تأسيس الطمأنينة والوضوح داخل الروح وتحقيق الغاية العظمى التي خلقنا الله تعالى من أجلها.

وأفردنا الباب الأخير لمناقشة الفلسفة العملية الأمريكية التي تحاول فرض هيمنتها على العالم بعد سقوط الماركسية ، إذ يتضح بالمناقشة أنها بدورها لا تقوى على الصمود أمام النقد بالمنهج الفلسفي ، ثم يأتي الفكر الإسلامي فيعرض البديل ويسدّ الثغرات الهدامة للعلاقات والقيم الإنسانية في الفلسفة الأمريكية .

وإذا كان المنهج الغالب على دراستنا هو المنهج النقدي، فإنه لم يأت نتيجة تكلّف أو اصطناع من جانبنا، ولكنه أتى في سياقه الطبيعي مع موقف نقّاد الثقافة الغربية من بعض علمائهم وفلاسفتهم وساستهم أنفسهم، وهذا لا يمنعنا من التصريح بأننا نهدف إلى إزالة غشاوة الفتنة عن عيون الأجيال الشابة، حتى يأتي جيل قادم عارفا بحقيقة ثقافته الإسلامية، فينهض لإحياء حضارته من جديد، بدلاً من الاستمرار في حالة الغيبوبة والتخدير، أو إشاعة روح اليأس، لأن أبواق الإعلام الغربي - أو قُل: دعاياته - وكتابات المتغربين أيضاً ، تتعمد الإلحاح على الوجه الفاتن لحضارة العصر ، وتخفي عن عمد أزماتها الحقيقية .

ومجمل القول أن الفكر الإسلامي أثبت أنه الوحيد القادر على منافسة ثقافة الغرب ، وأن الأمة الإسلامية جديرة بتعويض ما فاتها في ميادين العلوم والتكنولوجيا ، فإن المنافس الوحيد للحضارة المعاصرة هي حضارة

الإسلام ، وهي الكفيلة بعلاج مساوئ حضارة الغرب لأنها تملك مقومات العالمية، ومنظومة القيم ، والتشريع الراقي في المعاملات - اجتماعياً واقتصادياً وسياسياً - وتُفسّر معنى الوجود والغاية من الحياة ، وتقدم للإنسان منهج حياته الطيبة في الدنيا والكفيل بتحقيق سعادته في دار الخلود أيضاً .

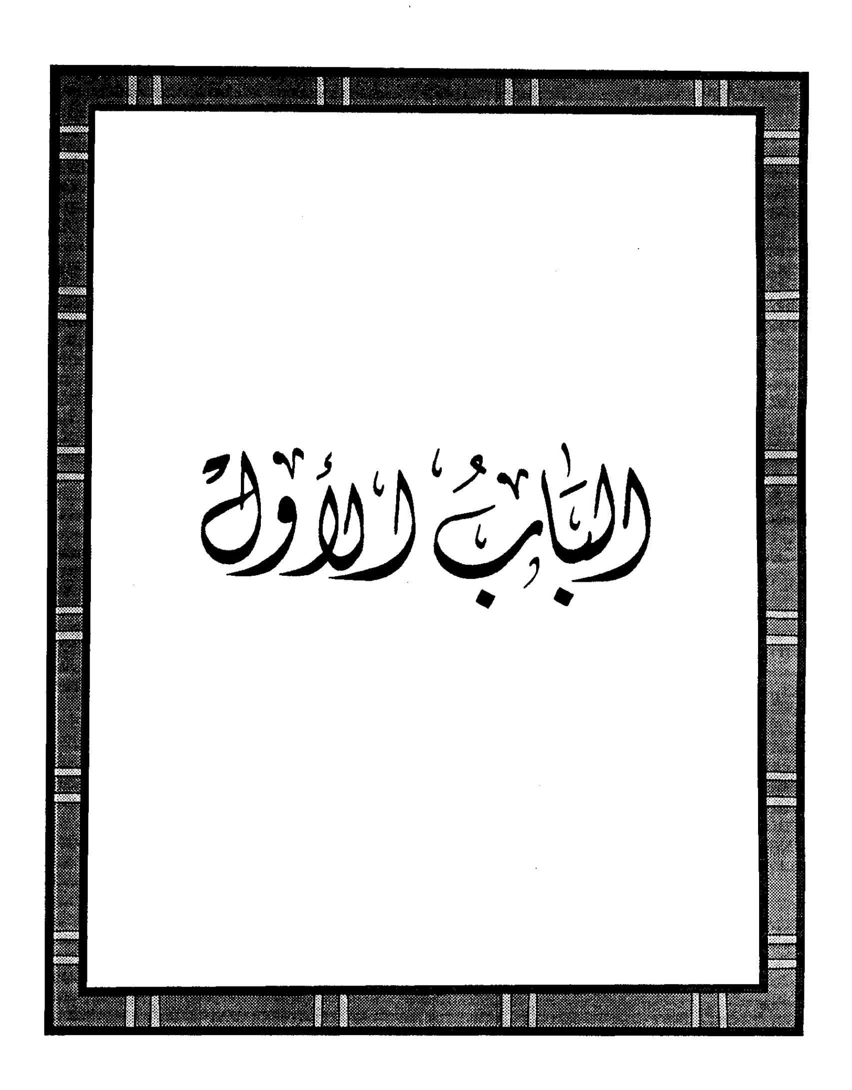
لذلك ترتفع أصوات الصراخ والعويل هناك خشية على حضارتهم من الأفول، وتحذيراً من شمس حضارة تبزغ في الأفق لكي ترثها ، وقد تأكدوا من ذلك بعد بحوثهم ودراساتهم في مراكز البحوث وأقسام الجامعات المتخصصة بحضارة الإسلام، وتراكمات جهود المستشرقين طوال عشرات السنين، وأغلبهم من اليهود والنصارى فلا البوذية، ولا الهندوسية ، ولا الكنفوشيوسية ولا غيرها من الأديان، والأيدلوجيات بقادرة على تحدي حضارة العصر .

۞۞۞

وأسأل الله تعالى قبول هذا العمل خالصاً لوجهه ، وأن ينفع به المسلمين، ويجعله ذُخراً لي بعد مماتي . . .

مصطفى بن محمد حلمي

الإسكندرية في : ٦رمضان ١٤١٨هـ
٤ينـــاير ١٩٩٨م



الباب الأول

تمهيد

أحوال العالم الإسلامى فى العصر الحديث :

فإنه يتعين على الباحث فى الفكر الإسلامى فى العصر الحديث أن يتعرض أولاً بشكل مجمل لدراسة أحوال العالم الإسلامى وتاريخه الحديث .

ولا بد أيضاً من معرفة أحوال العالم حـوله ، وعلى سبيل التحديد العالم الغربى لأن الغلبة صارت له فى حلبة الصراع -عسكريـاً واقتصادياً وسياسياً- وأصبحت العلاقات بين الغرب والشرق علاقات المستعمِر مع المستعمَر .

وإذا كان الغـرب قد حـسم الأمر لصالحـه فى هذه الدوائر الثلاث ،فـقد بقيت دائرة (**الفكر**) مستعصية بالرغم من حملات الغزو الثقافى الضارية ، إذ بينما كـان جسد الأمة مـثخن بالجراح بالطعنات تلو الطعنات ، نجـد أحد المناضلين عن عـقيـدتها وفكرها - وهو الإمـام رشيـد رضا - يرفع صـوته بكلمات ملؤها الثقة والعزّة بالنفس ، تبلغ الذروة باستخدامه لفظ (التحدّى) فى قوله :

(نتحدّاهم بالقرآن - وهو يقصد الفلاسفة والمؤرخين من جميع الأمم ولا سيَّمـا أحرار الإفرنج - بأن يأتوا بالإصـلاح الدينى والاجتماعى والسـياسى مؤكداً تقديم أسمى حضارة على أساس قرآنى) [1] .

---

(١) رشيد رضا ـ الوحى المحمدى صـ ١٦٥ .المطبعة السلفية - بالقاهرة .

وأخذ محمد إقبال يحذر من التقليد الأعمى لمساوئ حضارة الغرب، ومن أقواله (ولكن اياك والحضارة اللادينية التى فى صراع دائم مع أهل الحق، وأن هذه الفتانة تجلب فتناً وتعيد اللات والعزى إلى الحرم، وأن[1] القلب يعمى بتأثير سحرها. . وأنها تدع الإنسان لا روح فيه ولا قيمة له).

وقد أصاب شاعر الإسلام وفيلسوفه الكبير كبد الحقيقة فى تحذيره لأمته ومعرفته بحقيقة هذه الحضارة التى تبدو فى ظاهرها فتانة وفى باطنها تحمل السم الزعاف، اذ اجتاحت العالم الإسلامى لاستعماره ونهب ثرواته وتطويع شعوبه لمفاهيمها وفلسفتها وأنماط حياتها .

يقول جان بول رو تحت عنوان **(الاستعمار فى بلاد الإسلام)** .

(لم يكن القضاء على الدولة العثمانية إلا مظهراً من مظاهر الهجوم العام الذى يشنه الأوربيون على الدول الإسلامية . ومن جزر الفلبين إلى قلب إفريقيا، عمل الرجل الأبيض على بسط سيطرته على الرجل المسلم وفرض عليه مفاهيمه فى الوجود وطرق معيشته وتفكيره ، ومخططاته وتكنيكه . لقد تبدلت الأسس الاقتصادية وتغيرت المفاهيم ، والغربى الذى عزف عن الروحانية أكد أولية العمل المطلق الذى لا يخضع إلا إلى العقلانيات وانقطع عن الاعتقاد بالله ، وقوى السحر الخفية ، وأولوية الروح ، والعاطفة ، والمشاعر، بل أدار ظهره للحياة ليكتسب الحياة الفانية) [2] .

وفى تقسيمه لما سمَّاه بالصراع بين المسيحية والإسلام يرى أنه مرّ إجمالا بمراحل رئيسية أربع :

(١) الترجمة العربية من قصيدة (ضرب كليم) ـ نقلاً عن كتاب الصراع بين الفكرة الاسلامية والفكرة الغربية صـ ٩٩ ,

(٢) الاسلام فى الغرب – جان بول رو ص ٥٦ تعريب نجده هاجر وسعيد الغز . المكتب التجارى – بيروت نوفمبر ١٩٦٠ م

الأولـــــى: مرحلة الاندفـاع العربى نحـو الغرب وتبدأ غـداة وفاة النبى -ﷺ- وتنتهى باحتلال الشرق البيزنطى والمغرب وأسبانيا وصقلية .

الثانـية : هى الرد المسيحى فى حرب أسبانيا والعمليات الحربية فى إفريقيا والمحـاولات الصليبـية، وتـنتهى بالنصـر فى حـوض المتوسط والفـشل فى فلسطين.

وتشـهد الثالثة : دعوة المسلمين إلى التوسع على حساب المسيحيين وذلك على أيدى الأتراك، تمتاز هذه المرحلة باحـتلال القسطنطينيـة والبلقان وأوروبا الوسطى .

وأمـا المرحلة الرابعـة : فهى رد مسيحى جـديد ، تتميز بطرد الأتراك من ممتلكاتهم، والقضـاء على قوة الإسلام فى آسـيا الوسطى وروسيـا، وفرض الاستعمار - أو الحماية على القسم الأكبر من ديار الإسلام [1].

ولكن هل اسـتسلم العـالم الإسلامـى وألقى بسلاحـه جانبـاً وخلع درع الحرب ؟

إن إجـابة المؤلف صـريحة فى اعـتـباره بأنـنا نعيش الـيوم(أى منذ عـام ١٩٦٠م) **مرحلة خامسة** يمكن وصفها بأنها مرحلة النضـال ضد الاستعمار وتحرير الإسلام .

وكان صــريحاً أيضاً فى الاعـتراف بأن الغرب غـيَّر أهدافه، فـفى القرنين التاسع عـشر والعشرين ، فى المدى الـذى كانت المعركة لا تزال ترتدى فـيه طابع الإسلام، لم يكن الهدف من ذلك كما كان من قبل القضاء على الدين الإسلامى واستبعاده، بل على الأرجح القضاء على قوته السياسية ليس إلا .

---

(١) نفسه باختصار صـ ٧٠ .

أليس ذلك دليلاً على استحالة القضاء عليه بعد التجارب تلو التجارب ومن ثم لجأوا إلى الحرب الخفية أى الغزو الثقافى لإضعاف قوته فى نفوس المسلمين؟!

وكما قيل (**إن الزمن دوّار**) نرى المؤلف منزعجاً من ظواهر جديدة عقب الحرب العالمية الثانية ، وأخذ يسجل أسباب انزعاجه ففى تحليله للعلاقات المتشابكة بين العالمين الإسلامى والمسيحى يذكر أن بعض المشاكل الحيوية لما بعد الحرب قد نشأت بالضبط من جراء وجود شعوب إسلامية فى الغرب وقال (شئنا أم أبينا : إن الإسلام يلعب دوراً يومياً فى وجودنا . لقد أصبح أحد العناصر الرئيسية فى الحياة الغربية) [1] .

أولاً : علاقة الشرق بالغرب فى العصر الحديث :

ولا ينفرد جان بول رو - الباحث الفرنسى - بهذا الرأى، إذ نلاحظ ما يشبه الاتفاق بين الباحثين فى علاقة الشرق بالغرب فى العصر الحديث أى أنهم يقدّمون صورة تكاد تتطابق مع الاصطدام السابق فى القرون الوسطى فيما يعرف باسم الحروب الصليبية حينذاك .

وفى الدراسة المستوعبة لجغرافية الإسلام التى عالج فيها الدكتور جمال حمدان مجموعة منتخبة ومترابطة من جوانبه الحيوية ومشاكله المعاصرة المؤثرة، والمتضمن فيها جغرافية الإسلام مع تاريخه وحاضره، فى هذه الدراسة بمنهجها المتميز استطاع أن يعثر على الصلة بين التشابه البارز فى الشرق والغرب فى القرون الوسطى وفى المعابر الحديثة -أيضاً- راصداً حركات الاستعمار الاوروبى العسكرى وردود الفعل المقاومة له .

---

(١) الاسلام فى الغرب - جان بول رو ص ٥٦ تعريب نجده هاجر وسعيد الغز . المكتب التجارى - بيروت نوفمبر ١٩٦٠ م

وهو يؤكد أن العصور الوسطى هى عصر الدين بامتياز سواء فى ذلك الشرق أو الغرب، لذلك جاءت الصليبيات رغم دوافعها الكامنة كاستعمار اقتصادى خفى ، جاءت تحت شعار الصليب وقناع الدين ، فأخذ رد الفعل صورة دينية وتلخص الصراع فى مبارزة ملحمية ومصيرية بين الإسلام والمسيحية .

وبعد ان أصبح العالم الإسلامى فى قبضة الاستعمار فيما عدا اليمن وقلب الجزيرة العربية، كان التحدى (تحدى حياة أو موت بالنسبة للإسلام، وأعاد إلى الأذهان ذكرى الصليبيات . ولم يحاول الاستعمار الأوروبى من جانبه أن ينكر هذا ابتداء من اللنبى فى القدس حين أعلن أنه (الآن انتهت الحروب الصليبية) إلى جورو فى دمشق حين أطلق شماتته المعروفة (لقد عدنا يا صلاح الدين) [١].

وأصبحنا الآن فى مرحلة صراع مكثفة ، يصح معها التساؤل بدهشة عن السر فى أن النسبة الكبرى من صراعات العالم تقع على الأرض الإسلامية والعربية ! وهناك ما يدور فى البلقان وأفغانستان وحرب الخليج بتداعياتها ! ويتساءل الدكتور مصطفى الفقى :

(يا ترى هل هذا مجرد مصادفة لأحداث التاريخ مردها يعود إلى طبيعة الشعوب الإسلامية ومعاناتها أم أن الأمر تحكمى وموجّه من جانب القوى المسيطرة على عالم اليوم فى ظل شكله الجديد الذى يسمح لنا بالحديث عن نظام عالمى جديد) ؟ ![٢] .

---

(١) من كتاب العالم الاسلامى المعاصر صـ ١٣٢ ط عالم الكتب بالقاهرة ١٩٧١م.
(٢) الاسلام فى عالم متغير د/ مصطفى الفقى صـ ٩٧ . الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٣م.

وبشكل حاسم أيضاً يأتي الرأي من شخص خبير بدهاليز السياسة ومطلّع بشكل عميق على العلاقة التاريخية بين الغرب والشرق: يقول الدكتور **مراد هوفمان** :(وفى الحرب الصربية الحالية ضد المسلمين فى البوسنة والهرسك، رفع الصرب واليونانيون شعار الحرب الصليبية لاستئصال الدولة الإسلامية من أوروبا بشكل لا يصدق ولكن حقيقى: عادت الحروب الدينية لخشبة المسرح العالمى وليست البوسنة آخرها ، ولكنها أحدث الحروب الصليبية ، ويسأل الناس أنفسهم ثانياً: الله فى صف من؟ فى الحقيقة، لم ينته عصر الحروب الصليبية فى أى زمان) .

ثم يمسك بالعصب الحساس فى الجسد الغربى تجاه الإسلام فيستطرد (نعم، إذا سبرت غور النفس الأوروبية ، ولو بخدش سطحى صغير، لوجدت تحت الطبقة اللامعة الرقيقة عداء للإسلام - عقدة فيينا - (يقصد وصول طلائع القوات العثمانية بعد فتح القسطنطينية إلى فيينا ١٤٩٢م) التى يمكن استدعائها فى أى وقت. وهذا ما حدث بالضبط فى أوروبا خلال العشرين سنة الماضية[(١)] .

ويرى الأستاذ طارق البشرى أن أغلب حركاتنا السياسية كانت تصدر عن المورد الإسلامى العريض وبهذا نفهم حركات السنوسى والمهدى وابن عبد الوهاب والجزائرى والخطابى أي أن كل الحركات الإسلامية ظهرت من المورد الإسلامى فى القرن التاسع عشر . . لم يكن هناك ثمة فارق بين الحركة الإسلامية والحركة الوطنية . وأخذت كل حركة من الحركات الإسلامية تؤكد كل منها على جانب أو آخر مما تحتاجه الشعوب الإسلامية حسب الخصائص التاريخية أو الظروف الاجتماعية والسياسية التى يمر بها كل شعب من شعوبنا

---

(١) الاسلام كبديل؛ هوفمان ترجمة د / غريب محمد غريب - مجلة النور الكويتية، مؤسسة بافريا ، شوال ١٤١٣ هـ - ١٩٩٣م

فهناك من الحركات ما حمل السلاح فى سبيل الاستقلال بلاده مثل أفغانستان وهناك ما اقتصر على الدفاع عن أصول العقيدة حتى لا تجتث مثل حركة سعيد النورسى فى تركيا إبان نظام أتاتورك وهناك من الحركات ما أكد على الجوانب العقائدية مع تقديم مساعدات اجتماعية دون الوصل الى العمل السياسى المباشر مثل جماعة التبليغ فى الهند.

والآن وبعد الأزمات التى تعرض لها الفكر الماركسى والفكر القومى نجدها ترفع راية العلمانية للتخفى وراءها . . والعلمانية المجردة تعانى هى الأخرى من مشاكل حقيقية فى بيئة يصوغ فيها الدين الشخصية والوجدان. . وهى إذا وجدت مكاناً بين بعض المثقفين وبعض الطبقات المرفهة، فإن الجماهير لا تستسيغها؛ فهى بطبيعتها متدنِّية.

وعن الاستنارة التى يرفعها العلمانيون كشعار يقول الأستاذ **طارق البشرى**:

(أنا لا أفهم بالضبط ما هو تيار الاستنارة، هناك مرحلة فى تطور الفكر الغربى فى العصر الحديث تسمى عصر التنوير وهى فترة ظهور التيار العلمانى المنفصل عن الكنيسة . . وإذا كانوا يقولون الآن إن القرن الماضى هو قرن الاستنارة والحداثة فهذا مفهوم مغلوط لأن القرن الماضى فى تاريخنا لا يغلب عليه وصف الاستنارة والحداثة بقدر ما يغلب عليه وصف أنه قرن الاستعمار والإلحاد والغزو والتجزئة السياسية وهو أيضاً قرن تجمّع شعوبنا لمقاومة الغزو والتجزئة والتبعية وتعتبر العلمانية رافضة للدين ومقاومة له)[1].

والآن بعد عرض علاقة الغرب بالشرق ، لاحظنا أن الاستعمار هو الهدف الثابت للغرب : فكيف برَّر استعماره ؟

---

(١) ناقش الأستاذ طارق البشرى أصحاب الفكر العلماني باقتدار (يُنظر كتابه الحوار الإسلامى العلمانى) - دار الشروق ١٤١٧ هـ / ١٩٩٦ م .

ثانياً : تبرير أو تنظير الاستعمار :

كان الاستعمار جزءاً ثابتاً من سياسات الدول الأوروبية عسكرياً، منذ الرومان، إذ إنهم أول أمة أضفت على العدوان صورة الاستعمار المنظم، لا مجرد عدوان شعب قوى على جيرانه الضعفاء.

وأصبح الاستعمار الأوروبى فى العصر الحديث صورة مكررة من عدوان أجدادهم الرومان .

إلا أنه أخذ شكل نظريتين استعماريتين فى السياسة الدولية فى القرن التاسع عشر لتبرير استغلال الشعوب :

الأولى: النظرية البيولوجية السياسية التى تعطى للدول الكبار الحق فى التهام الدول الصغرى التى يجب أن تذوب داخل كيانات أكبر، فقد ميز رينان (١٨٩٧م) بين الجنس السامى والجنس الآرى فى كتابيه (تاريخ اللغات السامية) و(ابن رشد) . . وقد جاء فى كتابه الثانى :

(وليس العرق السامى أى الشرقى هو ما ينبغى لنا أن نطالبه بدروس الفلسفة، ومن غرائب النصيب ألا ينتج هذا العرق ، الذى استطاع أن يطبع على بدائعه الدينية أسمى سمات القوة ، أقل ما يكون من بواكير خاصة به فى حقل الفلسفة) .

وعلى العكس من ذلك - كما يرى رينان - فإن الجنس الآرى (أى الأوروبي) مهيأ غريزياً للقيام بعمليات عقلية معقدة ، تتسم بالتحليل والتركيب والتفكير فى دقائق وتفصيلات الوجود) .

وكتب أيديولوجى الاستعمار الأمريكى باردجيسى فى نهاية القرن الماضي:

(إن القسم الأعظم من الأرض تسكنه شعوب لم تستطع أن تقيم دولاً

متمدنة، وليس بمقدورها عملياً أن تقــوم بمثل هذه المهمة، فقد قدر عليها أن تظل همجية أو شبه همجية . . وإزاء هذا الوضع لا يقتصر واجب الشعوب الناضجــة سياسيــاً على الاستجــابة إلى توسلات الأمم المتخلفــة التى تلتمس المعــونة والإرشــاد ، بل يتــعدى ذلك إلى إرغــام هذه الأمم على الخــضــوع والامتثال[1] .

الثانيـة : إباحة تملك الأقاليم التى تسكنها شعوب متخلفة غير مسيحية ، أو قبائل منعزلة عن ركــب الحياة العصرية خارج القارة الأوربيــة واعتبار هذه الأقــاليم خاليــة يمكن تملكها لأول دولــة تطؤها وقد وضع مــؤتمر برلين سنة ١٨٨٤م عدة شــروط لهذا الاستــيلاء حتى يحــدث جميع آثاره القــانونية فى المجال الدولى وتظهر فــى هذه النظرية النزعة العنصرية الواضحــة فضلاً عن استغلال العاطفــة الدينية لنشر المسيحية كســتار لعمليات النهب والسلب التى بدأها البرتغاليون وتبعهم الهولنديون والفرنسيون والإنجليز) .

ويقول اللواء عبد الحميد شرف مستطرداً :

(وكان من المنتظر أن بلاد الإسلام تستطيع مقاومة موجة الاستعمار بفضل ميــراثها الثقافى الضــخم، ولكن هذا الميراث كان لدى الشــعوب وليس عند السلطة الحاكمة، ولهذا ظلت الشعوب إلى حد كبير محتفظة بدياناتها ولغاتها وحضارتها، بينما انهارت الحكومــات وتهاوت بسرعة عندما اصطدمت بالقوة الغربيــة المسلحة بالعلم، والمنظمة ســياسياً وعــسكرياً والمؤيدة فى الغالب من شعوبها)[2] .

---

(١) (نقلاً من كــتاب الذين يلحدون فى آيات الله) صـ ١٨٢/ ١٨٣ للدكــتور كامل سعــفان ط دار المعارف) .

(٢) الصراع الكبير بين الشرق والغرب ط الأهرام ١٤١٣هـ/ ١٩٩٢م .

ثالثاً : دوافع استعمار العالم الإسلامى خاصة :

لا تنطبق هاتان النظريّتان على العالم الإسلامى لما يتمتع به من مزايا متفردة جعلت منه خصماً عنيداً طوال عدة قرون، ومن هنا كان لابد من إيجاد مبررات لغزوه واستعماره وكانت **(إنجلترا)** هى رأس الحربة فى استعمار البلاد الإسلامية فى العصر الحديث حيث تزعمت الدول الأوروبية فيما يعرف بمؤتمر **(بانرمان)** الذى أصدر قراراته المبررة لاستعمار منطقة البحر الأبيض المتوسط .

وقام سير **هنرى كامبل** (رئيس الوزراء البريطانية وزعيم حزب (الأحرار) بعقد مؤتمر جمع فيه دول فرنسا وبلجيكا وهولندا وأسبانيا والبرتغال وإيطاليا شريكات بريطانيا فى استعمار الشعوب الأفريقية والآسيوية وغالبيتها الدول الإسلامية - وإن لم تكن كذلك بالكامل - حينذاك - لبحث تجنب الحضارة الأوروبية ما حدث لإمبراطوريات العالم إذ تنمو وتقوى ثم ترسخ وتستقر ولكنها لا تلبث أن تتحلل رويداً رويداً وتضمحل فتزول .

وضمن ما ورد بتقرير لجنة (بانرمان) أن الخطر الذى يهدد الاستعمار الأوروبى إنما يكمن فى منطقة البحر الأبيض المتوسط ويصف الأمة التى تعيش فيها (بأنها أمة تتوافر لها كل مقومات التجمع ، والترابط والالتئام، أي وحدة الثقافة ووحدة اللغة، ووحدة الدين، ووحدة الآمال) [١] .

وإذا ما قمنا بتحليل هذه القرارات لظهرت لنا عدة حقائق منها :

أن بعض فقرات التقرير يدفعنا إلى استخلاص مغزى هام هو أن الخشية ليست من قوة العالم الإسلامى العسكرية فقد هزم أمام جيوش الغرب المتفوقة تنظيماً وتسليحاً ، ولكن الخشية من قوة العالم الإسلامى المعنوية : قوة العقائد الدينية ووحدة الفكر والتاريخ والآمال . . . إلخ .

(١) (كتاب صليبية إلى الأبد ٤١٠) ، عبد الفتاح عبد المقصود ، الدار القومية بالقاهرة.

ولم يضيِّع ساسة الغـرب ومستشرقوه الوقت بل شمَّـروا عن سواعد الجدّ وأخذوا فى تمزيق كيان الأمة سياسياً وجغرافياً ثم انتهوا بالتمزيق الثقافى وهو الأدهى والأمر. وكـان الأستاذ محـمود شاكر سـباقاً فى التـحذير من تمزيق (الثقافة المتكاملة للأمة الإسلامية) [1] .

وسنناقش الآن الفكرة الشـائعـة التى تغالـى فى وصف العالم الإسـلامى بالانحطاط عند بداية الاستعمار :

رابعا : واقع العالم الإسلامى فكريا وعمليا :

بدأ بعض البـاحـثين يعـيـدون النظر فى غلو الـفكرة القـائلة بأن العـالم الإسلامى كان فى حالة انحطاط شديد وكـأن أوروبا جاءت لانتشاله وإنقاذه، كما بالغ بعض الكتاب الأجانب فى وصف هذا الانحطاط لتبرير الاستعمار، وقد ناقش الدكتور عمر فروّخ مـا زعمه نفر من الأجانب عنا ثم تابعهم على زعمـهم هذا - مع الأسف - خلق كثيـرون منا أن العرب خـاصة والمسلمين عامة قـد مّروا بعصر من الانـحطاط بعد الحرب الصليبـية).ودليله فى الرد على هذا الزعم الباطل انه يتـضح من مراجعة تاريخنا العـربى الإسلامى بعد الحروب الصليـبية وجـود رقى كثيـر فى عدد من مـيادين الحيـاة، فلقد بقى أسلافنا ناشطين فى التأليف الـثقافى إلى أواسط القرن الثانى عشـر للهجرة (أواسط القرن الثامن عشر للميلاد) .

ويستـطرد فيذكـر أنه كان (عندنـا فى أواخر هذه الفـترة كتـاباً فى آلات الحرب والمدفع لأحـمد بن غالب الأندلسى، هو مـغربى، ثم كتـاباً غاية فى الإتقان فى حركات السبع كواكب السـيارة ثم كتاب الطب الجديد لصالح بن

---

(١) ينظر كتابه (رسالة فى الطريق إلى ثقافتنا) كتاب الهلال العدد ٤٨٩ سبتمبر ١٩٩١

نصر الله الحلبى ثم كتباً وبحوثاً قيـمة فى الفلك لرمضان بن الصالح بن عمر السفطى ثم الكتاب الجامع (كشف اصطلاحات الفنون للتهانوى) . .

تلك بضعة أسماء من مئات وألوف من أمثالها من هذا العصر الذى يسميه نفر من الناس ظلمـاً عصر الانحطاط (١) ، بل يرى العلاّمة الأستـاذ محمود شاكـر أن ما كـان يجرى فى دار الإسـلام منذ منتصف القـرن الحادى عـشر الهجرى (السابع عـشر الميلادى)، إلى منتصف القرن الثانى عـشر الهجرى (الثامن عـشر الميـلادي)، إنما هو يقظة حقـيقيـة، ونهضـة كاملة ، وإحـياء صحيح (٢) .

كذلك أثبت اللواء عـبد الحمـيد على شرف بـكتابه (الصراع الكبـير بين الشرق والغرب) أن الكـتب العربية كانت تدرس فى جـامعات أوروبا طوال القرون - الرابع عشر والخامس عشـر وجزء من القرن السادس عشر - وظل بعضـها يدرس حـتى منتصـف القرن الثـامن عشر ، وخـاصة كـتب الطب والجغـرافيا والتـاريخ والاجتمـاع ، فإن الشريـف الإدريسى هو صاحب أول خـريطة للعالم وليـس بطليمـوس ، كذلـك العلامـة ابن خلدون الذى ظل معترفاً به كأعظم مؤرخ وعالم اجتماع حتى القرن التاسع عشر .

ويقـرر أيضـا أنه ليس من الإنصـاف المبـالغـة فى تـقديـر تخلف الدولة العثمانية، فقد كانت اسطنبول فـى أواخر القرن السادس عشر أكبر مدينة فى العـالم. . . وفى القرن الثـامن عـشر زار العـديد من الأوروبين العـاصمـة العثمانية للوقوف على أحوالها . ومن مظاهر القوة قيام الدولة بتسليح نفسها وبناء سـفنها الحـربيـة حتى القـرن الثامـن عشـر ، ومن المعروف أن القـوة

---

(١) تجديد فى المسلمين - لا فى الاسـلام . د/ عمر فروخ صـ ٢٠٦ . دار الكتـاب العربى بيروت ١٤٠١ هـ - ١٩٨١م .

(٢) رسالة فى الطريق إلى ثقافتنا صـ ١٢٤ كتاب الهلال سبتمبر ١٩٩١م .

العسكرية تعد ناتجاً من نواتج التقدم العلمى . وقد زار اللواء عبد الحميد المتحف البحرى والحربى باسطنبول وسجَّل إعجابه بدقة الخرائط التركية، كما شاهد آخر صناعة ساعات دقيقة وبوصلات من إنتاج القرن التاسع عشر . . .

واستخلص من مشاهداته أن حملة المبالغة فى تصوير تخلف العالم الإسلامى (هو تهيئة رأى عام لدى الشعوب الأوروبية لتقبل فكرة الانقضاض عليه وتمزيقه باعتباره وثنياً غير متحضر ومن هنا كان إنكار كل إسهام محمود لهذه الأمة) . (ويذكر أنه تعرَّف أثناء زيارته لاسطنبول سنة ١٩٩١ميلادية بمدير مركز الأبحاث للتاريخ والفنون والثقافة الإسلامية الذى يقوم بجهود بحثية عظيمة فى التراث الحضارى الإسلامى لتعريف الجيل الحاضر بالتراث العلمى والثقافى الإسلامى فى العصور المتأخرة .

والمركز تابع لمنظمة المؤتمر الإسلامى ويُموَّل من الحكومات الإسلامية ولكن اللواء عبد الحميد يرى ضرورة إشراك الشعوب والأفراد والجمعيات الغير الحكومية فى الدعم المادى لهذا المركز لخطورة دوره فى بعث صحوة حضارية إسلامية) [1] .

أضف إلى ذلك الحريات المتاحة فى الدولة العثمانية فإنهم لم يفرضوا على البلاد التى حكموها أى طابع خاص، بل تركوها تتابع حياتها الاجتماعية والاقتصادية كما يحلولها، وتقوم بشؤون عباداتها حسب عقائدها فتنوّعت داخل الوحدة التركية التقاليد والعادات والعقائد والمذاهب الدينية والفكرية والسياسيةوالاجتماعية فكانت الدولة العثمانية أشبه برقعة الشطرنج لكل شعب فيها نظمه وتقاليده وملابسه القومية ولغاته ولهجاته وزعماؤه المحليون، ولم تفكر ولم تحاول الحكومة المركزية فى استانبول صهر هذه الشعوب فى

---

(١) الصراع الكبير بين الشرق والغرب صـ١٣٤ـ .

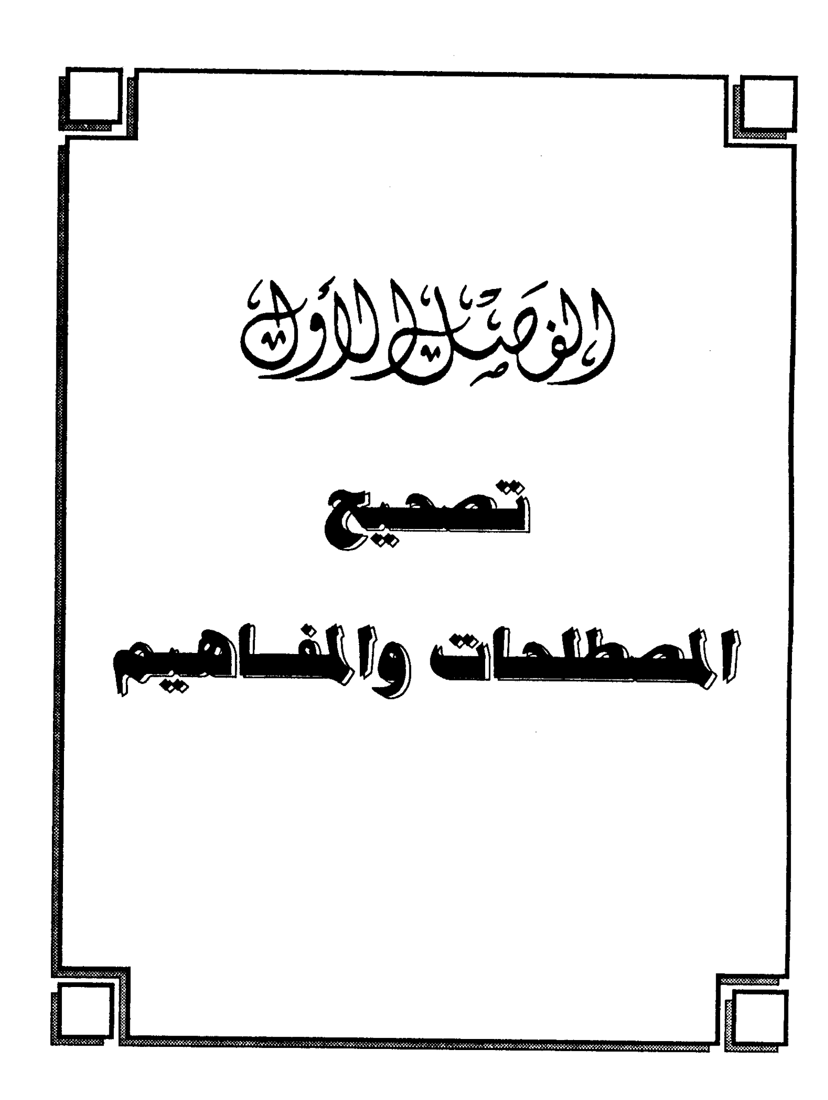
بوتقة واحدة إلا منذ عهد الاتحاديين (أى جماعة الاتحاد والترقى بزعامة أتاتورك اليهودى الدونمى) ، الذى وصل إلى الحكم بعد عزل السلطان عبد الحميد الثانى سنة ١٩١٩م . وحاولوا تحريك جميع عناصر الدولة فاصطدموا بالقوميات الناشئة وخاصة القومية العربية فلم يحسنوا اختيار الظرف فكانت محاولتهم هذه أحد عوامل تفكك الدولة ونهايتها)[١].

وبعد هذا العرض الموجز لأحوال العالم الإسلامى وصلته بالغرب سنتكلم عن مصطلح (الفكر الإسلامى) : **نشأته وقضاياه**

● ● ●

---

(١) (تاريخ العرب والاسلام) منذ العصور القديمة حتى العهد العثمانى ، أنور الرفاعى صـ ٤٧٠ ط دار الفكر - دمشق ١٩٧١م .



الفصل الأول

تصحيح المصطلحات والمفاهيم

أولاً : مصطلح « الفكر الإسلامى »

النشأة والقضايا :

قد يصعب تحديد أول من استخدم مصطلح الفكر الإسلامى - وربما كان الدكتور البهى[1] من أوائل من استخدم المصطلح وحدد القضايا التى عالجها، إذ يعرض فى إطاره الآراء والأفكار المطروحة للبحث عن الاصطدام بالاستعمار الغربى فى العصر الحديث لأنه فجّر مشكلات لم تكن معروفة من قبل فى تاريخ الأمة الإسلامية، فقد دُرِسَّت مشكلات أخرى فى تاريخنا باسم مصطلحات علوم الكلام والفقه وأصوله والفكر الفلسفى اليونانى أما فى العصر الحديث فقد فرض الغزو الاستعمارى الثقافى قضايا أخرى كالتبشير والقوميات والعلمانية والماركسية والوجودية والبرجماتية، فضلاً عن القضايا التى كانت مطروحة من قبل فى علم مقارنة الأديان أو مما كان يثيره الملاحدة والزنادقة ممن ينكرون الأديان ولا يقرون النبوّة وعالم الغيب .

شرح المؤلف فى مقدمات كتابه الغرض من تأليفه، إذ بلغت طبعاته خمساً: فى الأولى سجل تأثر المستشرقين منذ الحروب الصليبية بعداوة دينية لم يستطيعوا أن يُنحّوها جانباً، مع التعسف والشطط فى الحكم لا حرية البحث او حرية التعبير كما يزعمون وقد قوبلوا داخل العالم الإسلامى باتجاهين إما التبعية للفكر الماركسى الشرقى أو التبعية العلمانية فى الفكر الغربى ، وسجل المؤلف فى مقدمة الطبعة الخامسة ١٩٦٨م أن العداء الماركسى أخّر إصدارها .

وفى الطبعة الرابعة الصادرة سنة ١٩٦٤م سجل فى دهشته مطالبة أحد المستشرقين بتعديل الإسلام حتى يلائم الحضارة القائمة وإلا فالفناء مصيره !

---

(١) د/ محمد البهى : الفكر الاسلامى الحديث وصلته بالاستعمار الغربى ط دار الفكر - بيروت ط المحرم ١٣٨٩هـ - ١٩٦٨م .

ويبدو أن هذا مازال هدفاً ثابتاً . . .

أما مضمون الطبعة الثانية - كالأولى - فأفصح عن غرضه في إيقاظ الوعى بتفكير توجيهى محايد لا مذاهب شرقية إلحادية ولا غربية صليبية على أساس من الإسلام الأصيل نفسه وتنمية الذات والشخصية بالتفتيش عن مصادر الأصالة.

وهنا فى مصر كان من مظاهر التجديد فى الفكر الإسلامى منذ بداية القرن العشرين، ترديد الفكر الغربى فى القرن التاسع عشر.

ولم يكن الترديد النافع منه الذى يصح أن يثمر فى الجماعة الإسلامية الناهضة، كالفكر العلمى، فى مجال التعمير والهندسة، و فى مجال الكيمياء، وفى مجال الطبيعة أو الرياضة البحتة، وإنما كان ترديد فكر المستشرقين . . أو الفكر المادى .

إن الذين تجاوزوا من فلاسفة الغرب بنقدهم الميتافيزيقيا و الدين ، لم ينقذوه إلا لتصفيته من العقائد غير المعقولة فى عصر تيقظ الإنسان فيه إلى قيمة نفسه . . .

ولكن هنا فى مصر والشرق الإسلامى عندما ارتضى المجددون لأنفسهم أن يكونوا مرددين لمفكرى الغرب رددوا هجوماً على دين ليس ثمة داع لمهاجمته وهو الإسلام لأنهم قرأوا ما يشبه الهجوم على المسيحية باسم النقد العلمى أو العقل .

وقدّم الدكتور البهى للاتجاهين السائدين فى العالم الإسلامى منذ الاستعمار فقال:

ولم يقف استخدام هذا النفوذ السياسى القوى عند حد الاستغلال الاقتصادى للإبقاء على تخلف المسلمين بل استخدم ايضاً للتنفيس عن الهزيمة الصليبية فى الحروب الماضية .

ولتحقيق هذين الغرضين ابتدأت فى الغرب (**دراسة**) للمقابلة بين المسيحية والإسلام : المسيحية دين المتقدمين والإسلام دين المتخلفين . وقام بعض المسلمين ينادى باتباع الغرب ولا يكون هذا الاتباع مثمراً للشرق الإسلامى إلا إذا اتخذ موقفاً من الإسلام يقرِّبه من المسيحية .

وعلى أساس هذا التقريب قامت حركة السيد (**أحمد خان**) فى الهند التى سماها (**تجديد**) وقامت حركة أخرى بعدها هى حركة **(مرزاغلام أحمد)** - زعيم طائفة البهائية - وعاون المستعمر الغربى هاتين الحركتين .

ولكن ظهر اتجاه ثان يفهم الإسلام على الوجه الصحيح ويؤمن به ايماناً قوياً، فقام جمال الدين الأفغانى، ومن بعده الشيخ محمد عبده ليدفعا حملة التشويه عن الإسلام، ويواجها المستعمر وجهاً لوجه .

وجاء القرن العشرون، واستمرت أيضاً الثنائية فى اتجاه التفكير الإسلامي:

أحدهما : سار فى طريق خدمة الاستعمار الغربى ولكن عن غير قصد مباشر، ويعتبر تقليداً للدراسات الإسلامية فى تفكير المستشرقين الغربيين ، ثم أضيف إليه منذ نهاية الحرب العالمية الثانية الحديث عن الإلحاد فى مواجهة الإسلام والمسلمين أى التفكير الوضعى الماركسى .

الثانى : محاولة تجديد المفاهيم الدينية التى باشرها فى مصر تلاميذ الشيخ محمد عبده، كما قام بها فى الهند فيلسوف الباكستان **(محمدإقبال)** واستنتج من هذا كله أن الاستعمار له صلة وثيقة بالفكر الإسلامى .

كما اعتبر الدكتور البهى أن الفكر الإسلامى فى هذه الفترة التى بلغت قرناً كاملاً يتضمن الاتجاهين السابقين .

لقد كان واضحاً إذن فى ذهن الدكتور البهى - عندما استهدف إيقاظ الوعي على أساس من الإسلام الأصيل - أن مناقشاته وعرضه للأفكار

المتصلة بالإسلام تقتضى أن يجلي حقائق الدين الإسلامى - في دائرته الكاملة - أى العقائد والعبادات والشرائع والنظم والمبادئ لا مجرد **(أفكار)** نظرية كما يوهم عنوان الكتاب .

لذلك نرى أنه لابد من تصحيح عدّة مفاهيم متداولة قبل الخوض فى دراسة الفكر الاسلامى وقضاياه فى العصر الحديث :

أ - : الإصلاح الدينى بين الإسلام والنصرانية

يذكر الدكتور عمر فروخ أن الخلاف بينهما واسع جداً (وإذا كان القول بالتجديد فى النصرانية ممكنا فإن هذا القول غير جائز فى الإسلام فإن المصلحين والمجددين النصارى - وكانوا كثاراً منذ مطلع النصرانية - كانوا يجدّدون فى الدين النصرانى نفسه أما فى الإسلام فكان الإصلاح أو التجديد يتناول ردَّ المسلمين إلى حقيقة الإسلام. كان المصلحون النصارى يريدون إنقاذ الناس من قبضة الكنيسة ورجالها ،أما المصلحون فى الإسلام فكانوا يريدون أن يُفهِّموا الناس - كلما انتكس الناس فى جاهليته - حقيقة الإسلام)[1] .

ويقول الدكتور فروخ :

(كنت أتفاوض مرة مع أستاذى المستشرق الألمانى يوسف هل (٨٧٥هـ - ١٩٥٠م) فى هذا الإمر فقال لى: لا شك فى أن لوثر وكان ومذهبه الإصلاحى للنصرانية الكاثوليكية (المذهب البروتستانتى) ، يطالع فى مصحف (فى نسخة من القرآن الكريم) بين يديه . لقد كان القرآن الكريم قد نقل إلى اللغة اللاتنية منذ القرن الثانى عشر (قبل لوثر بنحو أربعة قرون)[2] .

---

(١) تجديد في المسلمين لا في الإسلام، د. عمر فروخ صـ ١٢ .

(٢) تجديد في المسلمين لا في الإسلام، د. عمر فروخ صـ ١٢ ,دار الكتاب العربى - بيروت ١٤٠١هـ - ١٩٨١م .

ومن الأدلة على ذلك عدد من وجوه الإصلاح التى افـترضها لوثر (وهى موجودة فى الإسلام ومخالفة لما كان معمولاً به فى النصرانية الكنسية) :

الإنسان ينجو فى الآخرة بعمله الصالح لا بحلٍّ الأسقف له من ذنوبه -لا مكان للصور فى الكنيسة والعبادة - ليس للبابا عصمة فى نفسه ولا له سلطة على النصارى ولا قدرة على غـفران الذنوب - لا إكليركية (طبـقات رجال الدين) لا رهبـان ، ورجال الدين كـلهم يستطيـعـون أن يتزوجـوا - إنكار القـربان (قول الكنيـسة الكاثوليكـية بأن الخـمر تنقلب بصـلاة من الكاهن فتصبح دم المسيح وينقلب الخبز فيصبح لحم المسيح) .

ويقول الدكتور عمر فروخ :

(إننا نريد علماء مجتهدين مستنيرين ، يعيدون اسلامنا إلى أصله الأصيل ويزيلون ما علق به وطما عليـه خلال القرون الخمسة الأخـيرة من الوساوس والدسائـس والشبهـات .نريد علماء يعـملون على وضع الإسـلام فى جو العصر وينقلونه من التحجر والجمود إلى الحـضور الإنسانى المتجدد بالإستقاء من ينابيـعه الروحـيـة وأصوله الحـضارية لا تقليـد الغـرب والتقـيّد بمسـاره التاريخى)[١]

إن حجـة التغريبيين - عند الأسـتاذ سعد جـمعة تقوم على أسـاس أن ما حدث فى أوروبا حـين بروز القوميـات فيـها على أثر الفـصام بين الكنيـسة والعلم هو قدر وحتمية تاريخـية، وأن لابد للأمة العربية إذا أرادت أن تلحق بركب الحـضارة المـادية أن تتخلى عن الـدين وأن تتخـذ العلمـانيـة منهجـاً وطريقاً، لأن تقدم الحضارة الأوروبية منوط بغياب الدين . . .

---

(١) تجديد فى المسلمين لا فى السلام ، د / عمر فروخ صـ١١ .

وأصل الخطأ إغفالهم موضوعية البحث المقارن بين الدساتير والقوانين الوضعية المنبثقة من أيديولوجية الرأسمالية والشيوعية وبين الشريعة الإسلامية بمنهجها الإلهى المتقدم على تلك الدساتير والقوانين .

إن مشكلة التبعية والانبهار بالثقافة الغربية خيرها وشرها التى تعانيها مجتمعاتنا ودولنا وحكوماتنا الجاهلية اليوم مردّها إلى أنه عندما هزم الدين فى أوروبا، برزت النزعات القومية العرقية خاصة وأن حركة الإصلاح الدينى كانت مرتبطة بالروح الوطنية، وانتقلت العدوى بعد الاستعمار إلى الشرق فتمزق العالم الإسلامى والأمة الإسلامية إلى كيانات إقليمية قومية .

إن التجديد الصحيح المتوافق مع حديث الرسول ﷺ كما يعبر عنه سعد جمعة رئيس الوزراء الأردني السابق فى كتابه **(الله أو الدمار)** يراه متمثلاً في (الدعوة الثانية - التى تنفر من التقليد الأعمى للغرب - وهى التى انبثقت من واقع البلاد المغلوبة، وفى حضن عقيدتها وتاريخها، فقد كانت تهدف إلى انبعاث إسلامى جديد يزيل ما علق بالإسلام من تشويه وشبهات وتجديد المفاهيم الدينية وبعث الشريعة الإسلامية والملاءمة بين ذلك كله، وبين تطور الحياة وأحداثها المتتابعة ،والحث على اقتباس الحضارة الأوروبية التكنيكية مع المحافظة على المبادئ والقيم والتنظيمات السياسية والاجتماعية والاقتصادية التى احتوتها الشريعة الغرّاء التى هى بشهادة أكبر علماء القانون فى الدنيا من الغرب نفسه الكفيله وحدها بإنقاذ العالم من ويلات التفسخ والتبدد والانسلاخ الأخلاقي) [1] .

---

(١) كتاب (الله أو الدمار) للأستاذ سعد جمعة صـ٧٥ ط المختار الإسلامى ١٣٩٦هـ -١٩٧٦م.

ب ـ اختلاف تصور الدين بين الغرب والمسلمين :

توجز الدكتوره آناماري شمل الإسلام بدائرته الشاملة ومغزاه الحقيقي بقولها (ينبغي ألا ننسى بيتّي جوته ، في الديوان الشرقي الغربي ، الذي يشهد له بالبصر العميق في عالم الفكر الأسلامي :

إن يكُ الإسلام معناه القنوت . . . . . .

فعلى الإسلام نحيا ، ونموت . . . . . .

وربما نعثر عند الفكرة المجسدة أو الفهم الواعي لهذه الحقيقة بكتاب الدكتور هوفمان **(الإسلام كبديل)** إذ يوضح منهجه ببداية بداية كتابه بأنه مرافعة تدافع عن الإسلام وتزكيه، جذورها ضاربة في التاريخ وأسسها قائمة على العلم والموضوعية، مع وعي المؤلف التام بالمعاناة والأدواء والمشكلات.

ثم يضع الإسلام في مكانه الصحيح متعالياً على كلا النظامين الغربي والشيوعي فيقول :

(كان الإسلام، إبان الصراع بين العالم الغربي والشيوعية، يستطيع ان يعد نفس الطريقة الثالثة المباينة لهما، أي أنه الخيار الحر المستقل عن كليهما لفهم العالم والتعامل معه عقائدياً، أما اليوم فإن الإسلام يطرح نفسه بديلاً لكلا النظامين، وذلك لتوفير الحياة على أفضل وجه وتذليل مشكلاتها المستفحلة)[1] .

أما الرئيس على عزت بيجوفيتش فإنه يقدم الإسلام في شكل دائرة الإسلام المتكاملة الجامعة في تناسق بديع بين عقيدة التوحيد وبيان حقيقة الأنسان والتفسير الصحيح للحياة والنظم يتفوق على العقائد والنظريات

---

(١) الإسلام كبديل ، مراد هوفمان المقدمة و صـ١٨ صـ٢٠ مجلة النور الكويتية ومؤسسة بافاريا شوال ١٤٢٣هـ - إبريل سـ١٩٩٣م.

الفلسفية واليوتوبية وحتى النظريات التى تلبس ثوب العلم كالداروينية وما هى بعلمية .

وفى أحد نصوص الكتاب يقرران الإسلام ليس ديناً بالمفهوم الغربى وإنما هو بصفة أساسية مبدأ تنظيم الإنسان لقد وُجد الإسلام قبل الإنسان [1] -وسيأتي عرض آرائها تفصيلاً-فيما بعد -

جـ - التحذير من التوفيق بين الفكر الإسلامى والمذاهب الغربية .

فُتن بعض المسلمين بالمذاهب المعاصرة حتى بلغ بهم إلى حد إلباسها ثوباً إسلامية: ففى فصل بعنوان **(الإسلام والمذاهب الحديثة)** سجل الأستاذ فتحى رضوان بعض آراء العلماء الدالة على هذه الفتنة متسهدفاً التحذير منها بسبب الإحساس بالنقص أمام حضارة منتصرة تكتسح فى طريقها بلاداً وتستعبد شعوباً وتفرض نظمها على المقهورين، وكانت الأنظمة السياسية الذائعة الصيت حينذاك هى النازية والديمقراطية والاشتراكية، فعندما ارتفع نجم الألمان وكان هتلر يقودهم من نصر إلى نصر - كان فى رأى عالم مسلم أن النازية هى الإسلام بعد إسقاط الجانب الروحى منه لأن الإسلام ليس روحانية بحتة، فإنه بناء ومادة وقواعد حياة وأصول حكم، وتجارة وصناعة وزراعة، وزواج وطلاق - حياة بشرية كاملة ولكن يحيط بهذا كله ويرفعه إلى مستواه الأعلى ويحمله ويجعله روح سامية هى الاسلام، كما يعتمد على قصة خلق آدم فى البناء المادى للإسلام إذ خُلق أولاً ثم نفخ فيه الروح ويضيف صاحب هذا الرأى أن الألمان يقولون **(ألمانيا فوق الجميع)** والقرآن قال ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ والفارق الكبير بين المعنيين فارقٌ روحيٌّ!

---

(١) الإسلام بين الشرق والغرب ، على بيجوفيتش .

وكما كانت خصومة اليهود لزعيم الألمان، أشد الخصومات الذائعة والله تعالى قال ﴿ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا ﴾ .

وقد أجلاهم الرسول صلى الله عليه وسلم عن بلاد العرب، في حين أن زعيم الألمان تبعاً لحضارة عهده مثل بهم وخرج عن كل حد معقول وهذا هو الفرق بين زعيم ورسول !

ولكي لا يقع العالم صاحب هذا الرأى فى الحرج فكان يختم كلامه بقوله: (انا لا أدعوكم إلى النازية، ولا أُحسّنها لكم لأنى أدعو إلى الإسلام) وعلى أثر الحرب العالمية الثانية وانتصار الديمقراطية على النازية، أي الحكم الشمولى للزعيم الذى تجتمع فيه السلطة ويدين له الجميع بالطاعة والانقياد، عندئذ أخذ بعض علماء المسلمين يشيدون بالديمقراطية وأخذوا يستخرجون الآيات القرآنية والأحاديث النبوية المتصلة بالشورى ثم اتضحت فيما بعد عيوب الديمقراطية، إذ أن الصوت الانتخابى لا قيمة له لجائع أو لجاهل، ولا حرية رأى لصحافة فى بلد يحكمه أصحاب النفوذ وتجنى أرباحها من الإعلانات لأصحاب المصانع والمزارع والمناجم وهم بهذا أصحاب الكلمة فى الصحف.[1]

وإزاء هذا النقد القوى الذى يزرى بالديمقراطية السياسية ويعدها نصباً واحتيالاً، شعر المسلمون أن قولهم بأن الإسلام دين الديمقراطية لا يكفى لإعلاء شأنه، وفى الحال استطاع بعض العلماء أن يجدوا النصوص التى تؤيد إن الإسلام هو دين الاشتراكية، فالزكاة من أركان الإسلام وحديث الرسول ﷺ أسس مبادئها **(قال: الناس شركاء فى ثلاثة الماء والنار والمرعى)** وآيات القرآن الكريم تحرم الربا وهناك أحاديث أخرى تصف مجتمع المسلمين بأنه مجتمع التضامن الاجتماعى الذى يكفل فيه أهله بعضهم بعضاً.

---

(١) الاسلام والمسلمون، فتحى رضوان صـ٤٩٥ دار الشروق ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م

وبالعــودة إلى شــرح الخطوات التى خطاها أصــحاب الدعــوة إلى الحــرية الاجتمــاعية نجدها انتهت إلــى التبشير بأقــصى درجات الاشتراكيــة وأسفرت الحرب العالمية الثانية عن ظهور قــوة الاتحاد السوفيتى الذى بسط نفوذه المادى المادى والروحى علــى النصف الشــرقى مــن أوروبا ثم وقــفت إلى جـــانبــه (الصين).

ولم يكن ممكناً أن يشهد الفكر الإسلامــى كل هذا التطور وألا يفكر فيه فمن علماء المسلمين من رأى فى الشيوعية خطراً محدقاً بأقطار المسلمين ودولهم ، بل بعقيدتهم .

وفى النهاية يقول الأستاذ فتحى رضوان :

(وهكذا نرى أنه ما من صاحب مذهب حديث إلا قال عن الإسلام أنه تطبيق لمذهبه والصورة المثلى لعقيــدته، لو صدّقنا هذا كله لكان الإسلام نازية وديمقراطية واشتراكية وشيوعية فى آن واحد فهل هو هذا حقاً ؟!)[1] .

الإجابة قــطعاً بالنفى، والحق أن الصلة منبــتة بين الإســلام وبين هذه المذاهب التى جاءت بعده بعــدة قرون وجاءت ثمرة تطور الحضارة الغــربية على أساس من الظروف التى صاحبت نشأتها .

أما الإسلام فإنه كــدين يقيم بناءه على قاعدة طويلة عريضة عــميقة هى الإيمان بإله واحد يحكم هذا العالم بقوانين ثابتة لا تتغير ويتساوى أمامه الجميع .

والإسلام كمنهج حــياة فإن التجربة الإســلامية التى استمــرت بضع مئات من السنين حقــقت للناس الذين شاركوا فــيها، من القــوة والسعادة والإخاء والتــقدم المادى والطمأنينة النفسية والتألق الروحى، مــا لم تحققه أية حضارة أخرى فى ظل أى مذهب آخر .[2]

---

(١) الإسلام والمسلمون، فتحى رضوان دار الشروق ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م صـ٥٠١ .

(٢) نفسه صـ ٥٠٦

د - إنّ طرق المعرفة أوسع نطاقاً من الفكر وحده :

إن التفكيــر أو التعقل من وظائف الإنســان العليا فى الحياة كـالعلوم والمعارف التى تتسع بها آفاقه وتحقق له الإشباع النفسى بالتميز عن سائر المخلوقات ، وكلما ازداد علمــاً وتوسع فى نشــره والإفــادة من ثمــراته فى حقــول العلوم الإنســانيــة والتجريبية كلما ازداد سعادة لنفسه ولمجتمعه وللعالم .

هذا امر لا يمارى فـيه أحد، أمــا الاعتراض الوارد فـإنه ينصب على الغلو فى العقل وتضــخيم دوره على حــساب أدوات الإدراك الأخــرى فى الإنسان إذ يرى الدكتور حسن زينو خطأ تعريف الماديين الإنســان بأنه حيوان عاقل لأنهم يقصدون بالعقل الدماغ بمعنى أن الجهاز العصبى للإنســان أعقد من غيره فى الأحياء، وبناء على هذا المفــهوم ينبــغى أن يقــال أن لكل حيــوان عقــلاً على درجات مــتفــاوتة والإنسان أعلى الحيوانات عقلاً. ويقرر الدكتور **حسن زينو** أن هذا التعريف خطأ كله (لأنه مترجم عن اللغات الإجنبية ترجمة خاطئة والأعاجم يعنون بالعقل كما قلنا الدمــاغ، فى حين أن العقل كمــا حدده القــرآن ليس هو الدماغ وإنما مــركزه القلب ﴿ **أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا** ﴾ .

وذكر علماء التوحيد أن الدمــاغ آلة التفكير وأن مركزه القلب وهذا ما توصلت إليه الدراســات حديثاً فى أن العقل فــى كيان الإنسان والذى يقــول أن العقل هو الدماغ إنما يقلّد العوام فى رأيهم)[1] .

وبعد استقــراء الآيات القرآنية التى تصف وظيفة القلب وأحــواله والقسوة التى

(١) التطور والانسان صـ ١٤٩ ، للدكتور المهندس حسن زينو (تخصص الجيولوجيا والتنقيب) ط دار الدعوة - بيروت ١٣٩١هـ - ١٩٧١، وقد تأكد هذا التفسيــر بناءً على تجربة د/ برنار - وهو طبيب بجنوب أفريقيا - يقوم بزراعة قلب ناجحة تماماً من الناحـية الطبية، ولكن عندما وضع المريض تحت الملاحظة . . حدث في أثنائهــا أنه كان يهذي ويتـحدث عن فكر لا يمت إلـيه بصلة ، وعندمــا طلب تفاصـيل حياة صــاحب القلب الأصلي ، فكانت المفاجأة أن المريض لا يهــذي ، ولكنه يتحدث بأفكار صاحب القلب . . واعتــزل الدكتور برنار مهنته !

وكرر الدكتور مجدي يعقوب التجربة حـيث أجرى لطفل عملية زرع قلب ناجحة ، إلا أنه أصيب في أعقاب العملية بمرض أدى إلى تدمير قواه العقلية !

(باختصار : مقال بقلم د/ علي الخطيب : مجلة الأزهر صفر ١٤١٨هـ ص ١٧٨/ ١٧٧

وصف بها قلـوب أهل الكتاب ﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ﴾ وكان القرآن هو الروح الذى أحيا القلوب القاسية ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾ فحياة القلب ليس معناه ان لا يجرى فـيه دم، وقسـوة قلوب أهل الكتاب إلى أشـد من الحجارة لـيس معناه انعدام نبضها وإنما المقصود بذلك هو الصم المعنوى عن الفقه والعقل[1].

وطرق المعرفة، وأبلغها معرفة الله عز وجل ليست محصورة فى الفكر وحده، ويذكر **الراغب الأصفـهانى** أنه ما من برهان ولا دلالة وتقسيم وتحديد مبنى على كليات المعلومات العقلية والسمعـية إلا وكتاب الله تعالى قد نطق به، لكن أورده تعـالى على عـادة العـرب دون دقـائق طرق الحكمـاء والمتكلـمين، لذلك يرى الأصفـهانى أن الله تعـالى أخرج مخـاطباته فى محـاجة خلقـه فى أجلى صوره تشتمل على أدق دقيق، لتفهم العامة من جليها ما يضعهم ويلزمهم الحجة .

ويفهم الخواص من أثنائها ما يوفى على ما أدركه فهم الحكماء ، ثم يقرر :

(ومن هذا الوجه كل من كان حظه فى العلوم أوفر كان نصيبه من علم القرآن أكثر، ولذلك إذا ذكر تعالى حجة على ربوبيته ووحدانيته أتبعها مرة بإضافتها إلى أولى العقل، ومرة إلى أولى العلم، ومرة إلى السامعين، ومرة إلى المفكرين، ومرة إلى المتذكرين، تنبيهاً على أن لكل قوة من هذه القوى ممكن إدراك حقيقة منها .

وفى الحديث، قال النبى ﷺ **(تفكروا فى خلق الله تعالى ولا تفكروا فى الله)** فإن فيما خلق تفكر معاً متفكر .

قيل لإبراهيم النخعى: إنك تطيل الفكرة، قال (إن الفكرة مخ العبادة)

قال ابن عباس - رضي الله عنهما (التفكر فى الخير يدعو إلى العمل به والتفكر فى الشر

---

(١) نفسه صـ ,١٥٠ .

يدعو إلى تركـه)، والفكر إذن يتصل بالسلوك، وهذا يقـتضي إلقـاء الضوء على مسألتين هما :

أولاً ـ الفكر أحد وظائف المؤمنين :

سواء صح نسبة الكتاب موضـوع دراستنا هنا إلى الإمام الحسن البصرى أم لم يصح[1]، فإنه يحدد الوظائف المتعددة التى تبلغ أربعاً وخمسين وظيفة تجب على المؤمنين فى كل يوم - وما التفكيـر إلا واحد منها،فكم تبلغ نسبتـها إلى إجمالى الوظائف؟

إن مؤلف الكتاب يذكّرنا بوظائفنا بدءاً من ذكـر الله تعالى والوضوء والمحافظة على الصلوات فى الجمـاعة ومروراً بأكل الحلال والتوكل على الـله والصبر على الشدائد وجميع أعمال القلوب مـن التوبة والإخلاص وحفظ اللسان والمن والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وغيرها وغيـرها من الأوامر والنواهى حتى (الاستعداد للموت) !

إن السمـات التى نلاحظها فى هذه الوظائـف أنها تغطى أنشطة الإنسـان كلها بشكل متـوازن بين وظائف الجوارح والقلوب، وبين القـيم والأخلاق والعـلاقات الاجتماعية والأوامر والنواهى ، ووظائف العقل .

ففى وظائف الجوارح تندرج أعمال ذكر الله والوضوء والصلاة والصدقة .

وفى وظائف القلوب يندرج تطهير القلب من جمـيع المعاصى والتوكل والرضا والشكر والصبر والإخلاص .

وفى دائرة القيم الأخلاقية نجد الصدق والقناعة وأداء الأمانة وترك العلو .

وفى الوظائف الاجتـماعية نجـد الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وحـفظ مال

---

(١) كتاب أربع وخـمسون وظيفـة تجب على المؤمنين فى كل يوم، المنسوب للحسـن البصرى تحقيق وتعليق قسم التحقيق بدار للتراث بطنطا ـ مصر ١٤١٢ هـ / ١٩٩٢م .

اليتيم وبر الوالدين وصلة الرحم .

وفى رأس الأوامر والنواهى تأتى طاعة الله عز وجل وألا يشرك به شيئاً، وكذا النواهى عن شرب الخمر والزنا .

وتنحصر بين كل هذه الأنشطة وظائف العقل فى ثلاث: العبرة والتفكر والتعلم[1]

أما عن نطاق الفكر وحدوده وحاجته إلى الوحى الالهى فيقول الدكتور **كامل سعفان محذراً من الغلو فى الفكر :**

إن (الفكر الإنساني) لا يمتد إلى كل شئ ولا ينكشف له كل شئ ،ومن البديهيات أن الغيبيات جزء من حياته رضى أم كره،فإذا كان لا يعلم ما يجرى خلف بابه، أو تحت نافذته بل لا يعلم ما سيحدث له إن لم يكن لا يعلم ما حدث له فكيف ننكر أن (يغيب) عنه من أمر الروح والملائكة والجن والجنة والنار؟!

الفكر الإنسانى قاصر، ونموه دلالة قصوره، ومن قصوره ألا تكتمل الأفكار والتصورات والمعتقدات والغايات نابعة من ذاته، ومن ثم كانت الحاجة إلى الرسالات السماوية، تقوّمه، وتبصّره وتهديه ولو ترك أمره بيده لما كانت الهداية، لأن (الأفكار والتصورات والمعتقدات والغايات) الإنسانية تأخذ شكلاً فردياً وشكلاً جماعياً، ومع الفردية والجماعية تتطور أو تتصارع، وتتوالد، وتتفانى، ولا يكون التكامل،وإن حظيت فى مرحلة بالتأييد، وبالمغالاة فى التقدير)[2].

---

(١) المصدر السابق باختصار.

(٢) الذين يلحدون في آيات الله ، د. كامل سعفان صـ٩
دار المعارف بالقاهرة سنة ١٩٨٣م

ثانيا - الدراسات الإسلامية النظرية ومناهج التخصص فى العلوم الإسلامية :

ويدعونا الحديث عن المصطلحات إلى ضرورة التمييز بين (الدراسات الإسلامية) والعلوم الإسلامية وقد سبقنا الدكتور محمد حسين رحمه الله إلى التحذير من الانسياق وراء ما يسمى (بالدراسات الإسلامية) التى تنسينا قوميتنا وكل شخصياتها وأن ننسى ديننا وكل ما يتصل به بزعم **(الموضوعية)** التى يكثر البعض من الكلام عنها وهى فى الحقيقة ليست إلا حيلة لسلخنا من إسلامنا وعروبتنا باسم العلم .

فإذا أخذنا الموضوعات التى تناقش وتعرض باسم (الدراسات الإسلامية) [1]. فينبغى أن نضع شرطاً أساسياً لمناهجها، أى (أن كل ما يكتب عن إسلامنا وعروبتنا أن يكون وسيلة لتعميق صفتنا الإسلامية، ولا خير فيه إن لم يؤد إلى هذه النتيجة) .

ويمضى الدكتور محمد حسين قائلاً :

ولكن ينبغى أن لا نخلط بينها وبين (العلوم الإسلامية) فالعلوم الإسلامية هى علوم التفسير والحديث والفقه وما يتصل بها من دراسات مكملة لها ومعينة عليها، وهذه الدراسات لها مكانها الطبيعى فى المعاهد الإسلامية المخصصة لهذه الدراسات، تحيطها ضمانات تصونها من الانحراف وتمنع الانحراف ان يتسرب إليها إن شاء الله) .

---

(١) يُنظر كتابه (حصوننا مهددة من داخلها) ط المكتب الاسلامى ط ٤ / ١٣٩٧هـ - ١٩٧٧م بيروت دمشق ويرى الدكتور محمد حسين أن الدراسات الإسلامية تسمية أوروبية صـ ٣٠٩ و صـ ,٣١٣.

بهذا التـوضيح فإننا نضع (الفكر الإسـلامى) كفرع من فـروع الدراسات الإسلامية بالشروط الـتى سبقنا إلى وضعها الدكتور محـمد حسين، ونضيف اليها الجديد، أى أنه عبارة عن نتاج الفكر الذى تصدّى للفلسفات والنظريات الغربية ناقداً لها وواضعاً البديل الإسلامى محلها .

ولكن مهـما كانـت العلوم التى تدرس بعنوان الدراسات الإسـلامية مـتشعـبة ومستوعبـة لعلوم الإسلام وعقائده وتاريخه وحضارته، فإنهـا لكى تؤهل دارسيها لإبداء الرأى العلمى الصـحيح أو الإفـتـاء فى المسائل الفـقهـية، إذا أريد إعـداد الدارسين إعداداً يؤهلهم لإبداء الرأى العلمى الصحـيح المدعم بالأدلة فى القضايا الإسلامية، لا بد من الدراسة المنهجية المتقنة لعلوم الكتاب والسنة ويصحبها تقوى الله تعالى .

وهذا هو رأى الدكتور طه جابر العلوانى الذى ينبه إلى أن الأخذ من المصادر - القرآن والسنة - بمبادرات فردية فيه الكثير من المحاذير، ويفصل ذلك بقوله (فلابد من الإستـعداد السابق ثم التزود لذلك بـأدواته التى فصلها أهل الاختـصاص من معرفة ضوابط الإستنباط وقواعده، وإتقان العربـية وأساليب التعبير عنها، ومعرفة علوم الكتاب والسنة والناسخ والمنسوخ، والعام المراد به الخصوص والمطلق والمقيد من المنصوص . . . وهذا النوع من المعرفة لا يمكن تحصـيله من خلال قراءة كتاب أو كتابين، بل لا بد من دراسـة منهجية متقنـة، تضع فى يد الدارس مفاتيح تلك العلوم التى تهيئ له سـبيل الولوج إلى ساحة الفكر الإسلامى والعلوم الإسـلامية وحتى تؤتى تلك الدراسة أُكلها لا بد أن تعتـمد على البحث المستوفى الذى يقوده الأستاذ المتـقن والموجّه المجيد ، والناقـد البصير ، فى ظل من تقـوى الله وابتغاء الأجر منه [(١)] .

---

(١) أدب الاختلاف في الإسلام ص ١٦٠ كتاب الأمة - قطر جمادي الأولى سنة ١٤٠٥ .

وإلى نفس الرأى يذهب الدكتور **محمد حسين** :

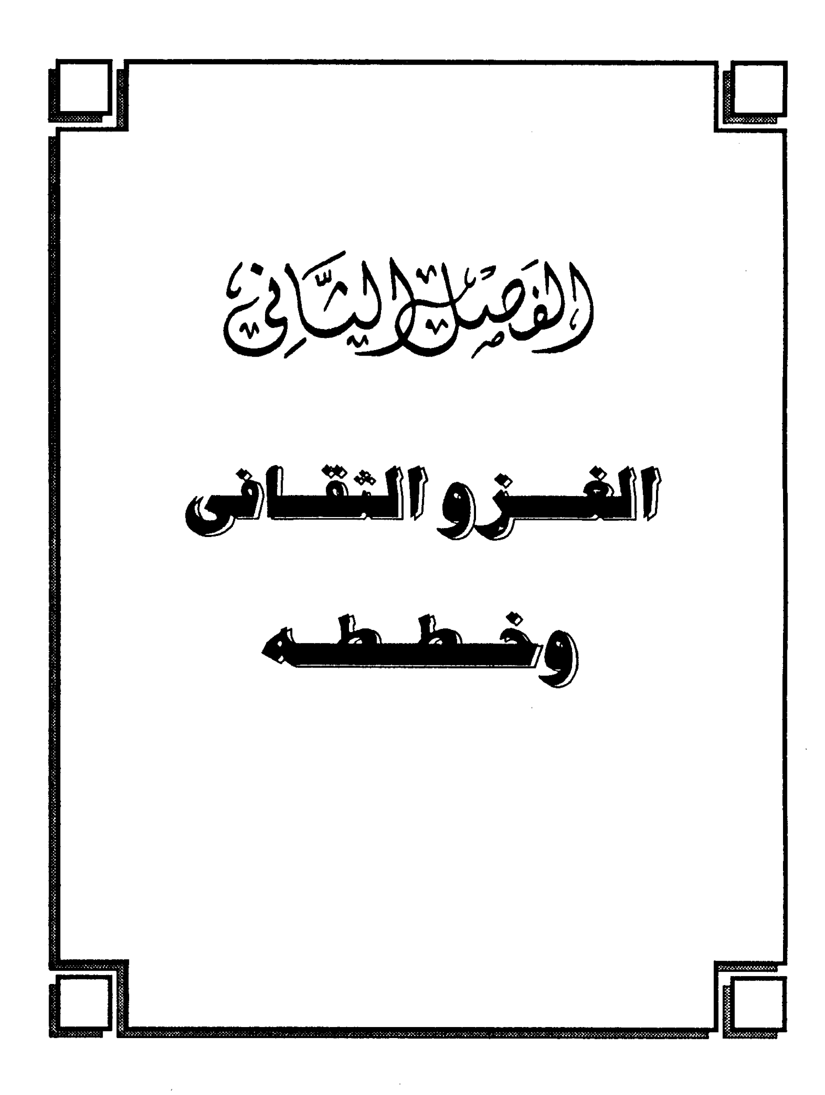
(فدراسة العلوم الإسلامية تقوم على أوليات لا بد من تحصيلها : حفظ القرآن وإتقان تفسيره وكل ما يتعلق به من أسباب النزول والناسخ والمنسوخ والعام والخاص، ودراسة الحديث النبوى الشريف وشرحه وما يستنبط منه من أحكام ودراسة الفقه فى أقسامه المختلفة وأبوابه المتعددة، ومسائلة المتشعبة، فى العقائد و العبادات والمعاملات وأن تقرير هذه القواعد فى المنهج العلمى لهذه العلوم الدينية ضرورة كضرورة اتباع المنهج العلمى فى العلوم التجريبية كالطب والهندسة والزراعة وسائر العلوم المهنية سواء بسواء، فكما لا يتصور تخريج طبيب أو مهندس بغير إلحاق بكليتى الطب والهندسة، كذلك لا يتصور أن يفتى أحد فى القضايا العقدية والفقهية بغير الحصول على ما يؤهله للإفتاء أو إبداء الرأى المدعم بالأسانيد والأدلة .

ونحن نؤيد الدكتور محمد حسين فى رأيه بأنه بدون تحصيل الأسس الأولية فى العلوم الإسلامية السابق الإشارة إليها، فإن الدراسات الإسلامية (ستكون حتماً دراسة متحررة، لأن صاحبها وهو يزعم أنه متخصص فى الدراسات الإسلامية سيفتى بعقله الحرّ من عند نفسه إذا استفتى فى شأن من الشؤون الإسلامية التى لم يسبق له دراستها أو التى درسها منحرفة غير سوية)[1].

– وسنعرض بالفصل التالي الغزو الثقافي وخططه وآخر مراحله وهو (التغريب) .

***

(١) ينظر كتاب (حصوننا مهددة من داخلها) المكتب الإسلامي ط٤ ١٣٩٧ هـ / ١٩٧٧ م بيروت – دمشق ويرى أن الدراسات الإسلامية تسمية أوروبية ص٣٠٩ / ٣١٣ .



الفصل الثاني

الغـــزو الثقـــافى وخـطـطـه

الغزو الثقافى وخططه

لما كان الغزو الثقافى هو الأداة الرئيسية للغرب بعد انحسار الغزو العسكرى، فإننا سنعرض لخططه وتطوراتها :

وإذا كانت خطط الغزو العسكرى تبدأ بفتح الثغرات والنفاذ إلى تحصينات العدو المحكمة، ثم تتقدم بعدها بأسراب الطائرات لدك الحصون وتفتيت خطوط الدفاع، ثم تأتى قوات المشاة لاحتلال الأرض والسيطرة عليها للتمكين من البقاء . . . فبالمثل تدرجت مراحل الغزو الثقافى على شكل خطوات تدريجية وتنوعت واتخذت عدة طرق، ونجحت بعمليات (غسيل المخ) أن تربى أجيالاً جديدة قبلت ما كان يرفضه الآباء والأجداد عندما اصطدموا بالاستعمار، ثم جاءت أجيال جديدة بعد حركات الجهاد . أقل قدرة على المقاومة . .

ويمكن القول أيضاً إن الأسلحة العسكرية والتهديد بغزو الجيوش أصبحا من مخلفات القرون الماضية فى السيطرة وامتلاك النفوذ، وأصبح البديل هو السيطرة السياسية والثقافية والاختراق الإعلامى لعقول الشعوب وهذه الأدوات يملكها الغرب كلها الآن ويحسن استخدامها ولا يلجأ للغزو العسكرى إلا عند الضرورة القصوى، وخير مثال هو حرب الخليج .

وقد اتخذ الغزو الثقافى شتى الأساليب وتدرج على مراحل، ثم أحكم أخيراً قبضته على العالم الإسلامى بواسطة البث الفضائى الرهيب فتحول من احتلال الأراضى إلى احتلال الفضاء للتحكم فى الأفكار والنفوس وتوجيهها كيفما يشاء.

أولاً : خطط الغزو الثقافى :

إن هذه المخططات كما يحصيها الشيخ محمد محمود الصواف - رحمه الله تعالى-[١] تتضح فى الأساليب الآتية :-

١- فتح المدارس الأجنبية: فى ديار المسلمين وتكثيرها وتنويعها وإرسال القُسُس والرهبان ليشرفوا على هذه المدارس ويربوا أجيال المسلمين على الولاء لهم.

٢- إرسال البعوث إلى بلاد المسلمين وتكثير الإرساليات التبشيرية لتنشر مكامن التبشير فى كل مكان وتشكك الشباب المسلم فى دينه وعقيدته . . ومن وسائلهم فتح المستشفيات والمستوصفات ، ودور التمريض لنفس الغرض[٢] .

٣- إرسال البعثات إلى ديار الغرب: لينهلوا من ثقافته ويعودوا إلى ديارهم وقد ودعوا هناك دينهم وخلقهم ومبادئهم .

٤- نشر الكتب المفسدة العابثة التى تشغل الشباب عن ثقافتهم الأصيلة وتلهيهم بالعبث والخيال الماجن .

٥- السيطرة قدر المستطاع على برامج التعليم فى الديار الإسلامية وتوجيه التعليم توجيهاً علمانياً .

٦- نشر المجلات الخليعة والسينمات المسمومة وبرامج التليفزيون المشحونة بما يثير غرائز الشباب ويشغلهم عن التفكير فى مصالح أمتهم ومستقبل بنيهم .

---

(١) مخطط استعمار العالم الإسلامي طبعة دار الثقافة بمكة المكرمة ١٣٨٤ هـ ١٩٦٥م .

(٢) ويذكر روبرت كابلان أن الأمريكيين نجحوا في التبشير بالتعليم ، وقد أنشأ دانيال بليس (وهو مبشر) الكلية البروتساتنتينية في بلاد الشام عام ١٨٥٥م لتمرير خلاصة القيم الغربية إلى العالم العربي عبر الزمن ثم أصبحت الجامعة الأمريكية في بيروت وأن أول جهد منظم في حركة القومية يمكن إرجاعه إلى عام ١٨٧٥م عندما قام خمسة شباب تعلموا في هذه الكلية بتشكيل جمعية سرية .
وأصبح خريجوها من الطلبة المسلمين في مواقع القيادة في مجتمعاتهم .

(كتاب الحملة الأمريكية - متعربون وسفراء ورحالة) ترجمة محمد الخولي كتاب الهلال يونيو ١٩٩٦م صفحات ٧٠ / ٨٢ / ٨٧

٧- فتح نوافذ للحضارة الغربية والثقافة الغربية وتمجيدها والدعاية لها، لينظر منها شباب الإسلام فيقتنى مناهجها وتأخذه مظاهرها الخلابة، فيبدأ بأخذ ثقافتها ويعجب بحضارتها ويحتقر بعد ذلك أمته وبلاده لسوء حاضرها الماثل أمام عينيه.

٨- تمجيد وإحياء الحضارات القديمة كالحضارة الفينيقية والحضارة الفرعونية وتسليط الأضواء عليها ، لينبهر بها الشباب المسلم وينسى حضارته الإسلامية الأصلية وقد طمسوا عنه أخبارها ، وشوهوا له حقائقها ، وفتحوا عينيه على حضارتهم وأمجادهم ومدنيتهم الحاضرة .

٩- العمل على إلغاء المحاكم الشرعية والسيطرة على أوقاف المسلمين ونشر القوانين الوضعية ودراستها حتى أنشئت كليات للحقوق فى أكثر البلاد الإسلامية تدرس القانون الرومانى والقانون الفرنسى وغيرها من القوانين الأجنبية ولا تدرس الشريعة الإسلامية إلا فى زاوية من زواياها وهى فى الأحوال الشخصية فقط .

١٠- إضعاف سلطان الإسلام فى نفوس المسلمين ويعتمد هذا الأسلوب على السخرية بعلماء الدين وتصويرهم بصورة الجامدين الجاهلين تارة ، والمنافقين المستغلين لسلطان وظائفهم تارة أخرى ، وبث الإشاعات ونشر الاتهامات المختلفة حولهم لتقليص نفوذهم وسيطرتهم على نفوس المسلمين.

١١- تشويه حقائق الإسلام ووضع الإسلام فى قفص الاتهام والتركيز على القرآن الكريم وتوجيه الهجوم عليه .

١٢- توجيه الأدب والأدباء والصحافة وجهة علمانية لا دينية والسيطرة على دور النشر والتوزيع وإنشاء دور ضخمة للطباعة والنشر والتأليف تتولى نشر ما يريده الاستعمار وترويجه فى أوساط المسلمين .

١٣- تشويه التاريخ الإسلامى والتشكيك فى حوادثه وإبراز الجوانب الضعيفة أو المؤسفة فيه حتى يتشبع شبابنا بالحقد على الإسلام والنفور من تراثهم وتاريخهم.

١٤- إنشاء المذاهب والمبادئ الهدامة كالماسونية والبهائية والقاديانية وغيرها وإشغال المسلمين بها وإخراجهم من دينهم بواسطتها وإنشاء الأحزاب السياسية المتناحرة والمختلفة المبادئ والاتجاهات بزعامات يوجهها رجال من الشرق والغرب.

١٥- إلغاء الخلافة الإسلامية وتفريق كلمة المسلمين وجعلهم أمما وشعوباً مختلفة بعد أن كانوا تحت لواء الخلافة أمة واحدة .

١٦- العمل على إفساد المرأة المسلمة ثم إخراجها باسم الثقافة و الحرية والديمقراطية سافرة ومتبرجة وجعلها أحبولة الفساد ومن ثم تعطيل الأسرة وهى كيان المجتمع الإسلامى .

١٧- محاربة اللغة العربية الأصلية والدعوة إلى العامية لقطع الصلة بين ماضى المسلمين وحاضرهم .

١٨- وضع قدم الاستعمار فى فلسطين فى قلب البلاد الإسلامية بواسطة اليهود[1] .

ويتحقق آخر صورة من صور الغزو الثقافى فى مجال عرض الغزو الإعلامى الواسع فى إفريقيا إذا أن البث المباشر باللغات الأجنبية هو من أخطر الأسلحة لتوجيه الرأى العام، وهو يوظّف الكلمات والصور فى صناعة العقل والفكر على مختلف مستويات الحياة فى هذه المجتمعات وهو مؤثر فعال فى تغيير الثقافات واللغات وأساليب التواصل بين المواطنين، ومنظومة القيم والسلوك التى تحكم حياة البشر خاصة الأجيال الجديدة من الطفولة والشباب .

وتوجد دراسات متخصصة فى مجالات الإعلام والاتصال والثقافة تتحدث عن هذه الجوانب، وهى صادرة عن منظمات إقليمية ودولية عديدة بالإضافة إلى مؤلفات وكتابات باللغة العربية وغيرها من اللغات الأخرى .

---

(١) باختصار من كتاب (مخططات استعمار العالم الاسلامى) .ط دار الثقافة بمكة المكرمة ١٣٨٤هـ -١٩٦٥م .

خلاصة القول فى العصر الحاضر: الحرب أولها كلام وآخرها كلام وصور.

ونراها بهذه الصورة أشد فتكاً من غيرها من الحروب، بل إن الحرب الكيميائية وحرب الجراثيم وحرب النجوم لا تعادلها فى خطورة جرائمها: فباسم الفن والبث التليفزيونى الحامل للقاذورات والسموم فى قنوات متخصصة من عرى فاضح، وزنا علني، وشذوذ جنسى، وجرائم قتل واغتصاب، كلها تريد دفع شبابنا دفعاً للتقليد أو الغرق فى المياة الآسنة للاتصالات الجنسية المحرَّمة، فيصبح عبداً للشهوات، مبدّد القوى، فلا ينهض لعمل منتج، ولا يثور لكرامة، ولا يتحرك لصد معتدٍ أثيم .

ويُلاحظ أن روافد أو خطط الغزو الثقافى فى الوقت الحاضر تصب فى بئر واحد هو التغريب ، فما هو ؟ وما هى آخر تطوراته ؟

التغريب : التغريب كما يعرّفه الدكتور محمد حسين رحمه الله تعالى (يقصد به طبع العرب والمسلمين والشرقيين عامة بطابع الحضارة الغربية والثقافة الغربية، مما يساعد على إيجاد روابط من الود والتفاهم).

ويضيف شرحاً لعمليات التلاعب بالاصطلاحات (وهذا الذى نسميّه الاستعباد الغربى **(تغريباً)** هو ما يسميه سماسرة ذلك الاستعباد وصنائعه **(تطويراً)** وهو ما يعنونه حين يتكلمون عن بناء المجتمع من جديد، ثم يحذرنا من الانسياق وراءهم ماضين فى الهدم (لا يرضيهم إلا أن يأتوا على بنياننا من القواعد، بما يتضمنه من دين وتقاليد وفنون وآداب ولكنهم سوف يعجزون عن البناء سيهدمون مجتمعنا ثم يتركونه وسط أنقاض نظامه القديم فى فوضى لا سكن فيها ولا قرار. وبوادر هذه الفوضى وأعراضها ظاهرة لكل ذى عينين. ذلك لأن المجتمعات لا تبنى فى يوم وليلة، ولكنها فى مِئات السنين، ولا تبنى فى صحف منتشرة أو قاعات مغلقة، ولكنها عملية معقدة أشد التعقيد تتفاعل فيها قوى المجتمع

كله، ويستمر هذا التفاعل أجيالاً تتمحص عن هذه القواعد وهذه الأشكال، بما تتضمنه من التقاليد والقوانين وأساليب الذوق والتفكير)

ولشرح آخر مراحل التغريب والقفزات الهائلة التى قفزها حتى وصلنا إلى واقعنا المعاصر فإن ذلك يتطلب عرض موجز لكتاب (تغريب العالم) [1] الذى يصور لنا آخر مراحل الغزو الثقافى، محدداً وظائف أجهزته، وجنسياتها وأهدافها فى تشكيل رغبات وحاجات المستهلكين وأشكال سلوكهم وعقلياتهم .. يقول مؤلفه:

(ينطلق فيض ثقافى بمعنى فريد من بلدان المركز ويجتاح الكرة الأرضية..

تتدفق صور، كلمات، قيم أخلاقية، قواعد قانونية، اصطلاحات سياسية، معايير كفاءة، من الوحدات المبدعة على بلدان العالم الثالث من خلال وسائل الإعلام. صحف، إذاعات، تليفيزيونات، أفلام، كتب، اسطوانات، فيديو، دش) ويتركز الجانب الأكبر من الإنتاج العالمى للعلامات فى الشمال، أويصنع فى معامل يسيطر عليها حسب معاييره ومواصفاته .

ولنلاحظ اعتراف المؤلف للحيوية الطاغية للمجتمعات العالمية التطور التى تحقق كل إبداع ثقافى لدى الأسرى السلبيين للرسائل .

---

(١) تغريب العالم ، سيرج لا توش ، تعريب خليل كلفت .ط دار العالم الثالث بالقاهرة ١٩٩٢م .

ثانيا : آخر مراحل التغريب ووسائله :

(تغريب العالم) : صدر حديثاً كتاب بهذا العنوان وسنعرض الأفكار التى عالجها الكتاب لأنه يتضمن آخر التطورات التى تفتقت عنها أذهان المخططين للتغريب منذ الحروب الصليبية كهدف رئيسى لها .

إنه يرى أن أروع ما حققه الاستعمار هو مهزلة تصفية الاستعمار ، لقد انتقل البيض إلى الكواليس، لكنهم لا يزالون مخرجى العرض المسرحي.

ويقصد أحياناً بالتغريب (الاستعمار) وسيادة الرجل الأبيض فإن الهدف من الاستعمار ظل ثابتاً أى التبشير وغزو الأسواق والتزود بالمواد الأولية والبحث عن أراضى جديدة والحاجة إلى الأيدى العاملة .

ويستثنى المؤلف اليابان من سيطرة الرجل الأبيض فيقول (يشكل النجاح الأكيد لليابان، الذى خلص آسيا من أسطورة الرجل الأبيض، تحدياً رهيباً لتفوق العرق الأبيض) .

والكتاب بمحتواه ربما يكون أحد أدوات الحرب النفسية إذ يعرض لخطط سحق القوى التى تقاوم حضارة الرجل الأبيض ولهذا يهدف إلى بث اليأس فى قلوب سكان العالم الثالث - ونحن منهم - بإقناعنا بأن العالم تغرب ولا فائدة من المقاومة.

ولكنه فى الوقت نفسه يلقى الضوء على الطريق إلى مستقبل أفضل حيث ينقل عن غيره من الباحثين حركات نهوض الحضارات المضطهدة ضد حضارة الرجل الأبيض ويرى أن الصراع سيكون طويلاً ومرعباً .

وباستخدام عناصر الامبريالية الثلاثة: (العسكريون، التجار، المستشرقون) وضع الغرب يده على الكرة الأرضية نهائياً ففى سنة ١٨٠٠ ميلادية كانت أوروبا تسيطر نظرياً على ٥٥٪ من الكرة الأرضية وتستغل فعلياً ٣٥٪ من مساحتها،

تحـققت الأحـلام التى صاحـبت تاريخ الغـرب (يحلم نابليـون بأن يحذو حـذو الإسكندر فيزحف على مصر. وباستيلائه على مدينة الجزائر يستأنف شارل العاشر الحرب الصليبية .

أى كأنه استأنف مهمة شارل العاشر.

ويحدثنا عن آخر ما وصلت إليه مراحل الغزو الثقافى فيقول تحديداً :

(ينطلق فيض ثقـافى بمعنى فريد من بلدان المركـز ويجتاح الكرة الأرضـية . وسوق المعلومـات شبه احـتكار لأربع وكالات: أسـوشييـتيدبرس ويونايتـيدبرس (الولايات المتحدة) رويتر (بريطانيا) فرانس برس (فرنسا). ويتدفق ٦٥٪ من المعلومات العالمية من الولايات المتحدة .

وهذا الفـيض من المعلومـات لا يمكنه إلا أن (يـشكل) رغـبات وحـاجـات المستهلكين، أشكال سلوكهم، عقلياتهم، مناهج تعليمهم، أنماط حياتهم) .

وتحت عـنوان **(تحت راية الصليب)** يتساءل المؤلف: هل يمكـننا أن نستوعب الغرب فى كـيان دينى؟ ويجـيب أنه فى كثـير من الأحيـان يقترن الـغرب بنعت المسيـحى وأن الهداية بالسـيف والإيمان أساس من أسس التوسع الـغربى (ولكنه يقرر الواقع فيرى أن حـالات دخول الإسلام أكثر عدداً بكثـير فى الوقت الحاضر من حالات التنصير وتبدو أكثر صلابة) .

كذلك فإن العـالم المسيحى الغربى الكاثوليكى دعّم حقاً توسـعة الموجه الأولى وحتى الثانية من الاستعمار .

وبعد مقارنات بين اتجاهى التـتبشير البروتستانتى والتبـشير الكاثوليكى يقرر أن الظاهرة التبشيرية حقيقة أكيدة من حقائق الغرب .

ويقول مـؤلف الكتاب بمناسـبة النشـاط الإحسـانى والعقلانى إنـه ليس سوى مظهر، ومظهر جـذاب للغرب، ثم يعلن رأيه بصراحة (لكننى أعتـقد أن الغرب

يتـمثل فى ذلك أيـضاً. وحـتى فى الوقت الحـاضر، ينشـأ الجـانب الأكبـر من مشـروعات التنـمية كـقاعـدة فى العالم الثـالث، على نحـو مباشـر، تحت راية الصليب) .

ويشـرح **(الخصوصيـة الغربية)**، إذ يرى أن الغرب ليس مجـرد كيان دينى ،أو اخـلاقى، أو عرقى أو حـتى اقتـصادى، إن الغـرب كوحـدة تركيـبيـة من هذه التجليات المتباينة كيان (ثقافى) وظاهرة حضارية .

ويرى ضرورة الاتفـاق على معنى الألفـاظ ، ومنها لفظ Cultre (ثقـافـة، حضارة . . . الخ) .

وينتقل بنا إلى تفاصيل كثيرة ويغرقنا باصطلاحات وتعريفات عن أنواع الثقافة، ثم يأتى إلى أهم مـا يثـير الفـزع والرعب من هذه الحـضارة عـندما نراه يشـرح بصراحة لالبس فيها أنه (بمحو ثقافة شـعوب العالم الثالث يحولها التغريب على هذا النحو إلى جـماهير أميـة. وتغدو تلك الثقافـة إخراجاً من أجل مسـتهلكين سلبيين غرباء على ثقافتهم الخاصة) .

ولعل الطريقة السحرية فى محو ثقافـة العالم الثالث تكمن فى عملية التنمية، إذ ربما لأول مرة يعرف أن الثقافة فى هذه الحالة ليست بُعداً من أبعاد التنمية ، بل إن التنمية هى التى تغدو بالعكس بُعداً من أبعاد (الثقافة الغربية الوحيدة).

ويوافق المؤلف على تعريف الحضارة بأنها :

(الطريقـــة التى نولد بهـا، ونحـــيـا، ونحب، ونتـزوج، ونـفكر، ونؤمن، ونضحك، ونتغذى، ونلبس، ونبنى منازلنا، وننظم حقولنا، ويتصرف بعضنا إزاء بعضنا الآخر) .

وعن نظرة الغرب للحـياة الدنيا، يحدد المؤلف أولوية هذه الحـياة (والواقع أن الغرب، عندمـا يفك سحر العـالم، يجعل من الحيـاة الدنيوية القيـمة الأولى بلا

منازع، وعندما لا يعود المرء يجد الخلود أمامه، تغدو الحياة نضالاً قلقاً ضد الزمن).

ويقر المؤلف أننا الأسبق فى التمدين إذ كانت بغداد والقاهرة مدناً ضخمة عندما لم تكن لندن وباريس سوى بلدتين ونيويورك غابة عذراء.

ويرى أن أروع نجاحات التغريب فى انتشار أدوات السلطة مستدلاً على ذلك بما لاحظه كاستورياديسى بفطنة ثاقبة عن تقنيات السلطة ، أى تقنيات الخبل الجماعى (هناك مكبر صوت فى كافة القرى يبث خطاب الزعيم ، هناك تليفزيون يقدم نفس الأخبار . . . الخ . وتنتشر هذه التقنيات بسرعة النار فى الهشيم ، وقد اجتاحت الأرض بأسرها :

وسرعان ما انتشر ذلك فى كل مكان إن أى أونباشى فى أى بلد من بلدان العالم الثالث يحسن استخدام سيارات الجيب، والرشاشات، والبشر، والتليفزيون ، والخطب وكلمات (الاشتراكية) والديمقراطية والثورة وكل هذا، قمنا نحن بمنحه لهم وتلقينه إياهم بسخاء بالغ) .

أى أنها مجرد شعارات ولافتات خادعة قد تخفى الواقع المخالف لها تماماً، وربما لا يسمح الغرب إلا فى نطاق ضيق (المكون الآخر من مكونات مجتمعنا، أى قيم التحرر ، الديمقراطية، البحث الحر، الاستقصاء الحر). . .الخ .

ويرى أن الطريق المختصر لنشر الحضارة وتحويلها إلى العالمية هو استخدام الشرطة والجيش فيقول (وإذا كان للحضارة أن تختزل إلى الشرطة والجيش ، فإن العالمية متحققة إذن منذ الآن) .

ويستخدم المؤلف ألفاظ : التقدم والتنوير والتحديث كمرادفات ، ويعرف الحداثة بأنها (مشروع شامل يفسح للاقتصاد مجالاً واسعاً ، فى حين أن التنمية ليست فقط سياسة اقتصادية بل هى أيضاً إصلاح للمجتمع بأسره .

وفى سباق التنمية بين بلدان العالم الثالث يعزز من جديد السعى الإلزامى وراء لحاق مستحيل (بالغرب) فى سياق محاكاة معممة .

ويقول (أما وعد الغرب، الوعد بالثروة والرخاء، فـيغدو من الناحية الفعلية: الفقر واجتثاث الجذور، والإقصاء وليس هذا بصفة انتقالية، بل بصفة نهائية تزداد تأكيداً على الدوام .

ويمضى فيقرر أن نتائج سير عمل الغرب الفعلى فى سياق عملية تغريب العالم وبأية وسائل يتحقق هذا الاجتثاث للجذور على مستوى الكرة الإرضية .

ويصبح ما هو مطروح على سكان الـعالم الثالث عند إحلال هويتهم الثقـافية المفقودة يتمثل فى هوية قومية مجردة وإنتماء زائف إلى جماعة عالمية .

ويغدو إنســان (الجنوب) مُغَرَّباً بحكم تطلعاته وإحـالته وكثافـة ضغط المدينة وأنماط استهلاك المركز على حياته اليومية.

وتحت عنوان **(محور الحدود الأقليمية)** والتحول القومى الثقافى يبدأ بمقدمة يسجل فيها السـذاجة البالغة لنص الميثاق الذى يعلن أن الشركـات المتعددة الجنسية لا يجوز لها أن تتدخل فى الشئون الداخلية للبلدان التى تعمل فيها .

وشرح سذاجة هذه المقـولة يقتضى تسجيل حقـيقة هذه الشركات عبـر القومية التى تخضع لمنطق الربح أكثر من السـعى وراء السلطة ، ولكنها فى الواقع تزعزع بلا تعمد السلطات القائمة وتخلق على نحو خـبيث علاقات ولاء جديدة لحسابها الخاص . . . وتم إحلال أجهـزة إدارية محل المؤسسات السياسـية وبذلك تفرغ الدولة الأم من جوهرها .

وفيـما يتـعلق بالثقـافة فـإن الأمر يبدو أكـثر تعـقيـداً إذ تنجلى دفعـة واحدة (إمبريالية) ثقافية غربية وبالأخص انجلو سكسونية، كذلك تُصنع الثقافة باستخدام وسـائل الإعلام (صـحف، كتب، اسطـوانات، كاسـيتـات، إذاعات، أفـلام،

تليفزيون) يشبه احتكار لبلدان الشمال، وتجرى عملية غزو ثقافى للجنوب من جانب الشمال، وداخل الشمال من الولايات المتحدة نحو البلدان الأخرى (ومنها فرنسا) .

ونحو ما يسميه المؤلف (العوامل المباشرة) التى تتجاوز (النزعة القومية)، تشكل التدفقات الإعلامية بواسطة الأقمار الصناعية للاتصالات البعيدة وتقنية معالجة المعلومات بالكومبيوتر - تشكل رغبات وحاجات وأشكال سلوك وعقليات ونظم تعليم وأنماط حياة المتقبلين وينتج عنها فقدان الهوية الثقافية المؤكد، كما يسهم فى زعزعة الهوية القومية سياسياً واقتصادياً، وحتى ما يتبقى من الإبداعية (القومية) يجد نفسه فى حالة تبعية إزاء ثقافة أجنبية .

ويصف أحوال هذا الواقع بقوله (بفضل أروع وسائل النشر الممكنة، يجرى اليوم نشر ثقافة يمكن القول عنها فى أفضل الأحوال أنها غياب للثقافة وتم إنتاجها عشوائياً) .

وبعد الانتهاء من عرض موضوع التغريب بتفصيلاته يأتى المؤلف فى نهاية المطاف فيلقى بهواجسه إذ يخشى على حضارة الغرب من الانهيار ، لأنه يرى فى نجاحها المتواصل فى أعمال التغريب دليل على بقائها كقطب أوحد أما إذا اعترضتها مقاومة **(الآخر)** من دول العالم الثالث فإن هذا يشكل عنده علامة الخطر ببدء تدهور هذه الحضارة .

وتتضح مخاوفه بالذات مما سماه بحركات الهوية الأصولية الإسلامية مثالها الراهن الأكثر نموذجية ، فهو يكتب (والحقيقة أن حركات الهوية التى تعبر عنها الأصولية الاسلامية، مأخوذة ككل، مثالها الراهن الأكثر نموذجية أكثر تعقيداً . ذلك أن الصعود المذهل لهذا التيار لا ينبغى أن يخفى ظواهر أخرى من نفس الطراز، مثل التطرف البرهمانى فى الهند أو مختلف مطالب الهوية مثل صعود

النزعة الإقليـمية (حـتى فى البلدان العجـوزة فى أوروبا) وكافة هذه الحـركات أحدثها إخفاق التحديث، وتنتج عن تشويهات ناشئة عن هذا الإخفاق . ذلك أن الجماهيـر العربية التى يؤثر فيها الإخـوان المسلمون والحركات الشيـعية فى الوقت الراهن، كانت ناصرية أو بعثية منذ عشرين سنة، أى أنها عقدت آمالها آنذاك على التحـديث وآمنت بتواليف ممكنة بين التـراث العربى والحـداثة . ويسمح بعضـها الراهن بتقدير مدى فداحة خيبة أملها) .

ولكنه تجاهل التاريخ الصحيح للأمة الإسلامية بإنكاره أن المجتمعات العربية لم تجعل من الدين فى يوم من الأيام مبدأها الوحيد لتحقيق الهوية الاجتماعية . . . .

وبالرغم من إطلاقه اسم العـصر الذهبى للامبراطوريات العربيـة الكبرى ولكنه يصفه بالفساد و الهرطقة والزندقة .

ويُزّور التاريخ بقـوله (ولم تكن الشريعـة الاسلامية فـى يوم من الأيام القانون المدنى) منكراً أنها ظلت حاكمة لنحو أربعة عشر قرناً .

وبإشفـاقه على عمليـة التغريب بسـبب العائق الدينى - وهو الإسـلام - وما يسميه (الرابطة الدينية المجردة ويخص بالذكر الممارسات الدينية الشعبية كالمرابطين) ثم يضع العالمية الغربيـة فى مواجهة مع عالمية عنيـفة وارتدادية تماماً، وينبه إلى أن معاداة الغرب لدى هذا التـيار معلنة أكثر مما هى عميـقة، ولكنه يعترف بأنه يؤدى وظيفـة تدميرية عـلى التغريب ويكتب (ويمكننـا أن نقرأ هذه الأعراض لسـقوط التغريب، على نحو سلبى تماماً، على أنها الدليل على الإخفاق الكلى للحضارة، لأنه لا يمكن أن تكون هناك حضارة أخرى سوى الغرب) .

أى أن الهدف الحقيقى هو تحطيم غيرها من الحضارات .

ثالثا : الوجه الآخر لحضارة العصر :

استطاع الفكر الإسلامى فى العصر الحديث مواجهة الحرب الثقافية المعلنة والخفية، فكشف عن الوجه الحقيقى لحضارة الغرب أمام المفتونين بها - وهم فى الحقيقة ضحايا -كما تصدّى للثغرات التى نفذ منها الغزو الثقافى للشخصية الإسلامية كما سيتضح لنا فى هذا البحث .

ولعل أول ملامح الوجه الخفى لحضارة العصر هو التفرقة العنصرية :

فإن الناظر للحضارة الغربية والباحث فى تاريخها أو فى واقعها المعاصرة يصطدم بظاهرة لا يمكن التغاضي عنها وهى التفرقة العنصرية لأنها من ملامحها البارزة كالمرأة القبيحة تعجز عن ستر قبح وجهها حتى لو غطته بالمساحيق وأدوات التجميل المصنعة فإذا ألقيت على وجهها كوباً من الماء لأزال عنه الصباغة وظهر سافراً يثير فى الناظر إليه النفور والاشمئزاز .

ويؤرخ الدكتور إراهيم مدكور لهذه الظاهرة فيذكر أنها ترجع إلى اليونان إذ اعتمدتها لفلسفتهم وعلى رأسهم أرسطو بالمقولة المشهورة (كل ما وراء أثينا بربر).

(وجاراهم الرومان الذين كانوا يعتزون بعنصريتهم كل الاعتزاز ، وقد أقاموا عليها تفرقة فى تشريعهم وقوانينهم بين الرومان وغير الرومان . .) إلى أن يقول (وكم قاسى زنوج أمريكا من هذه النظرة العنصرية التى كانت تعدها الكنيسة أمراً واقعاً لا مفر منه، ولم يخفف من وقعِها أخيرًا إلا قانون الحقوق المدنية، الذى ساوى بين البيض والسود، ولا يزال لهذا الأمر رواسب وذيول فى دولة عظمى لها نظمها وشرائعها .

ويبدو أن هذا التمييز العنصرى جعل العقل الغربى المعاصر أيضاً لا يتصور أن هناك طريقاً غير طريقه، ولا أساليب سوى أساليبه، ولم تستطع الحضارة الغربية

الانفتاح على غيرها من الحضارات، طوال تاريخها، وأظهرت دائماً استعدادها للاستغناء عن ما عند الآخر، كان الغير عند الرومان هم البرابرة، وعند الفرنجة هم الشياطين، ولم يستطع العقل الأوروبى فى القرنين التاسع عشر والعشرين ان يسبغ على سكان المستعمرات سوى وصف (الأهالى) .

وبعقد مقارنة فى قضايا الإنسان والحياة والقيم فى الفكر الإسلامى :

يشرح الدكتور مدكور كيف كرم الله تعالى الإنسان فى القرآن الكريم آيات بينات فى تفضيل الإنسان على غيره من الكائنات ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً ﴾ وفى شرح الآية يحصى الدكتور إبراهيم مدكور المنازل الدالة على هذا التكريم وبخاصة فى موقف آدم من الملائكة، فهو أكثر علماً، وأعلى منزلة ﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى المَلائِكَةِ فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلاءِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ۞ قَالُوا سُبْحَانَكَ لا عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ۞ قَالَ يَا آدَمُ أَنبِئْهُم بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنبَأَهُم بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴾ البقرة من الآية ٣١ : ٣٣ . ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ۞ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴾ الحجر من الآية ٢٨ : ٢٩ .

وأكّد القرآن حرمة الإنسان ونادى بحقن الدماء فحرم وأد البنات وقتل الأولاد خشية إملاق، وقرر القصاص والحدود والدية والجزية حقناً للدماء وحقناً للأرواح، ولا يعتدى على ابن آدم بغير حق ولا يعذب ولا يمثل به ولا يعرض لهوان يتنافى وكرامة الإنسان، والحرب والسلم فى ذلك سواء، لا يؤخذ الخصم فى الحرب على غرّة، ولا ينكل به، ويعامل الأسير معاملة كريمة، ويستطرد الدكتور مدكور مقارناً بين نماذج القيم الإنسانية التى أشاد بها الإسلام فيتساءل:

(فأين حضارة القرن العشرين من هذا، وفيها تعذيب وتمثيل يعود بنا إلى وحشية القرون الأولى، وكلنا يذكر ما كان يجرى فى معسكرات الاعتقال أثناء الحرب العالمية الماضية، ولا نزال نقرأ ونسمع عما يلجأ إليه من وسائل التنكيل فى بعض السجون والمعتقلات، وقدم لنا العلم الحديث طرقاً وأدوات نستخدمها دون شفقة أو هوادة فى إذلال الإنسان وإهدار كرامته) ؟؟! [١] .

أ ـ مخالفة المذاهب الغربية الحديثة لروح الحضارة الإسلامية :

يُطلق لفظ العصر الحديث عادة على أواخر هذا القرن الذى نعيش فيه فإذا تحدثنا عن عصرنا فنعنى بذلك طبيعة الحياة الإنسانية والنظم السائدة التى تحكمها ثقافياً واقتصادياً ودولياً فما هى طبيعة الحياة فى عصرنا الحاضر ؟

لكى تتبين لنا الإجابة على هذا السؤال، لا بد من التعرض بايجاز للأنظمة السائدة والتى تحكم أهل العصر الحديث بفلسفتها وخططها وأهدافها

وإن أهم تيارين صبغا العصر بصبغتيهما هما التيار الماركسى أو الاشتراكى أو الشيوعى فى روسيا واوروبا الشرقية الذى استمر نحو سبعين عاماً قبل انهياره سنة ١٩٨٩م، والتيار الديمقراطى الرأسمالى فى أوروبا الغربية والولايات المتحدة الأمريكية .

ولكن الدارس المتعمق لكلا التيارين يقف على الجامع المشترك بينهما أى **(النظرية الماديه للحياة)** فإن كانت اليسارية المتمركزة حول الماركسية تبنت المادية كشعار أيديولوجى فكراً وأسلوباً فالليبرالية الرأسمالية تعيشها حياتياً فعلاً وممارسة، ودونما حاجة لشعار أو غطاء أيديولوجى يبرر سلوكها واحتكارها، هذا من حيث تصور النظامين للحياة الإنسانية) [٢] .

---

(١) في الفكر الإسلامي - للدكتور إبراهيم مدكور ص١٦١ سميركو للطباعة والنشر القاهرةسنة ١٩٨٤

(٢) (نظرات إسلامية للإنسان والمجتمع من خلال القرن الرابع عشر الهجري ص٧٤ د/ رشدي فكار - مكتبة وهبة بالقاهرة سنة ١٩٨٠) .

وكان الهدف الثابت للجانبين هو السيطرة على دول العالم الثالث ومنها دول العالم الإسلامي، كل ذلك يتم وراء سمات وشعارات براقة معلنة أمثال:

مفهوم الحرية، مفهوم التطور، مفهوم الأمن والسلام .

بينما التطبيق على أرض الواقع والتعامل مع الشعوب مغاير لها تماماً لذلك فلا تخدعنا الشعارات البراقة المتغيرة حسب الظروف والأحوال، وكلها تحمل لافتات جذابة كالضياء التى تجذب الفراش ويكون فيها مقتله .

فمثلاً كان الماركسيون يعلنون أنهم أنصار الشعوب الصغيرة فى التنمية والرخاء والتطور والحرية والاستقلال بينما معاملاتهم تهدف إلى النقيض من هذه المدركات، فهى فى الواقع مجرد شعارات جوفاء حيث إنه ظهرت الحقائق لتدوّى فى آذان المخدوعين عقب انهيار الاتحاد السوفيتى .

ويرفع الليبراليون شعار (**الحرية**) وهى فى قاموسهم تعنى تخلى الشعوب عن ارادتها ورضاءها بما يفرضون عليها من توجيهات .

أما مفهوم التطور وهو أشد جاذبية، فيعنى ان تتجرد الشعوب فى جميع مساراتها السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية والفكرية عن كل تاريخها وتراثها الحضارى وأصالتها العقيدية والقومية والوطنية) [1] .

كذلك ترددت ألفاظ على نمط التطور تبدو فى ظاهرها متباينة ولكنها فى الحقيقة متشابهة المضمون كما سيتضح بعد قليل كالتحديث والتقدم والعصرية، ويقصد بها مجاراة العصر المتغرب وصياغة حياتنا وفق مفاهيمه وأساليبه، وعندئذ لابد أن يُجابه العصريون بسؤال ضرورى يحتاج إلى إجابة وهو: هل معنى هذا أن نلقى وراء ظهورنا بتراثنا ؟ وننزع عن أنفسنا رداء الهوية ؟

---

(١) (مجتمعنا المعاصر والطريق إلى الإسلام ص١٠٣ نور عالم خليل الأميني - ط دار الصحوة بمصر سنة ١٩٨٨) .

وإذا كـانت الإجـابة بالـنفى قطعـاً إذا أردنا المحـافظـة على ذاتيـة الأمـة الإسلاميـة والإبقاء على هويتها، فإننا نرى أيـضاً أن إثارة الشك حول إمكان جمع الفكـر الإسلامى بين الأصالة والعـصرية مـعاً يحمل بـين طياته دلالة التشكيك فـى مقدرة الأمـة على الاستمـرار فى أداء رسالتـها، وإلا، فكيف عاشت طوال القرون الماضية وكـانت حضارتها مكتسحة ومتفوقـة فاستوعبت ثقافـات أمم أخرى، بل قاومت ألوانًا من الغزو الاسـتعمارى ربما كـان أشد وأعتى مما تعانيه الأمة فى السنين الأخيرة ؟!

ويلاحظ إن اتجـاهاً عامـاً ظهر بين علمـائنا وقادة الفكر فـينا فى العـصر الحديث لصدّ الطارئ الدخيل من ألوان الثقافات والاتجاهات الفلسفية الوافدة مع الاستعمار الغربى ووقفوا بعناد محُذرين ومنذرين .

وربما يعتبـرهم البعض أنهم (كانوا محافظـين أكثر من اللازم) - ولكننا نجد لهم بعض الـعذر الآن بعد انزلاق الأمـة فى تيار التقـليد، فقـد حذروا وأنذروا بدافع من حـرصـهم الشديد عـلى ضرورة المحـافظة على الأصـالة والوعى بالذات، وكانت نظرتهم أكثر صـواباً من نظرية التحديث على النمط الغربى وخلاصتـه أن السبيل إلى الرقى هو الأخذ بالحضـارة الأوربية خيرها وشرها، حلوها ومرها وما يحمد منها وما يعاب !

وبصرف النظر عن مضمون الفكرة عند التنفيذ لأنها تؤدّى إلى (الفناء فى حضارة أخرى)، فإن ذلك يستحيل تحقيقه ، لأن (لكل حضارة روحاً خاصة بها تظهر فى وجوه المدنيـة العديدة وهذه الروح يمكن أن تضعف ، ولكنها لا يمكن أن تموت) [١] .

---

(١) تفسير التاريخ صـ ٢٩ عبد الحمـيد صديقى ترجمة د/ كاظم الجوادى ط دار القلم الكويت ١٤٠٠ هـ) .

وكانت حضارتنا (**نائمة**) بتعبير توبينى فيلسوف التاريخ حينذاك، ولكن النائم لابد أن يستيقظ والمخلصون من أبناء الأمة يفضلون إيقاظها والعمل على إنعاشها لتدب الحركة فى فكرها وتنشط من جديد بدلاً من (**إفنائها**) فى حضارة أخرى، أو تحولها إلى تابع ذليل، كالعبد الذى يرضى سيده بتقديم التضحيات تلو الأخرى، ولكن السيد يأبى إلا المزيد .

هذه الصورة التقريبية سجلها الشيخ/ مصطفى صبرى فى معرض حديثه عن علاقةالشرق بالغرب فى العصر الحديث فقال (ولكن أين ذلك من الغرب الذى يعمه فى طغيانه ويريد أن يخرج الشرق المسلم من دينه ومعجزات نبيه - ﷺ - تزلفاً إليه، وهيهات لا يرضيه إلا التنازل عن الشطر الباقى أيضاً) [1] .

خدعة التحديث :

ولم يكن الشيخ - رحمه الله تعالى - ملهماً بقدر ما كان واعياً بحقيقة المعركة بين الأصالة وما يسمى بالتحديث - وهو فى حقيقته التغريب أو (التفرنج) وكان الشيخ أحمد شاكر أيضاً رحمه الله - من علمائنا الذين عارضوا موجة التأويل ليتفق الإسلام مع العصر فوصف المتأولين لآيات القرآن بقوله (فمن متأول لآياته غير مؤمن به، يريد أن يفسرها على غير ما هى عليه بصريح اللفظ فى كلام العرب، حتى يوافق ما آمن به ، أو ما أُشربته نفسه، من عقائد أوروبية ووثنيتها وإلحادها أو يقرّبه إلى عادتهم وآدابهم - إن كانت لهم آداب - ليجعل الإسلام ديناً عصرياً فى نظره ونظر ساداته الذين ارتضع لبانهم، أو ربيّ فى أحضانهم) [2]

---

(١) (القول الفصل بين الذين يؤمنون بالغيب والذين لا يؤمنون صـ ٨٨ ط دار السلام - القاهرة - حلب - بيروت سنة ١٩٨٦) .

(٢) (ص ٥ من كتاب (كلمة الحق) ط دار الكتب السلفية بالقاهرة ١٤٠٧هـ.

والآن، بعد انقضاء السنوات الطوال على بداية المعركة، بدأت تظهر بعض الحقائق التى كانت تدور وراء الكواليس الاستشراقية والسياسية الأوربية .

ولندع برنارد لويس يتكلم مفصحاً عن بعض ما كنا نجهله، ولكنه يطابق توقعات الشيخ مصطفى صبرى بحذافيرها :

يجيب برنارد لويس على السؤال **(ما هى نتيجة عملية التغريب)** ؟ فيقول:

(وهذا سؤال يجدر بنا نحن الغربيين أن نوجهه لأنفسنا ، لقد كانت عادتنا التى تعودناها فى العالم الغربى هى : كلما اتجه الشرقيون إلينا كلما ازداد تمسكنا بالغرب لنجعل أنفسنا مثالاً للفضيلة والتقدم فإذا تشبهوا بنا عددنا ذلك أمراً حسناً ، وإذا لم يكونوا كذلك عددنا ذلك سوءاً أو شراً .

فالتقدم هو فى التشبّه بنا أما إذا لم يقتدوا بنا فذلك هو التقهقر والاضمحلال !! إلا أن الأمر ليس كذلك بالضرورة ، فعندما تصطدم مدنيتان تسيطر إحداهما وتتحطم الأخرى .

ينبرى المثاليون والمفكرون فيتحدثون بطلاقة وسهولة عن تزاوج بين أحسن العناصر من المدنيتين ، إلا أن النتيجة العادية فى هذا التلاقى هى تعايش بين أسوأ العناصر من الإثنين) [1] .

ويرى جارودى أن مفهوم **(التحديث)** غلب عليه مفهوم الاقتداء بالغرب، ويرى ان إقحام الاحتياجات الغربية فى حياة المسلم قادته لأن يصبح غريباً عن نفسه وذريته وتاريخه ومستقبله. أم ما اقترح على العالم العربى الإسلامى ليتخذ طابع الحداثة هو أن يمر بالمراحل ذاتها التى اجتازتها أوروبا منذ أربعة قرون. وأن يعتبر ماضى الآخرين على أنه مستقبل له[2] .

(١) (الغرب والشرق الأوسط صـ ٥٦ ، ٥٧ تعريب د. نبيل صبحى (كتاب المختار) بالقاهرة .

(٢) صـ ١٨٣ من كتاب (الإسلام دين المستقبل) ترجمة عبد المجيد بارودى ط دار الإيمان بيروت - دمشق ١٩٨٣م) .

ومن هنا ظهرت قضية التوفيق بين التـراث والعصرية والحق أن ما واجهته الأمة فى العصر الحديث لم يكن كـارثة من نوع جديد، بل سبق أن واجهت من الكوارث مـا هو أشد قـوة وخطراً، ولنتذكـر حروب الفـرس والروم فى بداية عصر الإسلام كما واجهت الاكتساح التتارى وأنقذت منه نفسها والعالم معهـا، وانتهت الحروب الصليـبية لصالحهـا بعد كر وفر دام نحـو قرنين من الزمان .

التوفيق بين التراث والعصرية والتحذير منه :

نعـود إلى الملاحظة الجـديرة بالتنويه : إنه لـم يظهر فـى تاريخنا قط هذا التوقف وهذا التـساؤل: هل نمضى قـدماً متـابعة واستـمرارًا لحـركة تاريخنا الفيّاض بالمواقع تلو المواقع التى تحقق فيها النـصر لأنناتشبثنا بعقيدتنا وأفكارنا وتراثنا الحـضـارى الإسلام أو نتـوقف حـائرين باحـثين عن أيهـما نفـضل الاستمساك بالتراث الذى انبثقت منه العقائد والأفكار أم مجاراة العصر الذى نعيشه؟

وعندما يطلق لفظ (**التراث**) على النتاج العلمي والثقافي الإسلامى فإنما بغرض بث بذور التـشكيك فى قِيمـة ومدى قدرته على الارتقـاء بالأمة من جديد بعد عصور الاستعمار والقهر والتبعية !

ويدور أصحاب هذا الاتجاه على المطالبة (**بفرز**) التراث لإبقاء ما يصلح منه للعصر واستبعاد غيره .

فإلى أى مدى يمكن تطبيق هذا الرأى الغريب ؟

هل يقصد به القرآن والسنة ، أم العبادات وأهمها الصلاة ، أم نظمه التشريعية الراقية، أم قيمه الأخلاقية الثابتة، أم عقائده وأفكاره ؟

ولا بد منذ البداية - حتى لا تختلط المدركات والمفاهيم - أن نحدد التعريف الموجز للإسلام كدين ومنهج حياة ، أو دين وحضارة وليس مجرد تراث كغيره من تراث البشر القابل للفرز والتنقية، وبهذا التحديد ليس الإسلام (ديناً خالصاً وإنما هو نظام اجتماعى كامل، وإنه ليس مجموعاً من الطقوس والعبادات يتقرب بها الإنسان لربه - عز وجل - وإنما هو مجموع من القواعد والأنظمة التى يستطيع الناس أن يعيشوا بمقتضاها، ومن هنا كان الإسلام حضارة كاملة ونظاماً جامعاً، استطاع أن يمد بلاد الشرق بكل مقومات الدول وأساليب السياسة والحياة والتشريع والحضارة مدى بضعة قرون)[1] . ويقول الدكتور حسين مؤنس فى كتابه (الإسلام حضارة) وحيث أن الإسلام فى ذاته حضارة لا قاعدة حضارية كما يقولون - فهو دين الجماعة ودين الأمة والأمة هى التى تطبق الدين وتحفظه وترعاه وهى التى تنشره بين الناس [2] .

فما المقصود إذن عن البحث فى **(التراث)**؟ أو وضعه مقابل **(العصرية)** إن تراثنا يختلف عن تراث أية أمة أخرى لأنه ميراث النبوة ويتسم بالحيوية والخلود لأن مصدره الوحى الإلهى ، لا قرائح البشر ، وإن كان لعلمائنا - علماء الحديث والأصول والفقه - من دور، فهو فقط المحافظة عليه نقياً خالصاً حتى لا تختلط به **(البدع)** التى هي من صنع البشر، أو تفسيره

(١) (الشرق الأوسط في العصر الحديث ، د/ حسين مؤنس ط المكتبة التجارية بمصر سنة ١٩٣٨م)

(٢) الإسلام حضارة ط ١١١ ط الدار السعودية - جدة ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م) .

وشرحه لعامة المسلمين .

والتراث بهذا التحديد لا يقتصر على الماضى التاريخى ولكنه باق إلى قيام الساعة [1] ولا يحتاج إلى (إعادة نظر) أو (فرز وتدقيق) لأن علماءنا قد استكملوا الفحص بأدق المناهج العلمية المعترف بها، لا سيما علوم مصطلح الحديث وأصول الفقه، وبما وضعوه من شروط للتفسير والاجتهاد والإفتاء، مع بقاء الوحى الإلهى بالكتاب والسنّة لم تمسه يد بشر بتحريف أو تصبغه بالصبغة البشرية .

وإذا استعرضنا أغلب البحوث التى تلقى وتناقش عادة فى ندوات (الأصالة والمعاصرة)، أو على صفحات الجرائد والمجلات،رأيناها تهتم بمناقشة موضوعات عدة من أبرزها بحث الصلة بين **(التراث والعصرية)**، والمقارنة بين الحضارتين الإسلامية والغربية،والإجابة المطلوبة من الفكر الإسلامى على السؤال المطروح بالشكل الآتى (ماذا نأخذ وماذا ندع من الحضارة المعاصرة؟)

وهكذا تتشابك الموضوعات وتتداعى الإيحاءات، فيُلحق بها أشباهها كالبحث فى التراث :

ما هو طبيعته ؟ . وهل يُقصد به التقاليد والعادات والأعراف ، ومن ثم فقد أدت دورها ولا حاجة للعمل بها فى عصرنا ؟ أو ما الذى نستبقيه صالحاً للعصر ؟

---

(١)يفسر الأصفهانى الحديث (أنّا معاشر الأنبياء لا نورث ما تركناه صدقة) بأن ما تركه الأنبياء هو العلم وهو صدقة تشترك فيها الأمة ، وما روى عنه عليه الصلاة والسلام من قوله **(العلماء ورثة الأنبياء)** فإشارة إلى ما ورثوه من العلم (المفردات فى غريب القرآن - صـ ٥١٩ تحقيق محمد سعيد كيلانى ط الحلبى ١٣٨١ هـ ١٩٦١ م) .

وربما كانت أهم الندوات التى عقدت لهذا الغرض تلك الندوة الكبرى التى عقدت بالبحرين (١٤٠٥هـ - ١٩٨٥ م) لمناقشة (اتجاهات الفكر الإسلامى المعاصر) وتحدد هدفها بأنه البحث فى الأعماق (عن الطريق الجديد الذى يمكن أن نستبطن معالمه من خلال مسيرتنا الحضارية عبر هذه الحركات التى تنظم العالم الإسلامى فالمستقبل هو الهدف، وليس مجرد الوقوف - إيجاباً وسلباً - على أطلال الماضى القريب أو البعيد، بل لابد أن يتعانق هذا الماضى القريب أو البعيد، لابد أن يتعانق هذا الماضى مع الحاضر ويدفعه إلى الأمام صوب أهدافه المستقبلة المحددة، مستفيداً من التجارب الحية)[١] .

ولكن مما يلفت نظر المتابع لآراء المتغربين أن خلفياتهم الثقافية ورواسب افكارهم (الجاهزة) المنتقاه من الفكر الفلسفى خاصة، أدّت إلى حجب الرؤية السليمة لعقائد الإسلام وآفاقه. ويصعب على هؤلاء فعلاً إصدار أحكام صائبة على الإسلام لأنهم مقيدون بأفكار، ومتشبعون بنظريات يتعذر عليهم التحرر منها وقبول أفكار ونظريات مغايرة، اللهم إلا اذا انطلقوا بعيداً عنها وأعادوا البحث والتمحيص للتراث العلمى الهائل الذى تركه علماء المسلمين المخطوط منها والمنشور **(مع العلم بأن المخطوطات التى تركها لنا علماؤنا تقدر بنحو نصف مليون مخطوطة لم ينشر منه أكثر من الخمس)[٢]**.

---

(١) (من مقدمة الندوة بقلم د. محمد الأحمد الرشيد صـ ٩-١٠ ندوة اتجاهات الفكر الإسلامى المعاصر البحرين ٣-٦ ٢٥/٢/١٩٩٥ مكتبة التربية العربية لدول الخليج ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م) .

(٢) (سلوك المالك فى تدبير الممالك جـ ١ص ١١٣. د/ حامد ربيع مطبعة الشعب بالقاهرة) .

تفوق التراث الإسلامي على ثقافة العصر

ونحن ندعو إلى دراسة الذخائر والنفائس التى تركها لنا علماؤنا فى مجالات العلوم الإنسانية خاصة كالنفس والتربية والاجتماع والسياسة والاقتصاد، وأهميتها مستمدّة من ثلاثة عناصر :

١- أنها بمثابة الحصون التى تصون عقائدنا وعبادتنا وشرائعنا وقيمنا الأخلاقية وتعبر عن الاستقلال والذاتية لثقافة الأمة وأنظمتها .

٢- أنها تتفوق على ثقافة العصر وفلسفاته .

٣- أننا بإحياء هذا التراث والعمل به نصبح مؤهلين للتأثر فى العصر - لا التأثر به - أى التقدم للأخذ بيد الإنسانية لأن الإسلام دين الإنسانية ولايقتصر على شعب أو قوم .

ولا وجه للعجب فى هذا لأن أزمة العصر الحديث تحتاج إلى حل من خارج ثقافته وخبرته وتاريخه ونظمه، وهذا ما يقصده جارودى عند حديثه عن الدروس المستفادة من الإسلام .

وتحت عنوان (ما الذى يجب أن نتعلمه من الإسلام فى الوقت الحاضر) ؟

يلقى جارودى علينا بعض الدروس نذكر منها :

إقصاء الأصنام الحديثة فى مجتمعات الغرب كصنم النمو والتطور والتقنية والفردية والقومية وقوة السلاح والجيش وكل منها يحمل محرماته ورموزه المقدسة وطقوسه (ويؤكد الإسلام رفضه لهذه الأصنام بقوله : لا إله إلا الله والله أكبر) [1] .

---

(١) الإسلام دين المستقبل صـ ١٨٩ ,

تعديل موقفنا فى التعامل مع الطبيعة، فبدلاً من الروح العدائية التى دأبنا عليها منذ عصر النهضة، علينا أن نتعلم من الإسلام كيف حمّل الإنسان مسئولية الحفاظ على توازن العالم - لا تدميره - فبدلاً من استهلاك احتياطات الطاقة الجوفية بشكل عشوائي، دون أن نحسب حساباً للأجيال اللاحقة، ولا للأهداف الانسانية الشاملة، يعلمنا هذا التفكير أن نعود إلى نبع الطاقة الذى لا ينضب، المتمثل بالمياه والبحار والشمس والأرض والرياح[1] . ويستشهد جارودى بالآيتين ﴿ **إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً** ﴾ (٧٢ : الأحزاب) .

كما يشير أيضاً تولي الإنسان منصب (خليفة الله على الأرض) وربما يقصد قوله تعالى﴿ **وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً** ﴾(٣٠ البقرة).

ولكن لابد من الاحتياط فى تفسير آية الخلافة والتقيد بالشروط التى وضعها العلماء، إذ ليست الخلافة منوطة بالإنسان على إطلاقه، بل محددة- كما فسرها الطبرى بآدم - عليه السلام (ومن قام مقامه فى طاعة الله والحكم بالعدل بين خلقه، وأما الإفساد وسفك الدماء بغير حقها فمن غير خلفائه، ومن غير آدم ومن قام مقامه فى عبادة الله) .

كذلك يشفق أرنولد توينبى على حضارة العصر الحديث من خطرين داهمين : **أحدهما:** نفسى وهو التمييز العنصرى، **والثانى:** مادى وهو شرب الخمر، ويرى أنه إذا سمح للفكر الإسلامى أن يؤدى دوره فسيبرهن عن قيم اجتماعية وأخلاقية سامية .

---

(١) الإسلام دين المستقبل صـ ١٨٩ ,

(فعدم وجود التمييز العنصرى بين المسلمين هوأحد أبرز الإنجازات الأخلاقية للإسلام، والعالم المعاصر فى وضعه الراهن بحاجة ماسة لنشر هذه الفضيلة الإسلامية [1] .

وفى مجال التشريعات وإصدار القوانين، يظهر سمو الشريعة الإسلامية بمقارنتها بالقوانين الوضعية فإذا كانت المجتمعات الإنسانية تأخذ فى صياغة القوانين كلما دعت الحاجة، ثم الاضطرار لإجراء التعديلات والتنقيحات على أثر التطبيقات وظهور الثغرات، واستفحال الأخطاء فإن الشريعة فى الإسلام تتميز بالكمال والاحاطة بكل ما تحتاج اليه المجتمعات فى معاملاتها، وقد أكد الإمام الشافعى هذه الحقيقة، وخلاصتها (أن نصوص الشريعة وافية بحكم كل ما يقع من الحوادث ويجبر من الوقائع، فليست هناك واقعة إلا وفيها نص من كتاب أو سنة يستدل به على حكم الله فيها . غير أن هذا الحكم قد يؤخذ من لفظ النص ، أو من معقوله بطريق القياس . يقول الشافعى (ليست تنزل بأحد من أهل دين الله نازلة إلا وفى كتاب الله الدليل على سبيل الهدى فيها) [2] .

وتفسير ذلك بشكل مجمل أن خط ارتقاء إصدار القوانين والتشريعات بواسطة علماء القانون وفقهائه يتجه - بعد التجارب تلو التجارب وضياع السنين والأجيال - يتجه إلى مرتبة الشريعة الإسلامية التى استقرت عليه فى مكانتها السامية منذ نحو أربعة عشر قرناً .

---

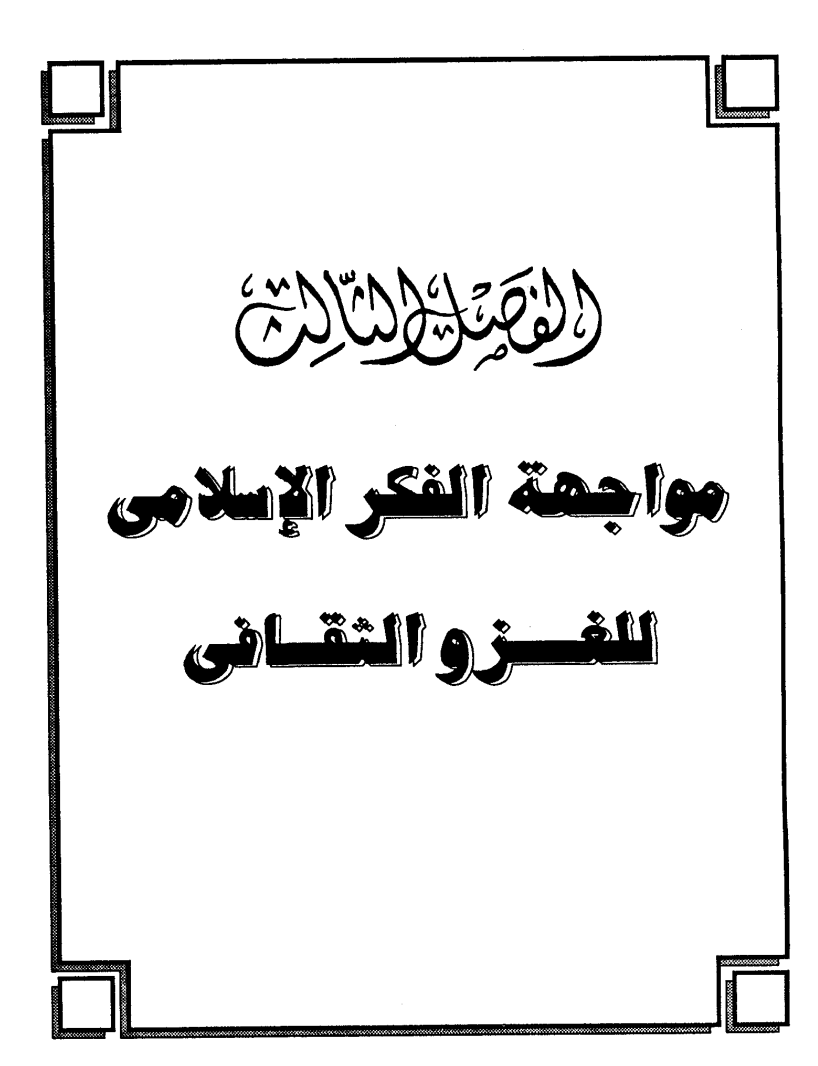
(١) (الإسلام والغرب والمستقبل - صـ ٦٢ ترجمة د/ نبيل صبحى ط دار العربية - بيروت ١٣٨٩هـ - ١٩٦٩م) .

(٢) (نظرية المصلحة فى الفقة الإسلامى ٣١٢ للدكتور حسين حامد حسان مكتبة المتنبى بالقاهرة سنة ١٩٨١م ونص الإمام الشافعى من كتابه (الرسالة) .

وإذا كان لابد من كلمة نوجهها للمتشككين فى إمكانية الشريعة الإسلامية للوفاء بحاجات العصر الحديث فإننا نسوق لهم رأى أحد اساتذة القانون المدنى المقارن بجامعة باريس الذى أثبت (إمكان الاستعاضة عن القوانين المدنية الاشتراكية بقانون ستالين الصادر فى روسيا سنة ١٩٣٧ ولم يفته وهو يهودى فرنسى أن يقول : إن هذين المتناقضين : قانون ستالين (الذى احتوى جميع القوانين الاشتراكية) وقانون نابليون (الذى احتوى جميع قوانين أوربا وأمريكا) **لا يمكن لقانون على ظهر الأرض أن يقارب بينهما، ويمكنه أن يحل محلهما سوى القواعد العامة والكليات الأساسية بالشرع الإسلامى**) [١]

***

(١) (الإسلام ومشكلات العصر) ص٩ الدكتور مصطفى الرافعى دار الكتاب اللبنانى - بيروت سنة ١٩٨١) .



الفصل الثالث

مواجهة الفكر الإسلامى للغــزو الثقـافى

صلة التقدم التكنولوجى بالارتقاء الحضارى :

إذا وصف العصـــر الحديث بأنه عصـــر التقدم التكـنولوجى والوصول إلى القمـــر واستـخدام الكمـبيـــوتر، فلا صلة له بما نحن بصـــدره ولا يدخل فى صميم قضـيتنا، فإن المسلم المعاصر يستـخدم أدوات العصر وآلاته، ولا أظن أن هناك خلافـاً فى وجوب ذلك وضرورته، بل ان دراسـة العلوم التجريبـية الحديثـة فروض الكفاية ونحـن نلاحظ أن الغرب يضنّ علينا بأسـرارها بينما يصدّر إلينا آدابه وفنونه الهابطة .

وإذا عبَّـرنا عن العصر بلـغة مفـسرى التاريخ والحـضارات ، فإن التـقدم التكنولوجى وحده لا يعبر عن ارتقاء حضارى :

يقول جـود (أنظر إلى الطائرة التى يدوى صـوتها وهى تخـترق السـماء الصافيـة فى الصيف، لقد تضافرت فى صنعـها معرفة الإنسـان بالرياضيات وعلم الحركة والآليات، ومعرفته بالكهـرباء والاحتراق الداخلى وعبقريته فى تطبيق المعرفـة، ومهارته فى صنع الخشب والمعـادن . . . إلخ أما الآن فانظر إلى الغرض الذى من أجله استخدمت الطائرة الحديثة والذى يبدو أنها ستظل تستخدم من أجله بازدياد، إنه إلقـاء القنابل التى تدمر وتخنق وتحرق وتسمم وتقطع اوصال أناس عُزل) [١] .

ومن هنا ظهرت إحدى مآسى الإنسان فى العصر الحديث بسبب الإنفصام بين عـالم الروح وعالم المادة، وكـأنه - رأى الإنســان - هو والعالم حـوله مجرد مادة بلا روح أو بلا نفس لها أشواقها وتطلعاتها، بينما العامل النفسى والوجدانى فى الإنسان فى حاجة إلى اشـباع من لون خاص - وهى تختلف

---

(١) - A guide to modern wickedness, Joad. 262 . 263 نقــلاً عــن تفـــســيــر التاريخ، عبد الحميد صديقى صـ ١٢

نوعاً وكماً عن مجرد الإشباع المادى !

لقد فقـد الإنسان (**الشعـور بالهدف الذاتى**) وأصبحت هـذه الحضارة المتقدمة (تنتج عوامل انحطاطية أكثر خلال الملل وفقدان الهدف .

وأصبح العصر الحديث فى رأى كولن ولسن (**عصر اللامعنى**) ففقدان المعنى والهدف يجثم على أدبنا وفنوننا، هذا الشعور العام بأن التأكيدات التى يمنحهـا الدين قدضـاعت ولا يمكننا استـبدالها، فـتحليل العلم للـمشكلات العلمية يزيد فى اتساع هوة الفراغ المؤلم، ومن خلال هذا تبدو الثقافة الغربية تعـانى الانهـيـار والانتكاس لما لا يقل عن مـائة سنة ،إذ إن الأمـر ليس إلا مسألة تفكير فى معرفة المدة التى تستمر فيها قبل أن يلتهمها الإفلاس الماحق)

وربما كان هذا الرأى ممعناً فى التـشاؤم، ولكنه يعنى لو نزعنا منه الغلو فى التشـاؤم، يعنى أن مرحلة الانحدار مـستمـرة، ولم تعد الثقـافة هناك تملك عناصر التـفوق التى ظنت أنهـا ستمـتلكها إلى الأبد، وسنعـرض فيـما يلي للرأي الناقد لحضارة العصر مع تقديم البديل في ضوء العقائد الإسلامية :-

أ - الآثار السلبية للفلسفة المعاصرة :

ويضيق المقـام عن الإسهاب فى تناول المذاهب الفلسفـية الغربيـة، غيرأن الذى يعنينا هو اذا كان من محاسن الفلاسفة الذين يقرون بالميتافيزيقا (أى ما وراء الطبيـعة) إنما أقروا (بوجـود الله سبـحانه، وحدوث العـالم، وحرية الإرادة وخلود القيم التى من أجلها عاش الإنسان وجاهد)[1] فإن هؤلاء ممكن دعوتهم بالحكمة والموعظة الحسنة إلى الإقرار بالمبادئ العقلية والبراهين المنطقية ليتحول تصورهم للميتافيزيقا من تصورات ذهنية وخيالات مبهمة إلى معرفة عالم موجود حقيقى ونظمه الفائقة فى عظمـتها وجلالها، المتضمنة لتفاصيل

(١) مع الفيلسوف د / محمد ثابت الفندى صـ ٢٧٢ دار النهضة العربية - بيروت ١٩٨٠م.

العالم الآخر (ونعنى بذلك كله عالم الغيب وفق العقيدة الإسلامية) .

ولكن ما الحيلة فى مذاهب الوضعيين المنطقيين الرافضين لكل ما هو غير مادى محسوس وخاضع للتجربة ؟!

ونخشى أن يصل بهم الأمر إلى إنكار وجودهم أنفسهم ، أوهم كما وصفوا بحق أنهم أهل (اللافلسفة المعاصرة) ! [1]

كذلك فإن لنا مواقفنا المستمدّة من عقائدنا وأفكارنا الجلية الواضحة فتغنينا عن أن نلهث وراء أمثال سارتر والوجوديين - كما يُراد لنا بحجة العصرية والتحديث بغير وعى بذاتنا وثقافتنا، بل لمجرد معايشة العصر ومتابعته !

إن أى مسلم عارف بدينه يسخر سخرية لاذعة من أقوال سارتر وعباراته ، ومنها مثلاً (كل موجود يولد من غير داع ، ويمتد وجوده فى ضعف ، ويموت صدفة) !

أو (الموجود يوجد من غير داع، وبلا سبب، وبدون ضرورة) !

فإذا ألقينا على عامة المسلمين - فضلاً عن خاصتهم - مثل هذه العبارات فإنهم بلا شك سينفرون منها، بل سيطوِّحون بها بعيداً لأن ثقافتهم الإسلامية توضح الحكمة من الوجود وتضفى عليه معنى وتعرف له غاية .

ونضيف أن قضايا الفلسفة المعاصرة هى نفسها القضايا التى كانت مثارة فى عصر الفيلسوف اليونانى أفلاطون ٤٣٨ ق.م وهذا ما يؤكده ديورانت فى كتابه (قصة الفلسفة) حيث يشير إلى كتاب (الجمهورية) لأفلاطون ثم يطرح القضايا التى بحثها، وهى نفسها المطروحة بواسطة الفلاسفة المعاصرون (فهنا - فى الجمهورية - سنجد ميتافيزياه، ولاهوته، وأخلاقه الوضعية،

---

(١) السابق صـ ٢٥٩ .

وعلم نفسه وعلم تربيته، وسياسته، ونظريته فى الفن، وهنا سنجد قضايا تفوح منها رائحة العصرية ولها مذاق معاصر: سنجد الشيوعية والاشتراكية، الحركة النسائية وتحديد النسل وتحسينه، وستطالعنا قضيتا نيتشة، الأخلاق والأرستقراطية، وقضيتا روسو، العودة إلى الطبيعة، والتربية الانعتاقية، وقضية بيرغسون، الابتداع الحيوى، والتحليل النفسى لفرويد، كل شئ موجود هنا)[1]

أما أرسطو الذى ظل طويلاً المعلم الأول ثم اختفى فى الفلسفة الحديثة فقد عاد فى فرنسا وانجلترا ليأخذ حظه من الدراسة، بسبب فلسفته فى الوجود، أو نظرياته المنطقية .

صحيح أن ذلك يجرى فى نطاق الاتصال بالفلسفة القديمة لتجديدها (أو لتجديد الاتصال بها لفهمها فى ضوء جديد)[2] إلا انه يدل على التشبث بثقافاتهم ، والحرص على الاتصال بمنابعها والفخر بالماضى التاريخى ، ومع هذا لا يوصفون (بالرجعية)!

ويدل أيضاً أنه لا جديد تحت الشمس، ولكن حركة دائرية فى حلقة مفرغة فلا تتقدم إلى الأمام لحل معضلات الإنسان أو الارتقاء به وتحقيق سعادته .

لا مخرج إذن إلا بالاهتداء بالوحى المنزّل الذى خُصت أمتنا بتعاليمه الأخيرة الكفيلة بتحقيق الحياة الطيبة فى الدنيا والسعادة فى الآخرة. وهنا لابد من التأكيد أن أوروبا لم تخلع عنها دينها كما يوهمنا بذلك المتغربون بل ما زالت محتفظة بمسيحيتها كعامل من عوامل التميُّز والمحافظة على الهوية

(١) (قصة الفلسفة - ويل ديورانت صـ ٧٣ ترجمة أحمد الشيبان - منشورات المكتبة الأهلية بيروت ١٩٦٥) .

(٢) مع الفيلسوف - د. الفندى صـ ٤٥ / ٤٦ .

نشأت عليه الأجيال هناك، فلا عجب أن يصف الأستاذ/ أحمد بهاء الدين الحضارة الغربية بالمسيحية، إذ مازال هناك حزب فى إيطاليا اسمه الديمقراطية المسيحى، وفى ألمانيا وفى فرنسا حيث قبل ديجول كذلك الأمريكان الذين هاجروا إلى أمريكا كانو متدينين ومن أسباب هجرتهم الاضطهاد الدينى، ورئيس الجمهورية فى أمريكا يحرص جداً أن يُصور كل يوم أحد عند ذهابه إلى الكنيسة [1] كذلك لا تُعادي العلمانية الدين في الغرب كما سنوضحه بالباب الثاني من هذا الكتاب .

ب ـ حقيقة العلاقة بين الإسلام والفلسفة :

يرى المسلم المزود بحصيلة الفكر الإسلامى أن فى المعارف والعلوم المستمدة من كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ ما يُغنيه عن الالتجاء إلى أية فلسفات وثقافات أخرى من تصورات البشر، هى أقرب إلى التخمينات منها إلى الحقائق والوقائع الصحيحة، وعندئذ تُثار مسألة الصلة بين الإسلام والفلسفة:

ويرى أنه أول ما يجب تحديده قبل تقرير نتيجة البحث هو التمييز بين تعريفين:

أحدهما: تعريف الفلسفة بأنها نتاج ثقافى غربى ممتد منذ الأجداد اليونان إلى العصر الحديث .

والثاني: أساليب العقل المنطقية التى يعتمد عليها الإنسان فى الإدراك

---

(١) (صـ ٢٣٢/٢٣٣ من كتاب (الإسلام فى مواجهة العصر وتحدياته أو تعقيب على ندوة الأهرام فى ٧-٤-١٩٧٢م عبد الكريم الخطيب ط دار الفكر العربى ربيع الأول ١٣٩٢هـ مايو ١٩٧٢). ومازالت الخطوات تمضي قدماً في الغرب نحو الحرص على إضفاء الطابع المسيحي عليه ثقافياً وسياسياً، ومما يذكر في هذا الصدد أن أحد ساسة هولندا وصف الاتحاد الأوروبي بأنه (نادي مسيحي) كمبرر لرفض تركيا الانضمام إليه، وهنا ايضاً حركة مسيحية أصولية يمينية في أمريكا بقيادة يهودية صهيونية تطرح نفسها على أنها حركة صليبية جديدة ويدعي المنتمون إلى جماعة السيادة العسكرية لهيكل أورشليم أنهم فرسان (ينحدرون روحياً من الصليبيين الذين حاربوا الكفار ؟؟؟) .

فهمي هويدي(حين تردتركيا بالتحالف مع واشنطن وإسرائيل)

• الشرق الأوسط ٢٢/١٢/٩٧ ص٩ .

•حليم بركات (مواسم الأعياد في أمريكا : أصولية مسيحية بقيادة يهودية) الحياة ٧/١/١٩٩٨ ص١٧ .

والفهم والاستنباط وغير ذلك من العمليات الذهنية .

ولا ينبغى الخلط بين التعريفين ونضيف هاهنا أيضاً ما اقترحناه من قبل بكتابنا (الإسلام والمذاهب الفلسفية) بضرورة اتخاذ منهج آخر فى الدراسة، وقلنا هناك:

(فقد آلينا على أنفسنا الالتزام بالمنهج المقارن والإطلال على الفلسفات من نافذة واسعة، تتسع لرؤية شاملة لتاريخ وحضارات الأمم بدلاً من النافذة الضيقة التى ألجأنا إليها المستشرقون فى عهد مضى وانقضى - لكي نضطر إلى الدخول فى دائرة الصيغة الضيقة التى وضعوها فى شكل سؤال اصطنعوه اصطناعاً وهو :

(هل فى الإسلام فلسفة)؟ أو هل استطاع المسلمون إبداع فلسفة ؟

ونقول: إنهم اصطنعوا هذا السؤال اصطناعاً لأنهم صاغوه وفق ثقافتهم ونظرتهم المتعالية المعتزة بالعنصر الآرى دون غيره من أجناس البشر، وكانوا يقصدون بالفلسفة، التفلسف على نمط فلسفتهم الغربية، أو فلسفة أجدادهم اليونان بوجه خاص .

إن السؤال الصحيح فى هذا الغرض ينبغى صياغته فى شكل آخر مخالف تماماً: وهو هل الإسلام يخاطب (العقل) ويأتى بالبراهين الدالة على كماله أم لا ؟ [1]

ونضيف بأن استخدام المنهج المفروض علينا يُعد لوناً من (الاستقطاب الفكرى) (يعرّف الأستاذ/ جمال سلطان (الاستقطاب الفكرى) بأنه ارتباط فاعلتنا الحضارية فى شقها الفكرى الإبداعى بالطرح الاستشراقى لقضايا

---

(١) (مقدمة كتابنا (الاسلام والمذاهب الفلسفية) ط دار الدعوة بالأسكندرية ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥) .

ومشكلات الفكر الإسلامى ويؤدى فى النهاية إلى قولبة قضية الإسلام، من خلال القوالب المنهجية والفكرية، التى صاغها الفكر الأوروبى، فتصبح «دراسة الإسلام» عبارة عن (ملحقات) أوروبا بالضبط - تذييلات فكرية على القضايا التى يفجرها العقل الأوروبى الذى يهدف إلى مسح الهوية وفرض التبعية [1] .

ولا يقتصر الأمر على ضرورة تغيير منهج دراسة الفكر الفلسفى بل ينبغى اتباع ذلك فى باقى العلوم الانسانية - كالاجتماع والسياسة والنفس والأخلاق والتربية - بدلاً من استخدام المناهج الغربية، فإن الاستقلال بالمنهج أصبح ضرورياً بعد تجاربنا مع الغرب حيث أخضع هذه العلوم لمقاييسه وقيمه الخاصة، ثم النظر إلينا من موقع الاستعلاء حيث يضعون النموذج الأوروبى فى قمة التطور وإعطائه الصبغة النموذجية المثالية) [2]

ويلفت نظرنا الدكتور عبد الوهاب إلى حقيقة أخرى ربما غابت عن الكثيرين، وهى ان علماء الأجتماع الفرنسيين جعلوا منه باباً من أهم ابواب **(العلوم الاستعمارية)** فمن حيث موضوعه ينظر إلى مشاكل المجتمعات المستولى عليها ومن حيث أهدافه حيث كان يخدم مصالح الامبراطورية الفرنسية (ص ١٤٤) ويعلل الباحث نشأته إلى ما اتضح للاستعمار من ان الشعوب الإسلامية المغلوبة المهزومة عسكرياً لم تخضع ذهنياً وعقلياً لسيطرة الغرب عليها، بل اتجهت تبحث فى ثقافتها ماضياً وحاضراً عن مقومات

---

(١) (ينظر مقاله القيم بعنوان (الاستقطاب الفكرى ومأزق الإرث الاستشراقى) بمجلة منار الإسلام - قطر جمادى الآخر ١٤٠٩ هـ الموافق ١١ يناير ١٩٨٩م من ص٩٥ إلى صـ١٠٠) .

(٢) (من مقال (الحياة الاجتماعية كما صورها بعض المستشرقين) ص١٥٥ للدكتور عبدالوهاب أبو حديبة كتاب مناهج المستشرقين فى الدراسات العربية الإسلامية الجزء الثانى - ط مكتب التربية العربى لدول الخليج الرياض ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥) .

لتجابه خطر الاحتلال، وعندئذ يضع (رينى مونى) مشروعاً باسم (على الاجتماع الجزائرى) للتعرف على حياة الشعوب الجزائرية .ص١٤٢-١٤٣ وشهادة الدكتور عبد الوهاب لها وزنها لأنه من كبار المتخصصين فى هذا الشأن حيث يعمل مديراً لمركز الدراسات والأبحاث الاقتصادية والاجتماعية بتونس) .

ج ـ مفهوم الدين فى الفكر الإسلامي:

يُلاحظ على نظريات المثقفين المحدثين المتأثرين بثقافة الغرب أنهم حصروا انفسهم فى دائرة المباحث الفلسفيةوانساقها سواء فى أصلها اليونانى القديم أو الأوروبى الحديث ، كما اعتادوا - بسبب مناهج التعليم التى أسسها المستشرقون وتلاميذهم - اعتادوا صبغ الإسلام بالصبغة الثقافية الغربية التى تفصل بين الدين والحياة، أو الدين والأحكام العقلية، والدين والنظريات العلمية ومن ثم أصبح مفهوم الدين عندهم مجرد لون من الثقافة كغيره من ألوان الثقافة الأخرى من العلوم والآداب والفنون، والتدين مجرد علاقة تربط بين العبد وربه، وعما دها القلب والعاطفة ولا دور للعقل وأحكامه فيه، ولا صلة بالحياة الإنسانية الاجتماعية أو الاقتصادية أو السياسية !

ويصحح الفكر الإسلامى هذه النظرة الخاطئة مبيناً الإسلام ـ كما عرّفه البعض من غير المسلمين ـ يحتوى على كل شامل إذا حللنا عناصره، سنعثر فى النهاية على عقيدة وشريعة ونظم وأخلاق تجمع بين النظر والعمل فى دائرة واسعة تضم الفرد والمجتمع والأمة: يقول د/ فيليب حتى (الإسلام منهج حياة، وهو ـ بهذا النظر ـ يتألف من ثلاثة جوانب أساسية: الجانب الدينى والجانب السياسى والجانب الثقافي. هذه الجوانب الثلاثة تتشابك وتتفاعل، وربما انقلب بعضها إلى بعض مرة بعد مرة من غير أن نلحظ ذلك)[١]

---

(١) (الإسلام منهج حياة ص٩ ترجمة د/ عمر فروخ ط دار العلم للملايين سنة ١٩٨٣)

ويتضح من هذا التعريف صفة **(الشمول)** التى تكمن فيها فاعلية الإسلام وقوته المنيعة بالرغم مما تلقاه من ضربات كما يرى الأستاذ العقاد حيث صابر الكوارث والشدائد (زهاء تسعة قرون، ولم يزل بعدها «وحدة إنسانية» هائلة تتخذ مكانها بين هيئات الأمم - ولا تزال - على أمل وثيق فى المزيد [1]

وربما يقصد تجاوز الإسلام للحدود الضيقة للجنس واللغة والبيئة وارتفاعه إلى مستوى **(إنما المؤمنون أخوة)** .

وتتضح الميزة الثانية للإسلام بأنه (عقيدة شاملة لأنها تشمل النفس الإنسانية بجملتها من عقل وروح وضمير)[2]

ونعود إلى بيان الفجوة العميقة فى فهم بعض المستغربين للإسلام، إذ يتضح فهمهم له على نمط العقيدة النصرانية المؤدية إلى إقامة بعض العبادات والشعائر ثم ممارسة الحياة الفردية والاجتماعية والسياسية وفق النظريات والمذاهب الوضعية .

وهنا مفترق الطرق بين الإسلام وغيره، وكان الفيلسوف جارودى على وعى بأخص ما ينفرد به الإسلام، لأنه (الاستسلام والخضوع لإرادة الله عز وجل وعلى هذا المفهوم فكل ما فى الوجود هو خاضع ومستسلم لله فالأشجار فى نموها والحيوانات فى توالدها والأحجار فى ركودها مسلمة أى خاضعة لقوانين الله، لكن بدون إرادة منها. أما الإنسان فهو الوحيد الذى يملك الاختيار فى أن يختار الإسلام أو يرفضه، فهو بذلك يتحمل المسؤولية الكاملة). [3]

---

(١) الإسلام فى القرن العشرين، حاضره ومستقبله ص٣٢) .
(٢) الإسلام فى القرن العشرين، حاضره ومستقبله - عباس العقاد .
(٣) الإسلام دين المستقبل، جارودى . .

فما هى مكانة الإنسان ومبدؤه ومصيره فى العقيدة الإسلامية ؟

سنوجز الإجابة على هذا السؤال بعد إعطاء فكرة عن تفرد الثقافة الإسلامية من حيث العقائد والمعارف، ومن حيث العبادات والسلوك ، وهي مغايرة تماماً لثقافة العصر الحديث.

د ـ التعريف بالعقائد الإسلامية:

عالجت كتب العقائد الإسلامية كل ما يدور حولها إجمالاً وتفصيلاً ، وأسهبت فى شرح كافة مسائلها واستوعبت الإجابات على ما يدور فى الذهن من تساؤلات واستفسارات عن عالمى الغيب والشهادة بحيث لم تترك زيادة لمستزيد.

وإن استطلاع فهارس أحد هذه الكتب ليحمل المرء على الاقتناع بصحة ما نقرره، إذ تتضمن التوحيد وصفات الله عز وجل وأسماءه الحسنى وأفعاله ، والرسالة واثبات نبوة نبينا محمد ﷺ ، والقرآن كلام الله عزوجل، الإيمان بالقدر وأفعال العباد ومسؤوليتهم عن أفعالهم، وبيان الكبائر ومرتكبيها والحكم عليهم، والإيمان وزيادته بالطاعات ونقصانه بالمعاصى ، والملائكة والجن وصفاتهم وأفعالهم، وأشراط الساعة وأماراتها وأحداث يوم القيامة ووصف كل ما سيجرى فيها، والجنة ونعيمها والنار وعذابها، إلى جانب بيان فضائل الصحابة وإثبات الكرامات، ومناقشة المخالفين فى العقائد، وغير ذلك من أمهات المسائل التى لا غنى عن معرفتها، وهى معروضة وفق منهج علمى قائم على استعراض الأدلة، وتتفنّد آراء المخالفين بموضوعية ومناقشتها بمنهج جدلى يقوم على التمحيص ويهدف إلى الإقناع بمخاطبة العقول والأفهام .

فكيف مع هذا كله يُراد من المسلمين التحول من عقائدهم بواحاتها الفسيحة وآفاقها الرحبة التى ينفردون بها إلى ثقافات غيرهم من الأمم ومتابعتها، بأفكارها المحدودة وتصوراتها الضيقة المصطبغة بالوثنيات ؟

بل كيف يُعقل من أتباع خاتم الأنبياء صلى الله عليه وسلم اتباع فلاسفة اليونان والتابعين لهم من المعاصرين الجاهلين بحقائق الألوهية بل الإنسانية؟ أولئك الذين خبطوا خبط عشواء فيما يتعلق بذات الله وصفاته، - كما يصفهم الإمام الندوى - (وكان عمادهم فى ذلك الظن والتخمين، والخرص والترجيم دون استناد إلى توجيه سديد واشراقة مستقيمة ﴿**مَّا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلاَّ يَخْرُصُونَ**﴾، ولا تقلّ فلسفتهم والهياتهم التى دونها حكماؤهم وفلاسفتهم طرافة وخرافة عن أساطير الشرق وألاعيبها وأعاجيبها، وقد تلمع فى أقوال سقراط وأفلاطون - دون أرسطو - وتعليمات فلاسفة الأخلاق إثارة من تعاليم الأنبياء لمعان اليراعة فى الليلة المطيرة الشاتية، مما يدل على أن تعاليم الأنبياء قد طرقت آذانهم فى حين من الأحيان، لكن هذا النور لم يكن من السطوع والثبات بحيث يمكنهم أن يعولوا عليه فى دياجير الحياة ﴿**كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُم مَّشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا**﴾ (البقرة/ ٢٠).[١]

---

(١) (الاسلام فى عالم متغير، للإمام/ أبى الحسن الندوى ص٧١ مكتبة الحياة - بيروت - ١٤٠٠هـ ١٩٨٠ م) .

هـ - الإنسان : مكانته ومبدؤه ومصيره فى العقيدة الإسلامية :

يرى المتدبر للقرآن الكريم عنايته بالإنسان بالحديث عن أصل خلقه وأطواره والحكمة من خلقه ومصيره فى الآخرة. كذلك أمره ونهيه وبيان الحلال والحرام وتعريفه بربه عز وجل وتحذيره من عداوة الشيطان، إلى غير ذلك من عظائم الأمور التى تتناول الإنسان من كافة الجوانب .

وما يدعو للاهتمام فيما نحن بصدده التعريف ببداية الخلق وبيان القرآن الحكيم لأصل الفطرة وطبيعتها وإن الإنسان خلق عارفاً لربه تعالى موحداً إياه عزوجل، كذلك تلفت الآيات القرآنية فى سور شتى أنظارنا الى أصل خلق الانسان لنقف على هذه الحقيقة المذهلة، وهى كوننا مخلوقين من نطفة فعلقه فمضغة وما بعدها . . ثم الموت والنشأة الآخرة .

ومن هذه الآيات ما ورد فى سورة (المؤمنون) : قال تعالى ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن سُلالَةٍ مِّن طِينٍ ۞ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ۞ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ۞ ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ ۞ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ ﴾ .

ألا يدعونا ذلك إلى التفكر والتدبر، ثم يصبح رادعاً ووازعاً عن التكبر، ومن ثم ينبغى على الإنسان أن يسلك السلوك المتوافق مع حقيقته كمخلوق مصنوع مربوب، فيخضع مختاراً لربه عز وجل فى حياته كلها، ويستخدم قدراته ومواهبه العقلية والجسمية فيما خلق من أجله فتتحقق سعادته وسعادة المجتمع الإنسانى كله؟

وهذه فى الحقيقة هى مهمة الأمة الإسلامية على مدى العصور، كانت تؤديها

عندما كانت مقاليد الأمور بيدها ،وهي مطالبة باستردادها لاستئناف دورها من جديد ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ .

كذلك نلاحظ أيضاً نداء القرآن الكريم للانسان ﴿ يَا بَنِي آدَمَ ﴾ لتذكيره بفطرته- والميثاق ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ ۞ أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ ﴾ .

وإنه مخلوق مربوب، خُلق بعد أن لم يكن، وأنه فى حاجة دائماً إلى ربه عز وجل، حيث إنه سبحانه هو الذى أنعم عليه بالحياة ابتداءً بالخلق، وهو الذى يمده بالنعم التى تجعل حياته باقية، وممتعة .

﴿ أَفَرَأَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ۞ أَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ ۞ نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ۞ عَلَىٰ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ ۞ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ ۞ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ۞ أَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ ۞ لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ۞ إِنَّا لَمُغْرَمُونَ ۞ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ۞ أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ ۞ أَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ ۞ لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ۞ أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ ۞ أَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنشِئُونَ ﴾ .

وتتميز هذه الآيات القرآنية بأنها لا تخاطب العقل وحده أو العاطفة وحدها ولكنها موجهة إليهما معاً فتؤدى إلى الاقتناع العقلى وتغذى العاطفة والروح معاً لمن أزاح عن نفسه قيود التقليد للثقافات الأخرى !

إننا إذن ننفرد كأمة إسلامية بتصوراتنا الخاصة، وفى كتب العقائد ما يشبع

تطلعات القارئ إلى معرفة الإجابة على كل ما يدور فى خلده من تساؤلات .

ولضيق المقام ، ولعدم الخروج عن غرض هذا الكتاب ، نكتفى بإعطاء القارئ فكرة موجزة مستمـدة من أحد علمائنا - وهو الراغب الأصفهانى (٤٠٢هـ) الذى انكب على القرآن الحكيم مستقرئاً دورة حياة الإنسان المتكاملة.

و - الغرض من خلق الإنسان ووظيفة العبادة فى حياته :

يرى الراغب الأصفـهانى اسـتناداً إلى الآيات القرآنيـة أن للإنسان ثلاثة أفـعال تختص به وهى :

١- عمارة الأرض المذكورة فى قوله تعالى ﴿ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا ﴾ لتحصيل المعاش لنفسه ولغيره .

٢- خلافـته عز وجل المذكورة فى قـوله تعالى ﴿ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴾

٣- عبـادته المذكورة فى قـوله ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ ﴾ أى الامتثال لله سبحانه وتعالى فى عبادته وفى أوامره ونواهيه.

ويعنينا توضيح معنى العبادة - بصفة خاصة - لما لها من صلة بالفطرة الإنسانية التى خلق بها بنو آدم ،ثم معرفة وظيفتها وحاجتنا إليها :

إن العبادة هى (فعل اخـتيارى مناف للشهوات البدنيـة تصدر عن نية يُراد بها التقرب إلى الله تعـالى طاعة للشريعة) أما دورها فـهو المحافظة على الفطرة التى خلق بها الإنسان المشار إلـيه بقوله تعالى: ﴿ فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ﴾ .

وهذا التعريف العام للعبـادة يحتاج تفصيل لبيان حاجة الإنسان الماسة إليها، إذ إنه فى الحقيقة (كائن عبـد) لا يسـتطيع الانفكـاك من عـبودته فـإما أن يعبد ربه عز وجل فتتحقق كـرامته وحريته الحقيقية لأنه حـينئذ لا يخضع أو يذل إلا لخالقه

عز وجل وإما إنه يتخذ إلهه هواه ويصير عبداً لشهواته وأسيراً لها ولغيره من البشر فيظل يتجرع كؤوس الهوان وتتلقفه شياطين الجن والانس من كل جانب فتضطرب حياته بل تُسدّ في وجهه مسالكها ويأخذ فى التخبط لا يدرى كيف يسير وإلى أين يتجه .

فإذا قدمنا شرحاً مختصراً عن وظائف الصلاة مثلاً فى الدنيا ، فبغرض إثبات أنها - وغيرها من العبادات فى الإسلام -، لها معانيها ومقاصدها وضرورتها اللازمة للمسلم على مدى العصور (فهى ليست من قبيل التقاليد والعادات على ما يظهر لمن لم يطلع على التراث الإسلامى).

كذلك فإن علماءنا بحثوها بعقول متفتحة وقلوب واعية، وخلاصة ما ذهبوا إليه أنها تذكّر الانسان أولاً بعبوديته لله تعالى - لا لغيره -، ثم توقظ فى وعيه ثانياً أن الحياة الحقيقية الخالدة هى حياة الآخرة فى الجنّة حيث يجد هناك - بفضل الله وكرمه ورحمته - حصاد ما زرعه هنا ،وهى ثالثاً سلاحه القوى فى معركته مع الشيطان عدوّه اللدود ، أى لها فوائد أخروية وفوائد دنيوية .

وستختار نموذجين من آراء العلماء،**أحدهما** لوحيد الدين خان - أحد العلماء التجريبين المعاصرين بالهند - وهو يصور لنا طرفاً من هذه الغايات بقوله (فالسعى فوراً إلى الصلاة - أى عندما يرتفع صوت حى على الصلاة إنما هو إعلان وإظهار على أن الانسان يعطى المقام الأول فى حياته لله فقط، ومن لم يفعل هكذا فهو كمن يعلن أنه يشرك مع الله أشياء اخرى، فهو إما أن يكون ضحية للبلادة وعدم الإحساس، وإما أنه ضحية لمشاغل أخرى احتلت فى حياته المقام الذى يجب ان يعطيه لله - تعالى - أساساً) (١) .

(١) (الإنسان القرآنى ص٣٧ ترجمة د/ سمير عبد الحميد إبراهيم - دار الصحوة بمصر ١٤٠٦هـ - ١٩٨٥) . ص٧٥

وفى شرح الحديث الذى رواه مسلم **(من صلى صلاة الصبح فهو فى ذمة الله فلا يطلبنكم الله من ذمته بشئ، فإنه من يطلبــه من ذمته بشئ يدركه ثم يكبه على وجــهه فى نار جــهنم)**، يرى وحيـد الدين خان أن المسلم حين يلـبى نداء صلاة الفجر فيذهب ليؤديها فى بيت من بيوت الله، فإنه بهذا السلوك (يعلن عن نيته فى أنه سيــبذل كل جــهوده وسيــقضى أوقاتــه فى سبيل تحـقيق النجــاح والفلاح فى الآخرة، وأنه ســوف يقضى يومــه فى عبادة الله ومن لم يجب النــداء الإلهى فإنما يسلم نفسه للشيطان عدو الإنسان)[1] ويصور المسلم الذى لا يصلى صلاة الصبح فى جمــاعة بأنه وضع نفسه فى الخطـر الذى توعده الله به وهو أن يخلع الله عنه رداء عونه ومــساعــدته ولن يبقى له أى مــلاذ أو ملجأ إلا أن يجـد نفســه يواجه الشيطان بمفرده).

ثم نورد **ثانياً** بيان أحد علمائنا المعرفين فى علم (أصول الفقه) :

يقول الشاطبى (فالصلاة مـثلاً أصل مشروعيتها الخضــوع لله سبحانه بإخلاص التوجه إليه ، والانتصاب على قدم الذلة والصغار بين يديه، وتذكير النفس بالذكر له. قال تعالى ﴿ **وَأَقِمِ الصَّلاةَ لِذِكْرِي** ﴾ وقال ﴿ **وَأَقِمِ الصَّلاةَ إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ** ﴾ وفى الحديث **(إن المصلى يناجى ربه)** ثم إن لها مقــاصد تابعة، كالنهى عن الفـحشاء والمنكر، والاستراحـة اليها من انكاد الدنيا، فى الخير **(أرحنا بها يا بلال)**، وفى الصحيح **(وجعلت قرة عينى فى الصلاة)** وطلب الرزق بها، قال الله تعالى ﴿ **وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَوٰةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لاَ نَسْئَلُكَ رِزْقاً** ﴾ وفى الحديث تفسير هذا المعنى.

وروى عن النبى ﷺ (أنه كــان إذا اضطر أهله إلى فضل الله ورزقــه أمرهم

---

(١) السابق صـ٣٨ .

بالصلاة) لأجل هذه الآية، **فهذه صلاة يستمنح بها من عند الله)**.

وإنجاح الحاجات كصلاة الاستخارة وصلاة الحاجة وطلب الفوز بالجنة والنجاة من النار، وهى الفائدة العامة الخالصة.

وكون المصلى فى خفارة الله، ففى الحديث **(من صلى الصبح لم يزل فى ذمة الله)** ونيل شرف المنازل، قال تعالى ﴿ **وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا** ﴾ فأعطى بقيام الليل المقام المحمود.

وفى الصيام سد مسالك الشيطان والدخول من باب الريان، والاستعانة على التحصن فى العزبة، وفى الحديث **(من استطاع منكم الباءة فليتزوج)** ثم قال **(ومن لم يستطع عليه بالصوم فإنه له وجاء)** وقال **(الصيام جنة)** وقال **(ومن كان من أهل الصيام دعى من باب الريان)**.

وكذلك سائر العبادات فيها فوائد أخروية وهى العامة، وفوائد دنيوية وهى كلها تابعة للفائدة الأصلية ، وهى الانقياد والخضوع لله كما تقدم [١، ٢] .

أما عن مصير الإنسان فإن الراغب يرى أن الإنسان فى دنياه مسافر ، ويتخذ الدليل على ذلك من قصة الخلق إذ قال الله تعالى ﴿ **وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ** ﴾ البقرة : ٣٦، مستشهداً بتفسير على بن أبى طالب - ﷺ -(الناس على سفر والدنيا دار ممر لا دار مقر ، وبطن أمه

---

(١) (الموافقات فى أصول الشريعة لأبى اسحق الشاطبى المجلد ٢ صـ ٧٩٠ دار المعرفة للطباعة والنشر- بيروت) .

(٢) وينظر كتاب (الأركان الأربعة) للعلامة أبى الحسن الندوى حيث شرح المعانى الدينية والمقاصد الشرعية للعبادات (ط دار القلم - الكويت) فى غير خضوع للفلسفات السياسية والمذاهب الأقتصادية والوجهماقنية السائدة هادفاً إلى تكوين المزاج الاسلامى النبوى ، والحصر على استمساك الأمة بذاتيتها .

مبدأ سفره والآخرة مقصده وزمان حياته مقدار مسافته وسنوه منازله، وشهوده فراسخه، وأيامه أمياله، وأنفاسه خطاياه، يُساد به سير السفينة براكبها).

فالغاية للأنسان ينبغى أن تكون دار السلام، ويحتاج فى حياته إلى التزود للسفر، وهو فى كدح وكبد ما لم ينته الى دار القرار كما قال تعالى ﴿ **يَا أَيُّهَا الإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلاقِيهِ** ﴾ .

إن الحكيم الأصفهانى يصور الإنسان فى حركة دائمة ساعياً نحو غايته، فهو على سفر، ومقصده الآخرة حيث تتحقق له السعادة الدائمة، فالحديث (**سافروا تغنموا**) يحث على التحريك الذى يثمر جنة المأوى ومصاحبة الملأ الأعلى ومجاورة الله تعالى وكلها أسمى الغايات ولكن الإنسان فى سعيه هذا يحتاج إلى خمسة أشياء: معرفة المعبود المشار إليه بقوله (**ففروا إلى الله**) ومعرفة الطريق المشار إليه ﴿ **قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ** ﴾ وتحصيل الزاد المتبلغ به المشار إليه بقوله ﴿ **وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ** ﴾، والمجاهدة فى الوصول كما قال تعالى ﴿ **وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ** ﴾ وبهذه الأشياء يأمن الإنسان الغرور الذى خوّفه الله تعالى منه فى قوله ﴿ **وَلا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ** ﴾ [(١)].

وهكذا عكف علماؤنا على نصوص الوحى تفسيرًا وتحليلاً، فنجحوا فى اجتياز حواجز العقل الوضعى وحدوده - وهى من أكبر آفات الثقافة الغربية المعاصرة - لكى يستمدّوا من عالم الغيب حقائق الحياة بشطريها: الدنيوية والأخروية.

فهل آن لنا الاسترشاد بتفسيراتهم لتنقذنا من الخضوع لآثار الغزو الثقافي؛ وآفة الفلسفة الوضعية التجريبية، وسجن الفكر المادى ؟

---

(١) (الراغب الأصفهانى: الذريعة إلى مكارم الشريعة) .

تقتضى الإجابة على هذا السؤال تحليلاً أوسع لطبيعة كلٍّ من العقلية الغيبيّة والعقلية العلمية:

ز - العقلية العلمية والعقلية الغيبية:

عرض الإمام حسن البنا لهذه القضية من منظور إسلامى يجمع بين التمكن من الفكر الإسلامى وبين معرفة اتجاهات الفلسفة الغربية الحديثة وتصوراتها للحياة والعالم والإنسان.

لقد عرضها بمنهج مقارن شارحاً العلاقة بين العقلية الغيبية والعقلية العلمية، مستعرضاً الأطوار الثلاثة من ألوان التفكير للعقل البشرى، داعياً إلى لونٍ من التفكير الجامع بين العقليتين الغيبية والعلمية حيث تجمعهما معاً العقائد الإسلامية.

ونحن نقتبس تحليله الدقيق بنصه خشية فقد بعض معانيه أو أفكاره. إنه كتب يقول:

[وقد تذبذب العقل البشرى منذ وجد الإنسان على ظهر الأرض إلى يومه هذا وأغلب الظن كذلك حتى تتداركه هداية من الله - بين أطوار ثلاثة ، وإن شئت قلت بين ألوان ثلاثة من ألوان التفكير والتصوير.

١- طور الخرافة والبساطة والتسليم المطلق للغيب المجهول والقوى الخفية البعيدة عنه. فهو ينسب إليها كل شئ ويفسر بها كل شئ. ولا يرى لنفسه معها عملاً ولا فكراً ما استبد هذا الطور بالإنسان، وأكثرهم لا يزالون يعيشون على هذا النحو إلى الآن.

٢- وطور الجمود والمادية والتنكر لهذا الغيب المجهول، والخروج على هذه القوى البعيدة عن حسّ الإنسان والتمرد على كل ما يتصل إليها بسبب، ومحاولة تفسير مظاهر الكون جميعاً محاولة مادية صرفه وفق قوانين تجريبية اهتدى إليها الإنسان بطول تجاربه ودوام بحثه وتفكيره .

وكثيراً ما طغى هذا التفكير على العـقل الإنسانى فى هذه العصور الحديثة، التى وصل فيهـا الإنسان إلى الكشف عن كثيـر من مجهولات الطبـيعة، وعرف فـيها الكثير من خواص الكائنات، فظن أنه واصل لا محـالة بهذا الأسلوب إلى معرفة ما هناك، وإن كان الذى يعـرفه بالنسبة إلى ما يجهله كالـذرة من الرمال فى الحياة الواسعة الفسيحة.

وفى هذا الدور أنكر الإنسان المادى الألوهيـة وما يتصل بها والنـبوات وما يمت إليها والآخـرة والجزاء والعالم الروحى بكل مـا فيه، ولم ير شيئـاً إلا هذا العالم الأدنى المحدود يفسر ظواهره بحسب قوانينه المادية الصرفة.

كلا هذيـن اللونين من ألوان التفكيـر خطأ صريح وغلو فـاحش وجهـالة من الانسان بما يحيط به، ولقد جاء الإسلام الحنيف يفصل القضـية فصلاً حقاً، فيقرر حق العـالم الروحى ويوضح صلة الإنسـان بالله رب الكائنات جمـيعـاً وبالحيـاة الآخرة بعد هذه الحـياة الدنيا، ويجعل الإيمان بالله أسـاس صلاح النفس التى هى من عالم الروح فعلاً والتى لا سبـيل إلى صلاحها إلا بهذا الإيمان، ويصف ذلك العالم الغـيبى المجهول وصـفاً يقربه إلى الأذهان ولا يتنافى مع بديهات الـعقول، وهو مع هذا يقرر فضل هذا العالم المادى وما فيه من خير للناس لو عمروه بالحق وانتـفعوا به فـى حدود الخيـر، ويدعو إلـى النظر السليم فى ملكوت السـموات والأرض، ويعتبـر هذا النظر أقرب إلى معرفة الله العلـى الكبير. هذا الموقف من الإسلام الحـنيف ألزم العقل البـشرى لوناً من ألوان التـفكير، هو أكـملها وأتمـها وأكثرها انطباقاً على واقع الحياة ومنطق الكون، وأعظمها نفعاً لبنى الإنسان: ذلك هو الجمع بين الإيمان بالغيب والانتفاع بالعـقل. فنحن نعيش فى عالمين فعلاً لا فى عالم واحد، ونحن عاجزون عن تفسير كثير من ظواهر الكون فعلاً، عاجزون عن إدراك كل الحقائق الأولية التى تحيط بنا. ونحن فى إدراكـها ننتقل من مجهول إلى

مجـهول حتى ينتهى بـنا العجز إلى الإقرار بعظـمة الله، ونحن نشعر من أعـماق قلوبنا بعاطفة الإيمان قـوية مشبوبة، لأن الإيمان من فطرة نفـوسنا وهو لها ضرورة من ضرورات حياتها كالغذاء والهواء والماء للأجسام سواء بسواء. ونحن بعد ذلك نلمس أن هذا المجتـمع الإنسانى لن يصلحه إلا اعـتقاد روحى يبـعث فى النفوس ومراقبة الله والتعزى بمعرفته، ومن هنا كان لازماً على الناس أن يعودوا إلى الإيمان بالله وبالنبوات وبالروح وبالحياة الآخرة، وبالجزاء فيها على الأعمال ﴿ **فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۞ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ** ﴾ الزلزلة.

كل هذا فى الوقت الذى يجب عليـهم فيـه أن يطلقوا لعـقولهم العنان لتـعلم وتعرف وتخـترع وتكتـشف وتسخر هذه المادة الصـماء وتنتفـع بما فى الوجودمن خيرات وميزات ﴿ **وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا** ﴾ وإلى هذا اللون من التفكير الذى يجمع بين العقليتين الغيبية والعلميـة ندعو الناس . لقد عاش الغرب أخريات أيامه مادى النزعة لا يشـعر بغيـر المادة ولا يعترف بغيـر المادة ولا يحس بوجود غيـرها حتى ماتت فى نفوس أبنائه عواطف الرحمة الإنسانية، وخبت أنواع الروحانية الربانية. وهيمن الغـرب على الدنيا بأسرها بعلومه ومـعارفه ومبـاهجه وزخارفه وكـشوفه ومختـرعاته وجنوده وأمواله، وصبغ الفكـر البشرى فى كل مكان بصبـغته هذه. والآن والدنيا كـلها تكتوى بهـذه النيران تنبـثق الدعوة من جـانب جديد لتـهيب بالناس فى الشـرق والغـرب مـعـاً أن يمزجوا المـادة بالروح، وأن يؤمنوا بالغـيب والشهـادة، وأن يتعرفـوا من جديد إلى الله ﴿ **فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ** ﴾ [الذاريات] [1] .

---

(١) (مجـموعـة رسائل الإمام الشـهيـد حسن البنا ص١١٠/١١١ط المؤسسـة الاسلامـية - بيروت بدون تاريخ) .

ج - الإيمان بالغيب وضرورته فى العصر الحديث :

ولكى نضع الأمـور فى نصابهـا فى قضـية الإيمان بالغـيبيـات التى يجـحدها الماركسيون والوضـعيون المعاصرون، فينبـغى توضيح أن المسلم الذى يؤمن بالغيب أكثـر علماً أولاً وأوسع آفاقـاً وأرحب تصوراً للوجـود وهو ثانياً أسعـد حالاً من الماركسـى أو الفيلسـوف الوضعى حـيث حبس كل منهـما نطاق مـعرفـته داخل التصورات المحسوسة المادية لأنه فى حقيقة الأمر **(رجعى)** بالمقياس الإسلامى لأنه حدّد معارفـه بنطاق قوانين مداركه المحدودة ومجالات الحس الضيـقة لا يتعداها، بينما المخلوقات أكبر وأعظم من أن تحيط بها العقـول، وتثبت الاكتشافات العلمية كل ما يبهر ويذهل يوماً بعد يوم .

أما المسلم، فقـد انفتحت أمامـه المعارف عن كل ما غاب عن حـسه من عالم الغيب واستمـدها من مصادر موثّقة بمنهج علمى دقيق، سواء كـان مصدره كتاب الله عز وجل أو سنة الرسول ﷺ ، ومن ثم تصـاغ حياته وفق عقائده ومـعارفه عن هذا العالم الغـيبى، لأنه علم بتفاصـيله منذ لحظات موته إلى مصيـره النهائى الذى تحدد وفق أعماله ويحاسب عليها بدقة متناهية ﴿ **فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ ۞ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ** ﴾ .

كذلك تتحقق له الحياة الطيبة عملياً فى ضوء إيمانه بالقدر على الوجه الصحيح فلا يهتز أمام الفواجع ، ولا تحطمه الكوارث ، بل يصير أمامها ويحتسب ويصمد كما تصـمد الشجرة الثابتة الجـذور أمام العواصف فربما تهتز وتتـمايل لقوة الرياح وسرعتها، ولكنها سرعان ما تعود إلى وضعها الثابت لأن الجذع ظل ثابتاً شامخاً.

ومن هنا يعرف المسلم أنه مـبتلى فى حيـاته الدنيوية المؤقتـة، فإذا صبر عليـها وأحتـسب، فسـرعان مـا تمضى وتتبـدل إلى حسنـات فى ميـزانه بالحيـاة الآخرة الخالدة، وهو يعلم أن الله تعالى سـيبدل عسره يسـراً، لذلك فإنه يتطلع دائماً إلى

المستقبل الأفضل، فتهون عليه مصائب الدنيا، لأن جنّة الله عز وجل غالية عالية.

ط ـ آثار الإيمان بالغيب على حياة الإنسان .

ونحن نأمل أيضاً فى إقناع الذين يربطون العقائد بآثارها ونتائجها ، فإن الإيمان بالغيب أيضاً له دوره وفاعليته وهو يدفع بالمؤمنين إلى تخطى عقبات وحواجز يظن (الوضعيون الحسيون) إنها أشبه بالمستحيلات !

لقد ظهر دور الإيمان بالغيبيات كأظهر ما يكون فى حياة الصحابة والمسلمين الأوائل، وتكرر بصورة متطابقة مع المسلمين الذى خاضوا المعارك تلو المعارك لهداية البشر وجعل كلمة الله هى العليا ، ولم يهزموا - كما يحكى لنا التاريخ - إلا بسبب المعاصى كما حدث فى موقعة أحد وهناك أمثلة فى واقعنا المعاصر أو بسبب القصور - وهما من صميم الطبيعة البشرية. يقول د/ فيليب حتى (إن الفاتحين الذين كانوا قد أصبحوا على بعد ألوف من الأميال عن مراكز إمدادهم، ثم لم يكونوا ذوى خبرة بالأرض التى يحاربون عليها، ولا كان فيهم الاستعداد لاحتمال هجمة الشتاء القارس وقف زحفهم وقوفاً طبيعياً، ثم قرروا الانسحاب ذلك كان نطاق الانتصار الذى هلل له المؤرخون الغربيون على انه إحدى المعارك الحاسمة فى التاريخ (موقعه شارل مارتل - وكان المسلمون بقيادة عبد الرحمن الغافقى) [1] .

ولا ننسى انتصار المجاهدين الأفغان فى السنوات الأخيرة على الظلم الروسى الرهيب حيث قاوموا ببسالة منقطعة النظير ما أراده الروس بالأفغان، حيث سعوا لإبادة شعب (ليزرعوا على أنقاضه مذهبهم الكافر غير الإنساني، ويزعمون مع ذلك أنهم دعاة عدل وحضارة وسلام) .

---

(١) (صـ ١٧٢ من كتابه (الإسلام منهج حياة) ترجمة د/ عمر فروخ ط دار العلم للملايين بيروت سنة ١٩٨٣) .

وهذا يتدرج بنا أيضاً إلى العامل الرئيسى والأول فى تعـليل الصحوة الإسلامية المعاصرة، وهو ما لا يقدره المراقبون والمحللون من غير المسلمين، وهو الإيمان بالله تعالى ومدى قوته ونفوذه وسلطانه على قـلوب المسلمين ونفوسهم، وشوقهم إلى الرجوع إلى ربهم عز وجل لأنه ناصرهم ومؤيدهم ورازقهم فضلاً عن أنه خالقهم ، لعله ينصرهم إذا استمسكوا بميثاقه وأطاعوه فـيما أمرهم به، وانتهوا عمَّا نهاهم عنه !

س - رسول الله ﷺ و الأسوة الحسنة فى كل العصور:

ويأتى مـسك الختام بـالحديث عن صلة اتبـاع الرسول صلى الله عليـه وسلم بالعصر الحديث، فنقول:

إن المسلمين كافة مطالبـون بالتأسى بالرسول ﷺ ﴿ **لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ** ﴾ على مدى العصور كلها حتى قيام السـاعة، وهو وحده الأسوة الحسـنة حياً وميتـاً، فلم تنقض سنته بموته، لأنهم مأمورون بطاعته طاعة مطلقة غير مقيدة بمكان أو زمان ﴿ **وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ** ﴾، ﴿ **قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ** ﴾.

ولا يتعارض ذلك مطلقـاً مع العصرية، لأن الاقتداء به يتصل بعـقائد الإنسان المسلم وعبـاداته وسلوكياته كإنـسان يحتاج إلى الأسـوة فى طريق اجتيازه لحـياته الدنيوية (فـالحوافز الإنسانية لم تزل نفـسها اليوم كـما كانت منذ فجـر الحضارة الإنسانية فالغرائز التى هى محور عمل الإنسان لم تزل باقية كما كانت بالرغم من أن مجال النشاط الإنسانى قد اتسع، وصفـات الإيثار والشرف والصدق والشجاعة المستحبة تنال من الاحترام اليوم ما كانت تناله منذ القدم) [1] .

وحسماً للمناقشة والجدل فى هذا الصدد، فإننا سنتحدث عن التجربة الشخصية

---

(١) (تفسير التاريخ - عبد الحميد صديقى) .

وأصدائها فى النفس فنقول وبالله التوفيق:

إننى عندما أتَّبعه - بأبى هو وأمى - فلا أظن ولا يخطر ببالى، ولا أشعر أننى أعود إلى ماضٍ بعيد أختار منه إنساناً أحاكيه ! فإن الذى يحدث بالضبط، هو أننى أتمثل سيرته بذاكرتى، وأجمع محبته فى قلبى وبين جوانحى، فأصلى عليه وأسلم، فيسهل على متابعته منقاداً طائعاً بغبطة وسعادة لأنه الهادى إلى الطريق المستقيم .

إن سيرته - ﷺ - كاملة شاملة، فلا أحتاج إلى غيره للاقتداء به ، لأنه أوضح كل ما يعن لى من حاجات حيث يدلنى فيما أريد معرفته والعمل به ، ابتداءً من العقيدة إلى العبادات والمعاملات والأخلاق (يقول القاضى عياض (ومن معجزاته الباهرة ما جمعه الله له من المعارف والعلوم، وخصه به من الاطلاع على جميع مصالح الدنيا والدين ومعرفته بأمور شرائعه وقوانين دينه وسياسة عباده ومصالح أمته وما كان فى الأمم قبله، وقصص الأنبياء والرسل والجبابرة والقرون الماضية من لدن آدم إلى زمنه وحفظ شرائعهم وكتبهم. . ومحاجاة كل امة من الكفرة ومعارضته كل فرقة من الكتابيين بما فى كتبهم وإعلامهم بأسرارها . . إلى تمهيد قواعد الشرع الذى لا تناقض فيه ولا تخاذل مع اشتمال شريعته على محاسن الأخلاق ومحامد الآداب وكل شئ مستحسن مفصل لم ينكر منه ملحد ذو عقل سليم شيئاً إلا من جهة الخذلان. . .الخ) [1]

إنه ﷺ يعلمنى كيف أعبد ربى عز وجل: أذكره فى كل الأحوال قائماً وقاعداً ، أصلى وأصوم وأزكى وأحج وأفعل الخيرات وأترك المنكرات. كيف أبيع وأشترى وأعامل الأهل والأولاد والأصدقاء، كيف أسعى لتحصيل الرزق، كيف

---

(١) (الشفا بتعريف حقوق المصطفى - ﷺ المجلد ٩٧ صـ ٢٩٦١ مكتبة دار التراث بالقاهرة نسخة مصورة من المطبعة العثمانية سنة ١٣١٢هـ) .

أتقبل صنوف الآلام بالصبر والرضا .

أما عن طلاب البحث عن ثمرة اتباع السنة فإنه من اليسير إقناعهم بالحكمة أيضاً.

فقد تفردت شخصية الرسول ﷺ باعتباره خاتم النبيين والقدوة الكاملة فى جوانب النشاط الإنسانى حيث عاش معه الصحابة حياة حقيقية واقعية قائمة على الاقتداء به والطاعة له ﷺ ، وللمسلمين بعدهم باتباع سنته القولية والعملية .

وكلما كان المسلم أقرب إلى اتباع سنته ﷺ كان إلى السعادة أقرب لأنه صلوات الله عليه يسلك طريقه فى الحياة وفقاً للوحي، وبعلم تام وحكمة شاملة للإنسان فى أحواله كلها ورسم الطريق السليم لاجتياز الحياة الدنيا بأفضل طريقة ممكنة على المستوى البشرى للناس.

ولتقريب معنى القدوة، وفهم دورها فى ضوء علم النفس ، نضع أمام القارئ رأياً لأحد علماء النفس المعاصرين حيث يرى أنه (**المثل الأعلى الصائب**) هو من الناحية السيكولجية، ذلك الذى يستطيع جلب التوافق للنفس، باجتذاب الانفعالات الغريزية جميعاً، وهو الذى باستثارة الإرادة إلى غرض مشترك أن يصيب الفرد باعتباره وحدة سيكولوجية فى قالب كائن حى وهو الذى يضمن تحقق الذات والسعادة، وذلك باشباع السعى إلى الاكتمال، إن حيازة مثل أعلى أو غرض فى الحياة لهى إذن أهم الأمور الضرورية للإرادة القوية والخلق المتزن [1] .

وكان الأستاذ محمد أسد (ليوبولد فايس قبل الإسلام) سباقاً ونفاذاً إلى قلب الحقيقة فى فهم وتقريب الحكمة من اتباع السنة للأذهان، ولشرح فكرته يرى أنه

(١) هافليد - علم النفس والأخلاق ص ١١٥ - ١١٦ ، ترجمة محمد عبد الحميد أبو العز وم ومراجعة د. عبد العزيز القوصى مكتبة مصر ، سنة ١٩٥٣ م .

ليس من المقبول أن يتساءل الجند عن أسباب وعلل الأوامر العسكرية بل عليهم تنفيذها فوراً بلا تردد وإلا أصبح أمر المعارك فوضى، فكذلك رسول ﷺ باعتباره أحسن قائد عرفته البشرية فى نواحى الحياة جميعاً الفردية والاجتماعية، النفسية والروحية بحيث يجب على المسلمين اتباعه والاقتداء به لأنهم أقروا بنبوته ﷺ فمن ضياع الجهد والوقت التساؤل فى كل موقف عن السر والحكمة .

ولكن قد تصبح سعادتنا غامرة إذا ما وقفنا على بعض أو كل الحكم من سنته عليه الصلاة والسلام، وما أدق تعبيره عندما يصف السنة بأنها (الهيكل الحديدى) للإسلام .

وهنا يرى أن هناك أسباباً ثلاثة تؤكد ضرورة اقامة السنة وتبين أطرافاً من حكمة اتباعها :

١- تمرين الإنسان بطريقة منظمة على أن يحيا دائماً فى حال من الوعى الداخلى واليقظة الشديدة وضبط النفس. وهذه مزية الاقتداء برسول ﷺ فى حركاته وسكناته. إن هذا الانضباط السلوكى وفقاً لسنته يؤدى إلى التخلص من الأعمال والعادات العفوية التى تعرقل النشاط الإنسانى عن التقدم، يقول محمد أسد (إن الأعمال والعادات التى تقوم عفو الساعة، تقوم فى طريق التقدم الروحى للإنسان كأنها حجارة عثرة فى طريق الجياد المتسابقة .

٢- تحقيق النفع الاجتماعى للمسلمين، لأنهم باتباع السنة (أى المنهج النبوى فى الحياة) تصبح عاداتهم وطباعهم متماثلة مهما كانت أحوالهم الاجتماعية والاقتصادية متنافرة .

٣- ضمان الهداية إلى الحياة الإنسانية الكاملة الكفيلة بتحقيق السعادة والحياة الطيبة لأنه ﷺ يعمل بوحى إلهى، وقد أرسل رحمة للعالمين وليس هادياً

من الهداة فحسب، ولكنه الهادى إلى طريق مستقيم .

وعلى هذا تصبح شخصيته - ﷺ - متغلغلة إلى حد بعيد فى منهاج حياتنا اليومية نفسه، ويكون نفوذه الروحى قد أصبح العامل الحقيقى الذى يقودنا طول الحياة .[1]

وما أحوجنا إلى اتباع سنة الرسول ﷺ لمقاومة الحملات المعادية المدروسة وفن أساليب علم النفس لصياغة الإنسان المسلم صياغة خاصة لتطويعه وإخضاعه لثقافة الغرب وطرق حياته [2].

يقول كارليل (إن كل فرد يملك القوة على تعديل طريقته فى فن الحياة ، وأن يفرض على نفسه أنظمة فسيولوجية وعقلية معينة. وعمل معين، وعادات معينة، كذا اكتساب السيطرة على بدنه وعقله، ولكنه إذا وقف وحيداً فلن يستطيع أن يقاوم بيئته المادية والعقلية والاقتصادية إلى مالا نهاية [3].

ولنا أن نفخر معشر المسلمين بسنة الرسول ﷺ التى تحقق لنا عند اتباعها - المحافظة على مقوّماتنا الذاتية وأصالتنا لمقاومة حملات الغزو الثقافى، بل من عوامل سعادتنا أيضاً أن (**نتدين**) ونتقرب إلى الله تعالى عندما نقتدى بنبينا عليه الصلاة والسلام ، ذلك لأن سنته من قبل الوحى الإلهى، وهو الأسوة الكاملة فى

---

(١) ينظر محمد أسد: (الإسلام على مفترق الطرق ص١١ ط دار العلم للملايين بيروت).

(٢) هذا الأسلوب الذى كان يتبع بواسطة إنشاء معاهد يمكن أن يشكل فيها الجسم والعقل طبقاً للقوانين الطبيعية حينما رأى الديكتاتوريون أن من المفيد تكييف الأطفال تبعاً لنظام معين (الكسيس كاريل : الإنسان ذلك المجهول ص ٣٢٤ . ترجمة شفيق أسعد فريد - مؤسسة المعارف بيروت .

(٣) نفسه ص ٣٣١ - ٣٣ .

تحقيق السعادة للإنسان بناء على معرفته له حق المعرفة، بينما عجزت البشرية حتى القرن العشــرين ، وسيكون ذلك حالها لأن المعــرفة الصحيحــة بالإنسان ينبغى أن تستمد من خارج نطاق العقل الإنسانى وتجاربه أى الوحى .





طرح البدائل

علي عزت بيجوفتش :

الإسلام بين الشرق والغرب

طرح البدائل

(علي بيجوفيتش : الإسلام بين الشرق والغرب) [(١)]

سنعرض فى هذا الفصل لبعض قضايا كتاب (الإسلام بين الشرق والغرب) للرئيس على بيجوفيتش، وهذا أفضل ما يقع عليه الاختيار لدراسته كنموذج للفكر الإسلامى بمستواه الرفيع المتفوق على الفلسفات والأيدولوجيات البشرية، والقادر على مواجهتها إذ كان مؤلفه حريصاً على حل مشكلة العالم الموزّع بين الكتلتين الشرقية والغربية حينذاك وحتى بعد انهيار الاتحاد السوفيتى تبقى قيمة الكتاب فى الموازنة بين التعارض الحاد بين النظريتين الدينية (المسيحية) والمادية فى العالم الغربى، وهو يتقدم بالفكر الإسلامى إسهاماً فى إيجاد الحل ، كما لم ينس أيضاً الحالة المتدهورةُ للعالم الإسلامى واقتراح ما يراه للنهوض به مرة أخرى .

ولابد لآراء بيجوفيتش واقتراحاته البنّاءة أن تأخذ مكانتها فى دائرة الفكر الإسلامى الحديث للدراسين والدعاة وحملة الأقلام والسّاسة، لأنها وليدة ذخيرة علمية وفيرة حصَّلها من دراسته الجامعية واستمدها من خبرته بالعمل فى المحاماة مع قراءات مكثفة فى علوم ومعارف مختلفة. وأيضاً خبرته السياسية التى اكتسبها من نظرات نقدية للفلسفة المادية والنظام الشيوعى الذى أخضع بلاده قهراً لعشرات السنين ، وكان يتوقع انهيار الاتحاد السوفيتى وفشل النظرية الماركسية وتهافت النظام بأكمله لأنه (يوتوبى) - أي قائم على الخيال ومستقى من الأحلام - وليس متوافقاً مع الكيان الإنسانى الواقعى الحىّ .

---

(١) ألقيتُ هذا البحث فى ندوة بعنوان (قراءة فى كتاب الإسلام بين الشرق والغرب لعلى عزت بيجوفيتش) بمركز الدراسات والبحوث الإسلامية - كلية دار العلوم . جامعة القاهرة يوم ٣٠ / ٤ / ١٩٩٥ م .

ومما يرفع من قدر آراء بيـجوفيـتش أنه عقب تهافت الماركـسية كفلسـفة ونظام سياسى واقتصادى، انبثقت فلسفـة أخرى مضادة تتبنى فكرة سيادة النظام الليبرالى وتتوقع اكتساحه العالم، لأنه انتصر فى مـعركة الحرب الباردة وقضى على خصمه فأثبت صلاحيـته للبشرية. وقد حمل لواء هذه الدعوة الـكاتب الأمريكى الجنسية اليابانى الأصل فرانسيس فوكوياما بكتابه **(نهاية التاريخ وخاتم البشر)** [١] .

ومع أن كـتـاب **(الإسـلام بين الشرق والغـرب)** قد كـتبه مؤلفـه قبل هذه الأحداث، إلا أنه عندما صاغ مقترحاته فـيما سماه (بالطريق الثالث) فكأنما كان يتضـمن الرد مسبـقاً على فـوكوياما لأنه لم يغـفل فى دراسته النـظام الديمقراطى الغربى أيضاً عندما قدّم الحل الإسلامى بمنظور واسع مزج فيه خبرته المعاشة لعلوم مقـارنة الأديان والتاريخ والسيـاسة والاجتـماع كما أسلفنـا، بل يتضح للدراسين لفحـوى الكتاب أن مـوضوعه الرئيـسى هو إثبات أن الإسلام هو الـطريق الثالث الذى يراه منقذاً للحضارة المعاصرة بدلاً من الشيوعية والليبرالية .

ويصف بيجوفيتش كتابه بأنه محاولة ترجمة الإسلام إلى اللغة التى يتحدث بها الجيل الجـديد ويفهمهـا فتراه يقدّم الإسـلام فى دائرته الشاملة الجامـعة فى تناسق بديع بين عقيدة التوحـيد وبيان حقيقة الإنسان والتفسيـر الصحيح للحياة والنظم، يتفوق على العـقائد والنظريات الفلسفية واليوتـوبية ، وحتى النظريات التى تلبس ثوب العلم ـ كالدارونية ـ وما هى بعلمية ! .

كما يعلن أنه مـجرد داعية إلى الله عز وجل فيقـول (طريقنا كسب الإنسان لا الاستيلاء على السلطة)[٢].

---

(١) ترجمه إلى العـربية الدكتور حسين أحمـد حسين، ونشره مركز الأهرام للترجـمة والنشر ١٤١٣ هـ - ١٩٨٣ م .

(٢) (الإسلام بين الشرق والغرب ص ٩٣ ، ٩٤) .

وينظر المؤلف للحضارة المعاصرة نظرة نقدية وبقلب مشفق عليها، فإنه لا يرفضها، بل يقترح عليها اجتياز (الطريق الثالث) ـ طريق الإسلام ـ لأنه ليس ديناً بالمفهوم الغربى، وإنما هو بصفة أساسية مبدأ تنظيم الكون (لقد وجد الإسلام قبل الإنسان)[1]، كما أنه بحسب تعريفه (أخذ رسمه من قوانينه ونظامه ومحرماته وجهود النفس والبدن التى يطالب الإنسان بها، وأيضاً من قوة النَّفس فى مواجهة محن الزمان)[2] .

كذلك يصرح بتواضع تام أن كتابه ليس مصدراً للتعلم، بل كنظرة على العالم، ويلفتنا إلى ضرورة تعلّم الدين أصولاً وفروعاً من علمائنا المتخصصين فى العقائد والتفسير والحديث والسيرة والفقه والأصول واللغة والتاريخ .

ويلمس القارىء من سطور الكتاب عزّة المؤمن بالرغم من دواعى الإحباط حوله بسبب عوامل الكبت والقهر، إذ يرتفع بهامته شامخاً ساخراً من الإلحاد الذى يدّعى العلم، وهو فى حقيقته جهل وهروب من مواجهة الحقائق والواقع .

ولتقييم دوره الثقافى فى مواجهة الأيدولوجيات والفلسفات الغربية، سنبدأ بعد التعريف بالمؤلف بعرض اقتراحات بعض فلاسفة التاريخ والحضارة فى الغرب كى يتضح لنا مدى توافقه مع آرائهم، وأنه كان يعانى من الأزمات الثقافية والأخلاقية نفسها، وعندما قدّم الحل الدينى لم يكن شاذاً فى موقفه، بل كان أكثر إقناعاً مزوداً بدروس مستفادة من التجارب البشرية، ومتسلّحاً بأدلة دينية وأخلاقية وتاريخية وواضحاً فى عرضه للفكر الإسلامى الجامع بين جناحيه لثنائية الروح والمادة .

وسنلخص مادة البحث عبر النقاط الآتية : ـ

- كلمات عن المؤلف
- حضارة الغرب فى ضوء التفسير التاريخى .

(١) - (٢) الإسلام بين الشرق والغرب ٩٣, ٩٤ .

- واقع العالم الإسلامى وانتشاله من التردى الحالى .
- انحدار المستوى الإنسانى (الإنسان المبرمج) .
- أصل الإنسان .
- نحو الطريق الثالث فى ضوء التجارب البشرية .

١ - كلمات عن المؤلف :

اسم المؤلف : على عـزت بيـجـوفـيـتش، ولد سنة ١٩٢٥م، درس القـانون والآداب والعلوم ، وكان من أعضـاء حركة الشبان المسلمـين، حكم عليه بخمس سنوات ، أول كتاب له صدر بعنوان (الإعـلان - أو البيان الإسلامى) ، بدأ فى نشره على حلقات ١٩٧٠ ثم عكف على الكتاب الذى بين أيدينا .

حوكم فى أغسطس ١٩٨٣م محاكمة سريعة شبه سرية بسبب كتابه الأول بتهمة الدعـوة الى الجهـاد المقدس وإقـامة دولة إسـلاميـة فى قلب أوروبا، حكم عليـه بالسجن مع أحد عشر من زملائه أربعة عشـر عاماً، وعندئذ لم يستطع إنهاء كتابه (الإسلام بين الشرق والغرب) وكان قد أوشك على ذلك، ولكن استطاع صديقه حـسن قرش تهـريب أصـول الكتـاب إلى كندا سنة ١٩٨٣م ونشـر بأمريكا عـام ١٩٨٤، ثم أعيُد طبعه ١٩٨٩، وهو أشهـر من أن نعرّفه ولكن مما يتصل بموضوع بحثنا إبراز بعض الوقائع التى تفسّر لنا الكثيـر من النصوص، تساعد على فهم ما بين السطور، أو - حسب مصطلحه - الحياة الجوانيّة :

لقد استمد ثقافـته العلمية والقانونية من الجامعة. أمـا العلوم الدينية فقد تلقاها على يد شيخه العالم المحدِّث محمد خانجى (والذى تخرج فى جامع الأزهر قبل الحرب العالمية الثانية وهو مؤسس جمعية العلماء « الهداية » ، والتى كان لها الأثر الأكبر فى توعية المسلمين . . قتله الشـيوعيون عام ١٩٤٦م أثناء عملية توفى على

أثرها فى ظروف غامضة) [1] .

أما البيان الإسلامى الذى كان سبب محاكمته وهو الذى يتضمن نهجه فى إقامة الدولة الإسلامية، فإنه يحتوى على مقدمة وثلاثة أبواب ؛ محدّداً المنهج بأنه واحد للإمام المسلم والشعب المسلم ومبيّناً الهدف بأنه عودة المسلمين إلى إسلامهم تحت شعار الإيمان والجهاد .

ولا ينحصر الهدف فى بلده وحدها ـ ولو فعل ذلك لكان معذوراً ـ بل يذهب إلى إقامة مجتمع إسلامى موحد من المغرب إلى أندونيسيا، ويوجه نداءه إلى المسلمين قاطبة بقوله (قد يبدو الهدف الذى نصبو إليه بعيد المنال لكنه واقعى وحقيقة، لأنه بحد ذاته يقع ضمن البعد الممكن التحقق على النقيض من الأفكار المماثلة غير الإسلامية التى هى طوباوية وخيالية، ورغم ذلك يجرى العمل لتحقيقها)، وهو يقدح بذلك النظام الشيوعى الذى اعتبره طوباويا وألحقه بجمهورية أفلاطون الخيالية كما نص على ذلك بكتابه (الإسلام بين الشرق والغرب) [2] .

---

(١) من مقال بعنوان بدء وتشكيل إدارة المسلمين الدينية المعاصرة فى الدول اليوغسلافية ـ بقلم كارتيتش ـ منشورة بكتاب (البوسنة والهرسك ـ قصة شعب مسلم يواجه العدوان) وكالة الأنباء الإسلامية ـ ابنا ـ ط دار الاعتصام ١٤١٤ هـ ـ ١٩٩٤م ـ صـ ٧٢ ,

(٢) نشر الدكتور محمد حرب مقتطفات من البيان نقلاً عن جريدة الحياة الدولية (العربية) التى تصدر فى لندن فى عددها ١٠٨١٢ ـ ١٦ سبتمبر ١٩٩٢ ربيع الأول ١٤١٣ هـ .

ينظر كتاب (البوسنة والهرسك من الفتح إلى الكارثة صـ ٨٦ ـ ١٠٠) ط المركز المصرى للدراسات العثمانية وبحوث العالم التركى بالقاهرة ١٤١٣ هـ ـ ١٩٩٣ م

جاء في تعليق مجلة (منبر الشرق) - رجب ١٤١٤هـ يناير سنة ١٩٩٤م على البيان ما يلى:

{ ويلاحظ أن البيان الإسلامي الذي كتبه على عزت سنة ١٩٧٠ قد حلل أوضاع المسلمين في العالم عموما، ووضع التصور لأسباب تخلفهم وطرق الخروج إلى الوحدة والنهضة.

وأن هذا البيان لم يكن خاصا بيوغوسلافيا أوالبلقان أو البوسنة والهرسك فقط. وهكذا فإن على عزت بيجوفيتش ليس مفكراً قوميا أو محلياً. بل مفكرًا أمميًا إسلامياً من الطراز الأول.

٢ ـ حضارة الغرب فى ضوء التفسير التاريخى :

إن قضية القلق على الحضارة الغـربية والإشفاق من تدهورها ومحاولات وضع خطط لإنقاذها، هذه القضية ليست بنت الساعـة ولكنها تفجرت منذ ظهور كتاب إدوارد جيبون (**قيام الدولة الرومانية وسقوطها**) إذ رأى أن الفترات السعيدة ـ أو الذهبية ـ فى تاريخ الإنسـانية قليلة بل نادرة والسبب الأكبـر فى الفساد يكمن فى ضـعف الإنسـان وما ركّب فى طبـعـه من الرذائل. وقـال إن الدول - كـبيـرها وصغيرها - إذا قـامت وبلغت أوجها عادت فسقطت فى وقت محسـوب. وأعتُبر جيبون بذلك متشائماً، وقـد ترك كتابه أثراً فى قرائه لما يثيره فى النفوس من غرور الأباطرة وما أنزلوه بأهل البـلاد المفتوحـة من أذى وظلم، ويجعل الإنسان يشـعر شعوراً عـميقاً بأن الإنسـانية مريضة حـقاً أو أنها فى حاجـة إلى علاج، وأن هذا العلاج إنما هو فى الصدق والـعقل والإيمان فهل نعد جيـبون ممن يرون أن العلاج فى الدين ؟

ربما يميل الدكتور حسين مؤنس لهذا الرأى إذ يحكم على جيبون بأنه رغم حرية فكره وما أبداه من آراء فى الكنيسة ورجالها، فقد كان كاثوليكياً عميق الإيمان [1].

وجاء كـتاب (انحدار الغـرب) لشبنجلر بمثـابة إنذار ألقى فى القلوب الرعب لأنه تنبـأ بنهـاية الحـضـارة الوشيك، وبـنى رأيه على فكرة العـمـر الزمنى لكل حضـارة، محدداً إياه بألف سنة، كـما يقدر عـمر الإنسان بسـبعين سنة، ولذلك فالقرنان التاسع عـشر والعشرون اللذان يعتبـران إلى وقت تأليف كتابه أعلى نقطة فى خط صاعـد مستقـيم فى تاريخ العالم إنما هو فى الحـقيقة مـرحلة من مراحل الحياة يمكن ملاحظتها فى تاريخ أى حضـارة بلغت نضجها ثم لا مفر من النهاية. فإذا كانت حضارة الغرب حسب تحديده قـد بدأت فى القرن العاشر الميلادى، فقد

(١) للدكتور حسين مؤنس ـ عالم المعرفة / الكويت محرم ١٣٩٨هـ ـ يناير ١٩٧٨م

انقضى مـعظم عمرها فى القرن التـاسع عشر، مؤكـداً حتمية تدهورهـا وهلاكها المرتقب فى المسـتقبل المنظـور. ويبدو ان بعض معـاصريه حـاولوا التخـفيف من توقعاته بالتشبث بالعقل لأنه أسـاس كل تقدم وإنشاء وابتكار، ولكنه لم يشاركهم هذا الرأى، بل كان يرى أن هذا العقـل نفسه هو الذى يقود حضـارة الغرب كلها إلى الدمـــار[١] وشاركه آخرون بل ذهبـوا إلى أن الإنسان لا يقنع بالعقل فى كل حالة، وإنما لا بد من التـخويف واستـعمال العنف لاحـداث أى تحول اجتـماعى واسع المدى، وكان لينين ممن تأثروا بهذا الرأى .

أما تويـنبى ـ صاحب أشـمل دراسة تاريخـية للحـضارات صـاغها فى قـالب نظريات أو قوانين ـ فـقد أزعجـته أيضاً آراء شـبنجلر وأخذ فى الدراسة واقـترح الحلول، وفى مقدمتها الحل الدينى .

ومن رأيه أنه ربما يقع طريق النجاة فى السياسة بتحقيق حكومة عالمية مركزية أو تحقيق المشروعـات الفردية فى الاقتصاد، ولكن ينبغى فى الحيـاة الروحانية أن نقيم البناء الدنيـوى الخـارجى على أسس من الـدين، وليس من شك فى أن الهـدف الدينى من بين الأهداف الثلاثة أهمها جميعاً فى النهاية [٢] .

ويشرح الدكـتور حـسين مؤنس مـوقف توينبى من الدين فيـبين أن إيمانه قليل بقدرة العقل وشكّه أنه كفيل بتوجيه الإنسان فى الطريق السليم، ويميل فى تفسيره للتاريخ إلى الإيمان بالله الـقادر المصرّف للأمـور، أى أنه يرى أن الإيمان بأن أمور هذه الدنيا بين يدي خالق مدبر، يضع الإنسانية فى الطريق السليم [٣] .

---

(١) نفسه ٣٤٦ / ٣٤٧ .

(٢)أدريين كـوخ : آراء فى أزمة العـصر صـ ٩٠ / ٩١ ـ مكتـبة الانجلو المصـرية بالاشـتراك مع مؤسسة فرانكلين ـ نيويورك ترجمة محمود محمد ـ القاهرة ١٩٦٣ م .

(٣) الحضارة صـ ٣٥٥ ,

وبين هذه النظـريات التى ترى الإنقـاذ فى الحل الديـنى، أين نضع نـظـريـة **بيجوفيتش ؟**

أثبت أولاً اضطراب التفسـيرات المادية للتاريخ إذ من السخرية ظهـور الحركات الشيوعية نفسها بطريقة ضـد النظرية المادية إذ لم تحدث الانقلابات الشيوعية حيث ينبغى أن تحـدث ـ أى فى المجتمعـات الصناعية ـ ولم تنجح الحـركات الشيوعـية بسبب ظروف موضـوعية، بل بسبب عناصـر شخصية ـ أى ظهـور حزب شوعى قوى أو بتدخل من قوة أجنبية (١) ! .

ويرى أيضاً أن التـأثير الإنسانى على مـجرى التاريخ يتـوقف على قوة الإرادة والوعى، وكلما عظمت القـوة الروحية للمشـاركة فى الأحداث التاريخـية، كلما عظم الاستقلال عن القوانين الخارجية والعكس صحيح .

إن هذه النظرة الإسلامية ترفض الحـتمية التاريخية كما ترفض أى مـثالية فارغة لا جذور لها فى الواقع (٢) .

٣ ـ واقع العالم الإسلامى وانتشاله من التردى :

وتتضح نظرته المتفائلة بالرغم من الصعوبات التى تواجهها الأمة الإسلامية حتى لا تستسلم للواقع، لأن الإسلام يجتهد فى تنظيم العالم عن طريق التنشئة والتعليم والقوانين التى شرعها، ومع مراعاة الأوضاع التى ننغـمس فيها مهما كانت؛ فعلينا

---

(١) صـ ٣٥٦ من كتابه « الإسلام بين الشرق والغرب»، الناشران مجلة النور الكويتية الكويت توزيع : دار الشروق بالقـاهرة ، مؤسسة بافاريا للنشـر والإعلام والخدمات بألمانيـا ترجمة محمد يوسف عدس للنسخة الإنجليزية رجب ١٤١٤ هـ / يناير ١٩٩٤ م .

(٢) ينظر البيـان الإسلامى بكتاب البـوسنة والهرسك من الفتح إلى الكارثـة للدكتور محـمد حرب، وهو يتـضمن خطة عمل ورؤية سيـاسية شـاملة للعالم الإسلامى بواقعـه الحالى ـ أخذاً بيده إلى المستقبل الأفضل .

تغييرها وبذل الجهد لتحسين كل شىء فى هذا العالم بقدر استطاعتنا ، وفى الوقت نفسه الاعتراف بالقدر لأنه اعتراف بالحياة على ما هى عليه .

وتتضح نظرته الإسلامية المرتبطة بالواقع عندما يعلل هزائم الأمة فى العصر الحاضر، فيرجعها الى تفتيت وحدة الأمة بفكرة القومية وهى فكرة دخيلة أجنبية، وبُعد المسلمين عن الإسلام وعدم الاستغلال الإسلامى الصحيح للقدرات الإسلامية فى البلدان الإسلامية؛ ثم يوضح الطريق الصحيح للانبعاث الإسلامى الذى يشترط له أمرين :

الأول : تنفيذ قوله تعالى ﴿ **إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ** ﴾ .

الثانى : اتباع النموذج القانونى الاجتماعى الإسلامى فى تجربة الإسلام الأولى، وكفاح الرسول ﷺ .

أجل لقد كانت الحياة الإسلامية مجسّدة فى حياة النبى ﷺ ، فبرهن على أن الإسلام وحدة طبيعية: من الحب والقوة، المتسامى والواقعى، الروحى والبشرى .

هذا المركّب المتفّجر حيوية من الدين والسياسة يبث قوة هائلة فى حياة الشعوب التى احتضنت الإسلام فى لحظة واحدة يتطابق بعد الإسلام مع جوهر الحياة [١] .

ويرى أن الصحوة الدينية أساس التقدم فى العالم الإسلامى (٢) .

٤ ـ انحدار المستوى الإنسانى (الإنسان المبرمج) :

وضع المؤلف الفاضل أمامنا صوراً تدعو إلى التفاؤل بمستقبل الإنسان مسجلاً الخطوات التى خطاها العلماء التى تبشر بمستقبل زاهر، منها ما ذهب إليه (جان روستاند) من إمكان استخدام مواد وراثية من أناس بالغى الذكاء، وإذا نجح العلماء فى إنتاج أناس بطريقة صناعية ، فإن احتمالات جديدة لا حدود لها

---

(١) الإسلام بين الشرق والغرب صـ ٣٤ . (٢) نفس المصدر صـ ٣٧٣ ,

ستظهـر فى حياتنا بـحيث يستطيع كل إنســان أن يحصل على طفل مـصمم وفق رغبته !

وبتحليل الإحصائيات عن إمكان تقليل ساعات النوم وتقصير أسبوع العمل الى ٣٠ ساعة، وتخفـيض العمل السنوى إلى تسعة أشهر فـقط، والزيادة المستمرة فى سلع الرفاهية ومواد الزينة . . . الخ .

بعد هذه الرؤية المتفائلة يصح التساؤل : هل يعنى أن الحياة ستكون أسعد وأكثر إنسانية ؟

وتأتى الاجابة بالنفى، بل بـنتائج مزعجـة ومثيـرة للخوف والقلق، إذ تبين أن عدد الجرائم آخذ فى الازدياد فى القارة الأمريكـية والبلاد الأوربية مما جعل علماء الجـريمة فى المؤتمر الدولى الســابع يعـتـرفون بـأن (كوكـبنا هذا هو مـحـيط من الجانحين، فالناس جميعاً بشكل أو بآخر، لديهم نزعة الجنوح وأنه لا يوجد امامنا مخرج من هذه الكارثة) [١] .

أضف إلى ذلك مشكلة إدمان الكحول والهروين والغزو البشع للأدب الإباحى الذى فسّـره طبيب النفس الفرنـسى الشهيـر « بلانشاور » بأنه سبب الأيدولوجـية المسيطرة الـتى تكبت الشخصـية وفق حـياة آلية (نوم ـ قطار ـ عـمل)، فتـحرم الإنسان من الخبرة والإثارة الحقيقيين فـيحتاج الناس غريزياً الى الهرب من أنفسهم ليجربوا أنواعاً من الإثارة الرخيصة [٢] .

وفى أعقاب الحرب الـعالمية الثانية ظهر جـيل بائس من الشباب يملك كل شيء ولكن يعوزه كل شيء، الوجوديون الجيـل المهزوم ، وقام الكاتب الأمريكى (آرثر ميللر) بتحليل هذه المشكلة بأنها نتائج التكنولوجية التى دمرت الإنسان كقيمة فى ذاته إذا اندثرت الروح وتلاشت [٣] .

---

(١) الإسلام بين الشرق والغرب . (٢) نفسه صـ ١١٩ / ١٢٠ .
(٣) الإسلام بين الشرق والغرب . صـ ١٢١ .

وهناك ظاهرة أخرى مدمِّرة إذ نرى فى جميع الدول المتحضرة ركوداً وانخفاضاً فى نسبة المواليد، راجعا إلى وضع الأمهات أو الرغبة فى الانطلاق فى حياة إنسانية بدون التزامات، وهى نتيجة مباشرة لغياب التوجيهات الدينية والثقافية[1].

٥ ـ أصل الإنسان :

يقرر مؤلف الكتاب أن قضية أصل الإنسان هى حجر الزاوية لكل أفكار العالم، والاختلاف الجذرى بين الماديين وغيرهم، ووجه النقص فى تعريف الماديين للإنسان هو اقتصارهم على النمو البيولوجى دون النمو الروحى، بينما الحقيقة الكامنة أن الإنسان ليس مجرد مجموع الوظائف البيولوجية المختلفة ويضرب الأمثلة التى تقرّب المفاهيم الصحيحة عن الإنسان بإعتباره جامعاً بين البدن والروح:

إن اللوحة الفنية لا يمكن تحليلها إلى كمية الألوان المستخدمة فيها ، وإذا قارنا بين المسجد والمعسكر الحربى، فكلاهما مبنىّ من أحجار وأملاط وأعمدة خشبية ولكن يبقى لكل منهما حقيقته الخاصة المخالفة للأخرى . كذلك القصيدة فى الشعر فإنها تحتوى على كلمات قليلة من كلمات القاموس ولكن القاموس يفتقر إلى حبكة القصيدة .

وإذا انتقلنا لعالم الإنسان والعلوم التى تحاول معرفة حقيقته كعلم الحفريات وعلم هيئة الإنسان وعلم النفس، فهى كلها تصف الجانب الخارجى الآلى من الإنسان الذى لا معنى له، ولكن الإنسان مثله كمثل اللوحة والمسجد والقصيدة أكثر من مجرد كمية ونوعية المادة التى تكوّنه .

إن التصور يصدق فقط بالنسبة لتاريخ الإنسان البشرى الخارجى، ولا يصدق فى معرفة حقيقة الإنسان :

---

(١) نفسه صـ ,٢٦٣

وعندئذ يستند المؤلف الفاضل إلى الصور المتعددة للتضحيات البشرية فى التاريخ كما سجلها ويلزم فى كتابه (مختصر تاريخ العالم) فإن التضحيات البشرية من سمات الإنسان ، فالمصلحة حيوانية أما التضحية فهى إنسانية : المصلحة إحدى الأفكار الأساسية فى السياسة والاقتصاد السيساسى ، أما التضحية فهى أحد المبادىء الرئيسية فى الدين والأخلاق .

ومن الخطأ أيضاً الزعم بأن الإنسان ينفرد بالذكاء ، فقد جمعت مادة علمية غزيرة عن كيف أن النحل والأوز والقرود تستقبل وترسل معلومات مختلفة من خلال الحوار أو التمثيل الحركى .

ويرى بيجوفيتش أن الفرق الحاسم بين الإنسان والحيوان ليس شيئاً جسمياً ولا عقلياً، إنه فوق كل شىء أنه أمر روحى يكشف عن نفسه، عن وجود ضمير دينى أو أخلاقى أو فنى، والإنسان وحده دائم التعبير عن مخاوفه وإحباطاته من خلال الدين ـ لماذا ؟ ومن أى شىء يبحث الإنسان عن الخلاص ؟

هذا بينما فى أكثر الحيوانات تصوراً لا نستطع أن نجد أدنى أثر لعبادات أو محرمات بينما نجد أن الإنسان حيثما ظهر يظهر معه الدين والفن .

كذلك فإن ظاهرة الحياة الجوّانية أو التطلع إلى السماء ـ وهى ظاهرة ملازمة للإنسان غريبة عن الحيوان ـ هذه الظاهرة تظل مستعصية على أى تفسير منطقى، ويبدو أنها نزلت من السماء (نزولاً حرفياً) ولأنها ليست نتاجاً للتطور، فإنما تقف متعالية عنه، مفارقة له. إن نظرية التطور لم تستطع أن تفسر بطريقة مقنعة ظهور التدين فى الحياة البشرية. كما أن الحيوانات ليست لديها فكرة عن المقدس أو الشر فإنها لا تعلم شيئاً عن الجمال .

كذلك فإن اختلاف الإنسان عن الحيوان يشاهد أيضاً فى تمرد الإنسان، فالحيوان لا يتمرد على مصيره الحيوانى، الإنسان وحده هو الذى يتمرد وهذا التمرد فى جوهره إنسانى .

لذلك كله فإن يمكن تشـبيه إنسان (دارون) ذو البعـد الواحد الذى يكافح من أجل البقاء، إشباع حاجاته من أجل عالم وظيفى، يمكن تشبيهه بعالم (نيوتن) فى الكون[1]، لكن أينشتين هدم (وهم) نيوتن، كما أن الفلسفة التشاؤمية وإخفاق الحضـارة يفعل نفسـه بصورة الإنسان الدارونـى، لقد انحدرت الإنسـانية نتيـجة التصور المادى للإنسان ولم ترق .

وبتواضع جم، يصرّح المؤلف أنه ليس من علماء البيولوجيا، ولهذا فانه يتحفنا باقتـباسات من كـتبـهم التى تصرّح بالحيـرة البالغة أمـام ظواهر الحيـاة، إذ يقول أحدهم حتى الآن، لانعرف على وجه التحديد ماهية الحياة. نحن لا نستطيع حتى أن نقدّم تعريفاً كاملاً دقيقاً لظاهرة الحياة [2] .

ويقول عـالم آخر (إننا لا نستطيع أن نفـسِّر الحيـاة من خلال معـرفتنا الراهنة لعلميّ الكيميـاء والطبيعة) وبعد اقتـباسات أخرى تدل على العجز عـن اكتشاف القـانون المنظم لحيـاة الانسان النفـسيـة، والعجـز عن الوصول إلى أسـرار تنظيم أجسامنا من حـيث تغذيتها وطاقـتها العصبـية والروحية، ويقـرر المؤلف أن الحياة معجـزة أكثر منها ظاهرة ثم يفصِّل الحـديث عن أعضاء الإنسان وأدائهـا لوظائفها

---

(١) سيطرت الميكانيكا التـقليدية وناموس الجـاذبية من وضع نيوتن فى كتـابة (المبادئ) زهاء قرنين من الزمن . . ثم تبين أن الفروض الأساسية فيها ليـست صحيحة. ونتائجها رغم ما يبدو عليـها من الدقة تظـل تقريبيـة. ثم حلت محلها نظرية الـنسبيـة وانطلقت من فروق جديدة كل الجـدة، قد تلتقى نـتائجهـا العامة مع الميكانيكا التـقليدية فى نطاق السـرعات الضعيفة كسرعات السيارات والعربات، ولكنها ما إن تتجاوز هذه النطاق حتى تتفوق عليها تفوقـاً لا مثيل له عندما يتطلب الأمـر أرقاماً كثـيرة وذيولاً رياضية طويلة . . مـثال ذلك كالأرض. فهى مسطحة إذا اقتصرنا على بقعة محددة منه، ولكننا إذا نظرنا إليها ككل فهى كروية، فـالصورة الثانـية أدق من الأولى، والأولى تلتقى مع الثـانية فى نطاق المسـاحات المحددة .

(٢) الإسلام بين الشرق والغرب ص٧١ وما بعدها .

ولم يخرج المؤلف عن طرق علمائنا السابقين فى هذا السبيل الذى سلكه قبله أمثال الإمامين الغزالى وابن القيم فى نظراتهم التشريحية للإنسان كآيات الله عز وجل ثم يطرح السؤال المناسب بعد العرض التفصيلى لهذه الآيات الباهرة التى يفسرّها الدين بأنها من خلق الله عز وجل { أليست هذه أكبر خرافة غذت عقل الانسان، أن تطلب من شخص ما أن يتقبل عقله أن شيئاً على درجة من الكمال والتعقيد كعين الإنسان أو عقله قد وجُد بمحض الصدفة ؟

يشبه أن تطلب من شخص أن نقبل بأن الأساطير الإغريقية حقائق واقعة}[1] .

ومما يدحض زعم الصدفة أو الاحتمال قول العالم الروسى (بلاندين): لو أن مليون معمل فى الأرض عملت لبضعة ملايين من السنين فى تركيب العناصر الكيماوية ، فإن احتمال خلق حياة فى أنبوبة اختبار ستكون شيئاً نادراً . . . فالفرصة هى (١ الى ١٣١٠) طبقاً لحساب هولدن [2] .

ثم يعلق المؤلف بقوله (هذا هو الأمر بالنسبة للتنظيم الذاتى لجزىء واحد من البروتين إذا قورن بكائن حى، فإنه يشبه طوبة إذا قورنت بمبنى كامل)[3] .

وبعد ذلك ينتقل إلى مواجهة ازدواجية العالم الحى فى التسلسل. إنه هنا يواجه مرة أخرى التعارض نفسه الذى وجده بين الحيوان والإنسان، ولكن على مستوى أقل درجة، أى على مستوى المادة فى مقابل الحياة، ولأول وهلة يظن القارىء انه موضوع جديد، ولكن لا يلبث أن يكتشف اتصاله بما سبق، لأنه يهدف للوصول إلى تأكيد فكرة الخلق [4]، ويقدم الدليل على أن التطور لا يتقدم بطريقة عمياء أو آلية كما ظن دارون .

ولهذا أسس بيجوفيتش اقتراحاته على إحلال حقيقة الإنسان بلحمه ودمه

(١ ، ٢) الإسلام بين الشرق والغرب . (٣) الإسلام بين الشرق والغرب .

(٤) الإسلام بين الشرق والغرب صـ ٧٤ ,

وروحه بدلاً من إنسان دارون، والعناية بالتنشئة والتربية قبل التمرين والإعداد ، وتعديل نظم التعليم وفق أوليّات حاجات الإنسان، وإعلاء القيم الأخلاقية العالمية بدل المصلحية والنفعية .

وهذه الاقتراحات من شأنها ـ لو نفذّت ـ منْع الحضارة من التدهور .

٤ ـ نحو الطريق الثالث فى ضوء التجارب البشرية :

يرى بيجوفيتش أن أوروبا بَنَتْ أفكارها منذ العصور الوسطى فى إطار الاختيارات المسيحية :

إما مملكة الرب وإما مملكة الأرض، الدين أو العلم، الكنيسة أو الدولة .

أما التوفيق بينهما فقد وجد حلاً عند فلاسفة الإنجليز فيما سمّاه (الطريق الثالث) بين طرفين متعارضين .

أنه يرى أن نجاح الفلسفة التجريبية فى ذاته يحقق انتصار الفكرة الإسلامية القائمة على التوفيق بين الروح والمادة أو بعبارة أخرى فإن التجارب البشرية فى مجالئ الفكر والواقع تعطى للإسلام دفعة تفوّق ظاهرة .

ويعلل منهج بيكون هذا بأنه كان تلميذاً مخلصاً للثقافة العربية الإسلامية إذ تأثر تأثراً قوياً بالمفكرين المسلمين وعلى الأخص (ابن سينا) الذى اعتبره بيكون أعظم فيلسوف ظهر بعد أرسطو .

وما زالت انجلترا مخلصة لهذا الوضع الفكرى بدليل ما تميزت به شخصية (برنارد شو) [١] الذى كان يدعو إلى الاشتراكية وإلى الحرية الفردية فى آن واحد.

---

(١) يضيف برنارد شو حضارة الإسلام بترابط أجزائها وتماسك أطرافها تحمل فى طيّاتها عقيدة ومع أن الإسلام (يقصد المسلمين) فقد سيطرته على بعض الأشياء المادية، لا سيما ما يتصل بالحرب، ولم يلحق بالتقدم التكنولوجى الحديث، إلا أنه بإمكانه تعويض ما فاته بتوجيه الخبرات إلى تحصيل العلوم الهندسية الجديدة. وفى المقابل، فإن الحضارة الغربية ذات منزلة رفيعة فى التقدم التكنولوجي، ولكن فقدت التعاليم الروحية، بينما لم يزل الإسلام يحافظ عليها » .
(الاسلام قوة الغد العالمية ص ٢٢٣ نقلا عن مقال د/ محمد شامه بمجلة الأزهر - جمادى الأول ١٣٩٩هـ ١٩٧٩م) .

وامتـد أثر بيكون بمنهـجه التـوفيـقى إلى عدد من المفكرين الانجـليز ، أمـثال شافتسبرى الذى وصف الأخـلاق فى حالة من التوازن بين الأنانية والغريزية وأمل فى التوفيق بين الفرد والمجتمع، كما أصـبحت العلاقة الوثيقة بين الفلسفة والدين خصوصية من خصوصيات (مدينة كامبريدج) .

ومن أشهر أصحـاب الطريق الوسط أيضاً آدم سميث الذى ألّف كتـابين بينهما تناقض ظاهر ولكنهما متكاملان من حيث المضمون :

أحدهما: نظرية المشاعر الأخلاقية **والثانى:** وأسباب ثروة الأمم الذى تناول الاقتصاد ويتخذ لفكرته الرئيسية مبدأ الأنانية .

ومما يزيل شبهة التناقض أيضاً أن (سميث) كان أستاذاً فى جامعة (جلاسجو) يدرس الأخـلاق والاقتـصاد والسـياسـة كأجـزاء من برنامج دراسى مـتكامل فى الفلسفة .

ولم يخل أيضـاً التطبـيق للـنظام الاشـتراكى الانجـليزى مـن ظاهرة (الطريق الثالث) إذ ارتبطت الاشتـراكية فى أوروبا ارتباطاً وثيقاً بالفلسـفة المادية والإلحادية بينما نسـمع من منصّة حزب العمال البريطانى مـقتبسات من الكتاب المقدس مثلما نسمعها من منبر الكنيسة هناك .

جهاد المسلمين في مواجهة الماركسية :

ولم يكن الرئيس علي عـزت بيجوفـيتش الذي قـام وحده بدرء الماركسـية، ثقافـياً وفلسـفياً وسـياسيـاً - وإن احتَلَّ المكانة الأولى - فـإن هناك أيضاً أدباء وشعراء قامـوا بالجهاد الثقافي لدرء فتنة الإلحاد الماركـسي في بلاد آسيا الوسطى الإسـلاميـة ودول البلقان مـعبـرين بأعـمالهم على عـمق التـديُّن في القلوب فاستحال انتزاعه بالرغم من كل ما لاقـوه ! ، وقد جمع الدكتور محمد حرب بعض أعمالهم في كتابه (المسلمون في آسيا الوسطى والبلقان) .

ومن أروع النمـاذج الـدالة على روح الإسـلام الخـالدة ، قـصـة الكاتبـة اليوغوسلافية الدكتورة / ملكيـة صالح بيكوفيتش الحاصلة على درجة الدكتوراه في الفلسفة من جامعة السـوربون في فرنسا ، والتي انفردت عام ١٩٨٧م بلبس الحجاب من بين ثلاثة ملايين امرأة مسلمة في يوغوسلافيا ، وتعرَّضت للسجن ولأشد ألوان الاضطهاد حتى اضطرت الحكومة اليوغوسلافية أمام إصرارها على موقفها وثباتها على الإيمان إلى إعطائها وابنها جواز سفر، ووضعتها على أقرب طائرة لتهاجر بدينها [1] .

كذلك أدت الشعوب الإسلامية المقهورة دورها في المحافظة على عقائدها في أقسى ظروف عرفتـها تاريخ البشرية، بل لم يعرف لها مـثيل من قبل ! وقامت الآن تبحث عن هويتهـا ، ففي مناطق الجمهوريـات الخمس عارضت السلطات المعنية من قبل موسكو منادية بالإسلام .

وبقيت على الأمة الإسلامية - حكومـات وشعوباً - واجبات نحو إخوانهم الذين وقعوا فريسة الدُّب الروسي أكثـر من سبعين عاماً ، لإنقاذهم من صنوف

---

(١) المسلمون في آسيا الوسطى والبلقان ٢١٨ / ٢٢٠ د/ محمد حرب ط المركز المصري للدراسات العثمانية وبحوث العالم التركي - مدينة نصر القاهرة ١٤١٣هـ - ١٩٩٣م .

جديدة من المحن الشديدة والمخاطر المتوقعة وتتمثل في :

(١) المذهبية الإيرانية والعلمانية التركية[١] .

(٢) التنصير الذي انتهز دعاته فرصة تشتت شعب الأخسقا المطالبين بعودتهم إلى ديارهم في جورجيا[٢]، أو الشعب الألباني الذي يعاني من الفقر والفاقة، ولكن قام المفتي هناك ليصرِّح أمام أربع قوافل متطوعين من الفاتيكان ليصرح بقوله: (إننا نموت جوعاً ولا نقبل أن يحدثنا الكفار عن دينهم) [٣] .

ولا يفوتنا في زحمة هذه المآسي أن نذكِّر بشعب التركستان الذي سطر صفحات خالدة من الجهاد بدماء شهدائه - ولا يزال - للمحافظة على إسلامه ومقاومة جور حكومات الصين الشيوعية التي تقتل المسلمين وتجرِّم الإسلام[٤] .

إن على العالم الإسلامي واجبات ضرورية وملحَّة نحو هذه الشعوب ، ومن اليسير تقديم العون لها ومساعدتها للعودة إلى هويَّتها الإسلامية والوقوف على قدميها ثقافياً واقتصادياً وسياسياً وعالمياً ، وسيكون العائد مجزياً ، مادياً وأدبياً لما تذخر به هذه البلاد من ثروات ضخمة ، وما يُعرف عن أهلها من البأس الشديد ، ولعل من منح الله تعالى للأمة الإسلامية - وهي في محنها المعاصرة - أن يمدّها بمدد جديد ليقوي شوكتها ، ويسرع بخطاها نحو النصر .

إن هذه المساعدات - كما يحددها الدكتور محمد حرب - تتمثل في (الدعاة، مُحفِّظي القرآن الكريم، مدرِّسي اللغة العربية، افتتاح المدارس العربية، افتتاح المدارس الإسلامية، الكتب، أساتذة متطوعين من مختلف التخصصات الإسلامية، مشروعات تجارية، استثمارات، هبات، أوقاف،

---

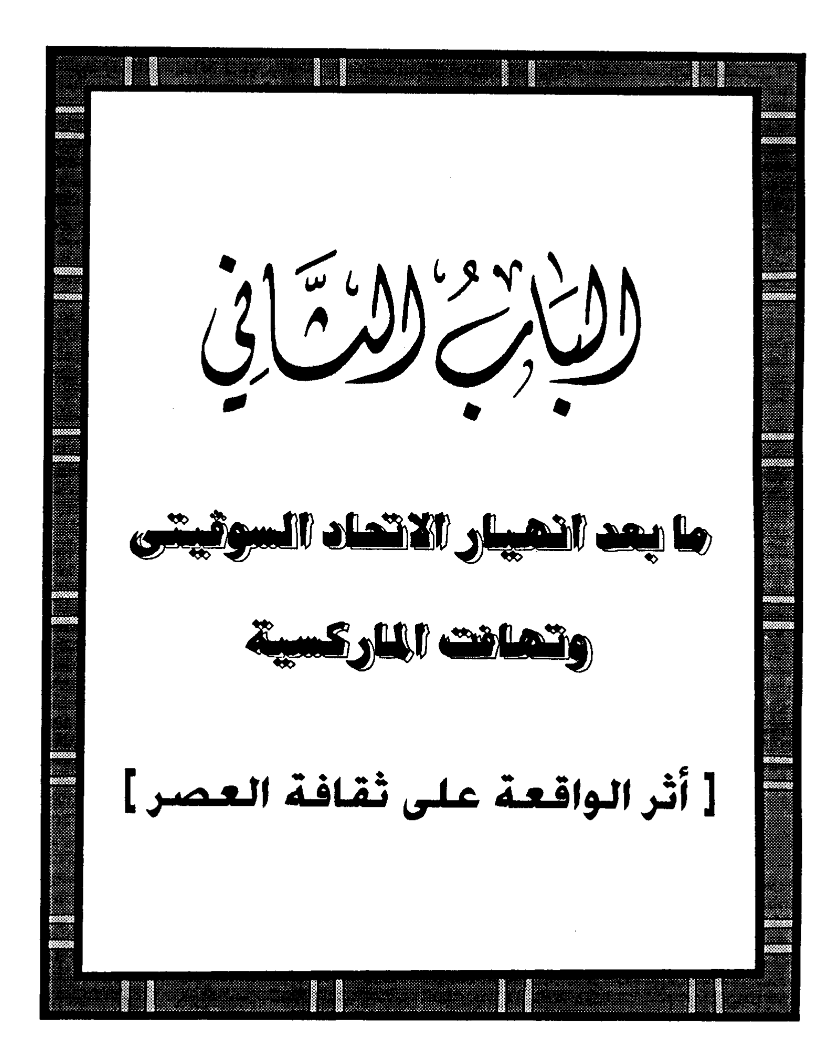
(١) نفسه ص ٣٢ (٢) نفسه ص١١٢

(٣) نفسه ص٢٢ (٤) نفسه ص١٣٥ ، ص١٧٤ .

إذاعات موجّهة، أشرطة كاسيت وفيديو، دعوات للزيارات المتبادلة، إنشاءات، منح طلابية واسعة، منح في الجامعات العربية الإسلامية، منح في الكليات العسكرية الإسلامية، مطابع عربية، ترجمات من العربية تشرح معاني الإسلام في مختلف الميادين، إنشاء أقسام لدراسة هذه البلاد الجديدة دولياً في مختلف الجامعات الإسلامية، اهتمام الصحف العربية بنواحي الحياة في هذه البلدان، تكوين رأي عام عربي فيه من الوعي ما يدفع الشباب الصغار السن إلى تبني قضايا الإسلام في التكوين الإسلامي الدعوى في هذه المناطق) [1] .

وسنعرض في الباب القادم عن أثر تهافت الماركسية على ثقافة العصر وصداها على الفكر الإسلامي .

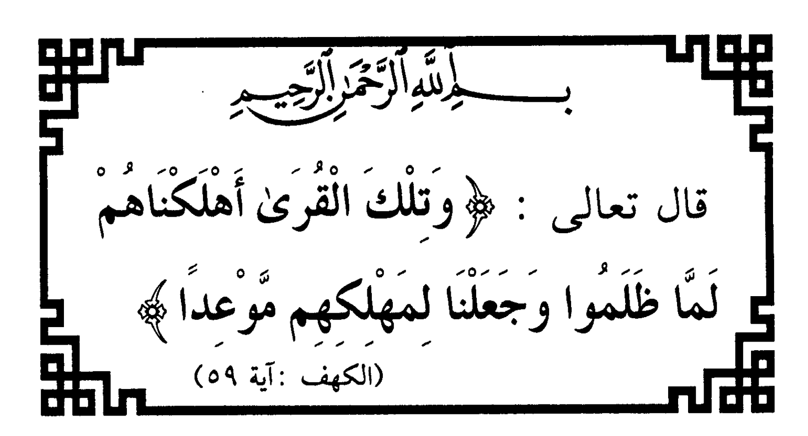
(١) نفسه ص ٣٠ / ٣١ .



الباب الثاني

ما بعد انهيار الاتحاد السوفيتي وتهافت الماركسية

[أثر الواقعة على ثقافة العصر]



بسم الله الرحمن الرحيم

قال تعالى : ﴿ وَتِلْكَ الْقُرَىٰ أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا ﴾

(الكهف :آية ٥٩)

يرى العُلماء أنــه كما يحــدث للزلازل الأرضية توابع، فكــذلك حدثت توابع ثقافيــة على أثر انهيار الاتحاد الســوفيتي وتهافت الماركــسية، فهناك نظريتــان جذبتا انتبــاه الباحــثين والمعلقين السيــاسيين والكتاب، وعــقدت لهــما الندوات، ودارت حولهما المناقشات، وهما :

أحدهما: نهاية التاريخ، وخاتم البشر لفوكوياما [١] .

والثانية : صدام الحضارات لهانتجتون[٢] .

وسنكتــفي ببــعض شــوامخ الفكر الإســلامى الذى لم تفتــه متــابعــة هاتين النظريتين، ومناقشــتهما ونقدهما، ومنــها تتجمع لدينا حصــيلة جديدة تُضاف إلى نهر الفكر الإسلامــى الذى لا ينضب، ويتجدد مع توالى القرون ، ويقــوى ويشتدّ عوده بسنن الله عز وجل فى التدافع ، قال تعالى : ﴿ **الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلاَّ أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيراً وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ** ﴾ (سورة الحج الأية ٤٠) .

---

(١) فرانسيس فــوكوياما ، كان نائباً ســابقاً لمدير مجموعــة تخطيط السياسية بوزارة الخــارجية الأمريكية ، وهو حالياً مستشار لمؤسسة راندكور بقررلمشن في واشنطن .

(٢) هو أستاذ كرسي ايتون لعلم السياسة ومدير معهد جون م . أولين للدراسات الاستراتيجية في جامعة هارفرد .

أولاً : نظرية نهاية التاريخ وخاتم البشر

يبشر فـوكوياما، كما سـجل فى مقدمة كتـابه، بأن الديمقراطية الليبـرالية قد تشكل نقطة النهاية فى التطور الأيدلوجى للإنسانية، والصورة النهائية لنظام الحكم البشرى، وبالتالى فهى تمثل «نهاية التاريخ» [١] .

وفيما يتصل بموضوعنا - أى الفكر الإسلامى - فقد مر فوكوياما مرور الكرام على الإسلام معتـرفاً بميزته [٢] ، ولكنه قرر بلا تحليل أو دراسة كـافية أن الإسلام ليس بوسعـه تحدى الليـبرالية الديمـقراطية على أرضـها، وهذا صـحيح من زاوية الإصـرار على العناد وتلقى الفكرة المشـوّهة عنه بواسطة المسـتشـرقين والمبشـرين لحجب حقائقـه عن أهل أوروبا، ولو عُرض بأمانة لكان سبباً فـى دخول الكثيرين منهم إلى الإسلام كمـا هو مشاهد لأنه يتفق مع الفطرة الإنسانيـة ويخاطب العقل ويلبى الشوق إلى مـعرفة الرب عز وجل وعبـادته وحده، ولكن - مع الأسف - استقبله الغرب بحفاوة بالغة لوصفه للإسلام بأنه العدوُّ القادم[٣] .

---

(١) نهاية التـاريخ وخاتم البشـر ، فرانسيس فوكـوياما ، ترجمـة حسين أحمد أمين - ط - مـركز الاهرام للترجـمة والنشر ، ١٤١٣هـ ، ١٩٩٣م . ويصف الناشر الـكتاب بأنه (لم يثر كتـاب آخر مثلما أثار كـتاب فوكوياما من جدل صاخب على النطاق العالمي . .

(٢) نفسه ص ٥٦ .

(٣) وزعم فوكويامـا (أن هناك عدواً قادماً للحضـارة الغربية هو الإسلام . . لأنه نظام قائم على عـقيدة . . فهذه الأيدلوجيـة ستصبح هي النقيض للأيدلوجيـة الغربية . . وبالتالي لابد أن ينتصر أحـدهما وينهزم الآخر لأن العالم لن يستمر في حالة صراع بين العقيدتين : (الغربية والإسلام) . ويصف الدكتور رجب البنا الضجَّة التي أُثيرت حول المؤلف وكتابه بقوله (وأصبح الرجل المجهول فرانسيس فوكوياما من أعلام القرن العشرين. . كل جامعة تدعوه ليشرح نظريته. . وكل مجلة وصحـيفة تذهب إليه ليتحدث إلى ملايين القرَّاء عن هذا الفتح المبين. . وعلماء ومفكرو فرنسا وألمانيا وسويسرا يلتقـون مع هذا العبقري المجهول ليناقشوا معه هذه النظرية. . وليذهبوا إلى جامعاتهم ومراكزهم وأبحاثهم لينشروا الفكرة) ص ٢١٢ / ٢١٣ من كتاب (الغرب والإسلام) رجب البنا - ط دار المعارف مصر سنة ١٩٩٧م .

ومع هذا فقد عارض البعض نظريته، وكذَّبوا تنبؤاته، منهم الدكتور جمال حمدان الذى رأى أن الاتحاد السوفيتى والولايات المتحدة كما قاما معاً فى غفلة من الزمن، ستسقطان معاً فى ساعة الحقيقة. ولقد سقط الاتحاد، والدور على الولايات (والأيام بيننا). ويستند فى رأيه إلى أن كلتا الدولتين (كلتاهما عرقيًّا وجنسيًّا وقوميًّا ودينيًّا . . . إلخ) فسيكون هذا عامل سقوط فعّال، رغم البوتقة الأمريكية المزعومة، فهى عجزت عن هضم السُّود (المشكلة التى لم تعرفها البوتقة السوفيتية الشيوعية، حيث عجزت الشيوعية عن هضم القومية) [١]

ويضيف أن الذى حدث بعد اندثار الاتحاد السوفيتى ليس « نهاية التاريخ »، ولكن « تراجع التاريخ » فلقد رجع، أو « نكسة التاريخ » [٢] .

ويقول فى موضع آخر من كتابه موجّها حديثه إلى صاحب النظرية (كلا يا فوكوياما، وأنصاره: القضية ليس «نهاية التاريخ» بل «نهاية الجغرافيا» لأن الأساس القاعدى الدفين وغير المنظور: القَوميَّة (وإن كان منظوراً للعيان هو العنصر أو الجنس أو العرق) [٣] .

كذلك أكدت الدراسات والبحوث المتصلة بتنبؤات المستقبل أن هناك تحولات سياسية واقتصادية ستنزع الزعامة من الولايات المتحدة الأمريكية، أو على الأقل تشاركها فى مواصفات الدول الكبرى .

وأهم هذه الدراسات، ما أورده الرئيس الأسبق ريتشارد نيكسون بكتابه (١٩٩٩ نصر بلا حرب)، فكتب قبل تفكك الاتحاد السوفيتى (ولئن ظلت

---

(١) كتاب (صفحات من أوراقه الخاصة س ١٧٤ ، إعداد وتقديم د / عبد الحميد حمدان ، دار الغد العربي ، بالقاهرة ١٩٩٦م) .

(٢) نفسه ص ١٧٥ .

(٣) نفسه ص ٨٤ .

الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى القوتين الغالبتين فى نهاية القرن، فكل ما يحدث بعد ذلك رجم بالغيب، وبناء على معدّلات النمو الحالية، فإن اليابان ستتفوق فى التاريخ القومى الإجمالى على الولايات المتحدة ، وسيكون لها من القوة العسكرية ما تختار سياسياً أن يكون لها. وستصبح الصين دولة عظمى اقتصادياً وعسكرياً. أما أوروبا الغربية، فإن قرنت براعتها الاقتصاية الفائقة بوحدة سياسية ، انضمت إلى صفوف الدول العظمى) [١] .

الرأي المضاد : رأي بول كنيدي :

وبخلاف الفكرة الشائعة عن النظام العالمى وتوقع سريانه على العالم فإن هناك نبوءة بول كنيدى فى كتابه (صعود وسقوط القوى العظمى) متوقعاً انهيار القوة الأمريكية فى العقود القادمة. وذلك تطبيقاً لقانون عام صاغه من صعود وسقوط الامبراطوريات. هذا التعميم صاغه بناء على دراسة تاريخية، خلص منها إلى قانون عام مبناه أن « كلما فاقت التزامات القوى العظمى الاستراتيجية قدرتها الاقتصادية، تسقط هذه القوة وتنهار)، بينما زعم فوكوياما برده المباشر على بول كنيدى أن الليبرالية تمثل النموذج الأمثل الذي سيطبق إلى الأبد ومعنى ذلك أننا قد وصلنا إلى « نهاية التاريخ » [٢] .

ويرى الأستاذ / السيد يسين أننا إذا تأملنا حركة الصعود والهبوط فى النظام العالمى سنلاحظ صعود بعض القوى الأسيوية كالصين واليابان [٣] .

---

(١) كتاب (١٩٩٩ - نصر بلا حرب) ريتشارد نيكسون ص ٢٣٨ إعداد وتقديم المشير محمد عبد الحليم أبو غزالة ، مركز الأهرام للترجمة والنشر ١٠٩ - ١٩٨٨م .

(٢) الوعي التاريخي والثورة الكونية، حوار الحضارات في عالم متغير ص ٢٣٧، السيد يسين، مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بالقاهرة ١٩٩٥م .

(٣) نفسه س ٢٣٧ . .

ويقول فى موضع آخر (وإذا كان المسرح الدولى يسيطر عليه ثلاث قوى: المدنية الغربية الرأسمالية والنظم الماركسية، والإسلام ، وإذا كانت المدنية الغربية الرأسمالية أصبحت علمانية وتخلصت - إلى حد كبير - من الإطار الدينى الذى كان يحكم إدراكها للعالم فلم يبق كمتحدٍ سوى الإسلام الذي يقوم على الوحدانية، والنظم الماركسية التى تقوم فى عقيدتها على الإلحاد، والآن وبعد سقوط النظم الماركسية، لم يبق فى الساحة سوى المدنية الغربية والإسلام، ثم يتساءل هل معنى ذلك ضرورة، وحدوث مواجهة بينهما ؟) [١] .

قبل البحث عن إجابة للسؤال علينا أن نسجل ما اتفق عليه الباحثون من حدوث « ثورة هادئة » فى القيم فى بنية المجتمعات الصناعية المتقدمة حسب تعبير الباحث الأمريكى البارز انجلهارت .

ويعلل بعض الباحثين هذا التغيير فى الاتجاهات والقيم إلى التحول من إشباع الحاجات الأساسية للجماهير إلى أن تولى بصرها إلى الإشباع الروحى ولا بد أن يؤدى ذلك إلى حركة إحياء دينية برزت معالهما فى كثير من المجتمعات المتقدمة .

وقد فسرها عالم الاجتماع الأمريكى دانيل بل بسبب وصول الحداثة إلى منتهاها ولم تتحقق السعادة للبشر بعد شيوع السلع وتحت تأثير ثقافة الفرد أساساً على الاستهلاك الدائم كغاية ، مما أدى إلى شيوع الاغتراب فى المجتمعات ، مما أدى إلى (عودة المقدس) إلى الحياة مرة أخرى [٢] .

ومادامت (الثورة الهادئة) قد أحدثت تغييراً فى القيم وعادات المجتمعات الغربية إلى البحث عن الإشباع الروحى، مع تطلع (حضارة الباسفيك): اليابان

(١) نفسه ص ٩٥ .

(٢) نفسه ص ١٥٠ .

والصين، إلى وراثة الحضارة الغربية كلياً أو نـسبياً، عندئذ هل يصبح الحوار بديلاً للمجابهة ؟

ويرجّح ذلك الدكـتور رشـدى فكّار، وإذا كانت العـقبة الآن فـى تأزم حال المسلمين، فلا يعنى ذلك تأزم الإسلام، ويقول (فكمـا نكرر دائماً أزمة جيل ليس بأزمة مصير، وأزمة نخبة ليست بأزمة أمـة، فالمسلم المتفهم لإسلامه والمتفاهم معه يسهل عليـه أن يفهم ويتفاهم مع أخـيه المسلم، ويصبح قادراً علـى أن يتحاور أو يتواجه موضوعياً مع الآخرين .

ولن يتحقق هذا المسلم عن طريق الإشـباع الاستهلاكى ولكنه يستـعيد مكانته بين موائد الكبـار بتحقيق ذاته وبنائه كـإنسان فى عصر عـزت فيه إنسانيـة الإنسان (فهـو بملياره المتـحلى بسلوك القـرآن، الإنسان المتـوازن المتعـادل، روحاً وجـسداً ونفسـاً، المتعادل فى مشـيته وإنفاقـه بل حتى فى صوته الخـاشع لربه ومنه يستلهم الهدى والنور، هذا المسلم السوى بسلوكه المتميـز سوف يجسّد أداة تصحيح لتطور تكنولـوجى وعلمى وصنـاعى آل فى النهـاية بالإنســان إلى مـا يشـبـه الآلة الصماء. . .)[1]

بداية التحول التدريجي من الغرب إلي الشرق :

ومما يُوجَّه من نقـد إلى نظرية فوكـوياما أيضاً، أنه كـان متحـيّزاً ولم يسلك سبـيل المنهج العلمى الموضـوعى، متـجاهـلاً التحـول التدريجى تقنيـاً وصناعيـاً واقتصادياً الذى بدأ منذ سنوات .

إن النظرة العلميـة وفق منهج دراسة قـيام الحضارات وسـقوطها الذى اتبـعه

(١) د . رشدي فكار ، ... ونهاية عمالقة في حضارة الغرب ، ص ١٣٨ / ١٣٩ ، إعداد وتقديم سيد أبو دومة - مكتبة وهبة بالقاهرة ١٤٠٩ هـ / ١٩٨٩ م .

المؤرخ البـريطانى أرنـولد توينبى، هذه النظرية سـاقـتـه إلى تـوقع تقلّص نفـوذ الحضارات الغربـية بسبب تحوّل المنجزات التكنولوچية من بلـد إلى آخر، وقيام أمم أخرى بتطوير حـياتها العلميـة وفقاً لأحـدث النظم (واقتباسـها - بل ابتكارها - المسـتحدثات الـعلميـة والتكنولوچية . وبالأحـرى، لم تعد المعـرفة التكنولوچـية والخبرات الفنـية حكراً لأمة تتيح لها - بمـفردها - السيادة على بقـية العالم، أو على مناطق منه) [1] .

وفى دراسة حديثة صدرت فى اليابان لليابـانى شنتارو إيشيهارا - كتب يقول: (فالواقع أن قـوة العالم اليوم، التقنـية والصناعية والاقـتصادية آخذه فى التـحول التدريجى من الغرب إلى الشرق) [2] .

وصـاحب هذه الدراسة عـضوٌ بارز فى المجلـس التشـريعى اليابانى، وأحـد قيادات الحزب الليبرالى الديمقراطى فى اليابان .

وقـد صحّ توقع توينبـى المبنيّ على الدراسـة المتـأنيـة للحـضـارات، وبحث العلاقات بينها، وإقامـتها وسقوطها على ما سماه بقانون (التـحدى والاستجابة)، واستبـعاد فكرة سيطرة حضارة واحـدة بصفة أبديـة، بـل اختـار فى كتابه بعنوان (العالم والغـرب) عمداً، أى قـدّم (العالم) على (الغـرب) لوعيه التـام بنقطتين : **الأولـى :** أن الغرب لم يكن يمثل يوماً من الأيام كـل العالم، بل لم يكن الممثل الوحيد الذى يقف بمفرده علـى خشبة مسرح التاريخ الحـديث حتى عندما كان فى قمة قوته وجبروته، بل إن القمة بالنسبة للغرب قد انتهت.

---

(١) حضـارة الإسلام في دراسـة توينبي للتاريخ ص ٩١ ، تأليف فـؤاد محـمد شبل ، دار الكاتـب العربي بالقاهرة ، ديسمبر ١٩٦٨م .

(٢) ص ٣٤ من كتاب (اليـابان لم تقل لا - صراع المستقـبل بين الكبار) ، ترجمة هالـة العوري ط ، يافا للدراسات والأبحاث بالقاهرة ١٩٩١م .

أما النقطة الثانية : فهى أن العالم فى الصراع الدائر منذ أربعمائة أو خمسمائة عام بينه وبين الغرب، هذا العالم هو الذى تلقى الصدمة من جانب الغرب وكانت قاسية (١) .

ويبدو أن نتـائج هذا الصراع بدأت تتضح فى شكل اسـتقلاليـة تجارب بعض شعـوب قارة آسـيا، وها نحن نعـاصر الآن التـجربة فى مـاليزيا بأطراف الـعالم الإسـلامى، حـيث تبزغ شـمس تجـربة جـديدة تجمـــع بين الإسـلام والتنمـيــة الإقتصاديـة والتكنولوچية .

يقول الدكتـور محاضير مـحمد رئيس وزراء ماليزيا : (إنه على مـدى مئات السنوات الماضية كان الغرب - فى البـداية أوروبا ثم شمال الأطلنطى بعد ذلك هو مركز السـيطرة فى العالم، وكان مصير آسـيا معلقاً بقرارات وأفـعال هذه السيطرة المركـزية، واليوم فـإن منطقـة الشرق الأقـصى التى نعيـش فيـها تقـود التجـمع الاقتصادى لآسيا والباسفيك، وتعيش مرحلة تحول جذرية) (٢) .

وجاء فى خطابة الذى ألقـاه بمناسبة حصـوله على جائزة الملك فيصـل لخدمة الإسلام عن عام ١٤١٧هـ (١٩٩٧ م) : (إن التقدّم الذى حدث فى ماليزيا بعد دخول الإسلام فيها وفى العصر الحديث يُعزّى أساساً إلى أن الإسلام قدّم لنا نظام حياة كاملاً) . . . فما رأى فوكوياما ؟!

وبالرغم من الخلاف فى وجهـات النظر فيما يتعلق بفهـم التعاليم الإسلامية ،

---

(١) ص ٩٧/٩٨ من كتاب : (أرنولد توينبي) لمعي المطيعي ، دار الكاتب العربي بالقاهرة ١٩٦٧م .

(٢) من كتاب (صوت آسيا) تـأليف محاضير بالاشتراك مع شينتار وإثيهـارا نقلاً عن عرض الكتاب لمنصور أبو العزم بجـريدة الأهرام في ٢/٨/٩٧ س ٦ ، وينطق البعض الاسم (مهـاتير) ، وهذا خطأ . ،

(من أقوال مفتي كوالالمبور في حواره مع مندوب مجلة منار الإسلام بالإمارات ، ربيع الثاني ١٤١٨هـ - أغسطس ٩٧ .

عاد فقال (إلا إننا بالرغم من ذلك ظللنا مؤمنين وملتزمين بالإسلام نستهدى به ونحن فيما نصبو إليه من تقدم مادى لا ننسى ديننا أو نتركه جانباً ، بل نؤمن بكل تأكيد بأن ما يتحقق لنا من تقدم مادى يتوافق مع تعاليم الإسلام ويساعد فى تحقيق الأخوة الإسلامية والعزّة والمنعة التى نحتاج إليها للدفاع عن أنفسنا وعن عقيدتنا فى مواجهة من يحاولون عزلنا عن ديننا وتحطيم عقيدتنا) [1] .

ولازالت تحتفظ الأمة بطاقات بشرية واقتصادية هائلة ولا ينقصها الاستعداد فهى تستطيع بعلمائها أن تقتحم القرن الواحد والعشرين بالتنسيق والتعاون والمثابرة على العمل المنظم وفق تخطيط محكم وتعاون بين العلماء بكافة فروع العلم .

والمثال الواقعى الثانى على ذلك قد تحقق بنجاح باكستان فى صنع برنامج نووى . يقول البروفسور عبد القدير خان - أبو القنبلة الباكستانية - (إن المشروع النووى الباكستانى بكل معانية هو قصة بطولية لإرادتنا الوطنية وتفوقنا ، إنه رمز للدولة الكريمة التى ترفض الخضوع لأعدائها وتعتمد على نفسها وشعبها (ويصف المشروع أيضاً بأنه (جهد كل الشعب الباكستانى - وهو رمز للدولة الفقيرة والنامية للتحديث وللنضال ضد سيطرة وابتزاز الدول الكبرى) [2] .

---

(١) مجلة (العالم الإسلامي) ، مكة المكرمة ١٥ - ٢١ ذو القعدة ١٤١٧هـ (٢٤ - ٣٠ مارس ١٩٩٧م وقد رشحته الندوة العالمية للشباب الإسلامي ومُنح الجائزة لجهوده العظمية التي من أبرزها كونة مثلاً حيّاً لقيادة إسلامية تجمع بين التأكيد على القيم الجوهرية للإسلام فكراً وعملاً، وبين استخدام وسائل النهضة المعاصرة استخداماً جعل بلاده في طليعة الدول التي تشهد تقدماً تقنياً واقتصادياً رائعاً . . وانشاؤه مؤسسات حضارية إسلامية مهمة كالجامعة الإسلامية الدولية والبنك الإسلامي ومركز فهم الإسلام ومؤسسة التنمية الاقتصادية الإسلامية ، هذا وقد تعرضت التجربة هناك - كما هو متوقع - لحرب شعواء قادها المليادير الصهيوني جورج سوروس إذ كان العقل المدبّر لهجمات المضاربين ضد العملات النقدية لدول جنوب آسيا منذ يوليو سنة١٩٩٧م .

وعندما شكى رئيس الوزراء هذه الجرائم قامت ضده حملة ضاربة تتهمه بمعاداة اليهود، (فنفى أنه معاد لليهود وقال : (لقد قلت إنه بالمناسبة فهذا الشخص (سوروس) يهودي وبالمناسبة أيضاً فنحن مسلمون

(٢) مجلة المختار الإسلامي - العدد ١٦٩ ، ١٥ رمضان ١٤١٧هـ ، ٢٣ يناير ١٩٩٧م من ص ٥٢ - ٧٢

ولا ينبـغى أن تمرّ بنا هذه التجـارب الناجحـة الدالة على التوافق بين تطـبيق تعاليم الإسلام والأخـذ بالتكنولوجيا المعاصرة مرّ الـكرام فى الوقت الذى ثبت فيه فشل النظام الكمـالى العلمانى الذى أراد أن يقطع الصلة بينه وبين الإسـلام واهماً أنه ستحقق التقدّم المنشود، بل ينبغي أن نتعلّم منه :

إنه درس كلّف الأمة ضياع أجيال، يقول الأستاذ فهمى هويدى :

(إن المشروع الكمالى العلمـانى فشل فى تركيا، ولـم يحقق شيـئاً من أهدافه النهائية رغم مضى أكـثر من سبعين سنة على تطبيقه، فلا انتـزع الإسلام من تركيا ولا هى نجـحت فى الالتحـاق بالغرب، وإنما حـدث العكس، حيث تنامـت قوة التوجيه الإسـلامى فى البلاد، حتى أصبح حزب الرفاه، وهو أبرز تعبـير سياسى عن ذلك التوجه أهم قوى سياسـية فى تركيا، وفى الوقت ذاته فإن أوروبا مازالت ترفض قبول تركيا ضمن مجموعتها، مفضلة أن يكون الزواج التركى الغربى عرفياً وليس شرعياً)[1] .

ومالم يقله الأستاذ فهمى هويدى أن أوروبا رفضت تركيا لأن دينها الإسلام، والله غالب على أمره .

دور الدين فى حركة التاريخ :

لم يتنبَّه فوكوياما إلى دور الدين فى حركة التاريخ ولم يعن به العناية الكافية، بينما كـان من أوئل متطلبات بحثـه الاطلاع على كتابات وبحـوث بعض العلماء

(١) .الأهرام - الثلاثاء - ٢٠ / ٥ / ١٩٩٧م

قبله الذيـن أعطوا عنايتهم لدور الدين فى التـاريخ وأثبتوا أنه مـن أكبر المحـركات لعجلة التـاريخ، وأبرزهم من يُعرفـون (بأصحاب المذهب الربـوبى) فى القرنين ١٧ ، ١٨الذين ركزوا على التأكيد على الدين فى التاريخ .

وهيجل الذى احتل حيّزاً كبيـراً من كتاب فوكوياما هو الآخر عنى بالدين فى التاريخ لأنه حسب رأيه (ليس مهتماً فقط ولا بصـفة رئيسية ببلوغ الغايات الخلقية فى الزمان ، ولكنه فى جـوهره علاقة مبـاشرة بين المحدود المتناهى وغـير المحدود اللامتناهى، أعنى الأبدى)، بل اعتبر (التاريخ العام) أحد الآيات الجديرة بإعجاب الناس فكتب (وقد جـرت عادة الناس ردحـاً من الزمان بالتعـبير عن الإعـجاب بحكمة الله ، كمـا تتجلى فى الحيوان والنبـات وفى الأحداث الفريدة، ولكن إذا جاز أن تلك (العناية) تجلّى نفسها فى أشياء وأشكال كهذه من الوجود ، فلماذا لا تجلّى نفسها أيضاً فى « التاريخ العام » ؟

كـذلك اعتـرف (ويلـــز) بالديـــن فى التاريـــخ وجـاء أكـبر مـؤرخـى العصـر: توينبى، فجـعل المتغـير النهـائى الذى قدمـه للتاريخ تفـسيراً دينـياً فى أساسه)[١].

إن الباحث الذى يغض الطرف إذن عن التفسـير الدينى اليهودى والذى يعمل بموجبه الكيان الصهيـونى فى إسرائيل - منذ عام ١٩٤٨ حتى الآن - هذا الباحث لا يعيش فى عـصره ولا يحق له التنبؤ (بنهـاية التاريخ) ، بل يثيـر الشك حول نواياه وأهدافه !

هذا ، بينما اهتم توينبى بتاريخ اليهود فى موسوعته التاريخية ليفضح نواياهم

---

(١) (التاريخ وكيف يـفسرونه من كنفوشيـوس إلي توينبي تأليف : آلبان . ج ويدجري ، صـفحات ١٥٢، ١٦٩، ١٧٠ ، ٢١٠ ، ٢٣٥) ، ترجمة عبـد العزيز توفيق جاويد ، الهيئة المصـرية العامة للكتاب ، ١٩٧٢م

وأطماعهم التى لا تقنع بفلسطين وحدها (بل إن هدفهم النهائى تكوين امبراطورية مركزها القدس، وتتـحكم فى أقدار العالم الاقتصادية والسياسـية بفضل سيطرتهم على موارد الشرق الأوسط الغنية وتحكمهم فى موقعه الاستراتيجى الحيوى)[1] .

ويقول توينبى بعد سـرده لمحاولات اليهود منذ تدميـر بختنصر المتتاليـة لإقامة دولة التى باءت كلها بالفـشل فطرحوا جانبـاً (التقليد المقدس القـديم الذى يحتم على مـؤسس الدولة الجـديدة أن يـكون من ذرية داود . ولما أن رأى اليـهـود أن الكوارث تحل بهم كلما رغبوا فى تحقيق حلمهم فى إقامة دولة يهودية فى فلسطين باستـخدام القوة المجـردة، أقنعوا أنفـسهم بأن ربهم (يهوه) هـو الذى يهبط من عليائـه فيتـجسّد فـى شكل بشر ويتولـى دور المخلّص للشعب اليـهودى ، ويتم الخلاص عن طريق تمكـين هذا الشعب من إقامـة مملكة دنيوية قـوامها امـبراطورية كبرى تكون أورشليم عاصمتها ، ويكون اليهود فيها الجنس السيد)[2] .

---

(١) حضارة الإسلام في دراسة توينبي تأليف فؤاد محمد شبل ص ٧٨ المؤسسة المصرية العامة للتأليف والنشر ١٩٦٨/١٢/١م .

(٢) نفسه ص ٨٠ .

ثانياً : نظرية (صدام الحضارات)

لصامويل ، . هانتجتون .

تتلخص نظرية (صدام الحضارات) لصاحبها صامويل ب . هانتجتون فى أن صدام الحضارات سوف يسيطر على اليابسة العالمية، وسوف يكون الصدام بين الحضارات هو الطور الأخير فى منحنى تطور الصراع فى العصر الحديث .

ويعرّف الحضارة بأنها أعلى تجمع ثقافى للبشر، كما أنها أعرض مستوى للهوية الثقافية يتمتع بها البشر، وتتجددّ الحضارة بكل من عناصر الأهداف المشتركة مثل التاريخ واللغة والثقافة والتقاليد والأكثر أهمية عامل الدين، ويرى أن الحضارات تتمازج وتتداخل، وربما تضم حضارات فرعية (فهناك تنويعان أساسيان للحضارة الغربية هما الأوروبية والأمريكية الشمالية كما أن الحضارة الإسلامية تضم ثلاث حضارات فرعية هي : العربية والتركية والملايو) ويعلل أسباب اصطدام الحضارات المتوقع بالأسباب الآتية وهى باختصار :

١ - الاختلاف بين الحضارات اختلافات أساسية لأنها تتمايز عن بضعها البعض باللغة والتاريخ والثقافة، والعادات وأهم من ذلك الدين كما تقدم، ولكنه يتحفظ فيذكر أن الاختلافات، لا تعنى بالضرورة الصراع، والصراع لا يعنى بالضرورة العنف، ومع ذلك وعلى مدار قرون ولدت الاختلافات بين الحضارات وأكثر الصراعات طويلة الأمد وأشدها عنفاً .

٢ - يتحول العالم إلى مكان أصغر وتتزايد التفاعلات بين شعوب بالحضارات المختلفة مثال ذلك هجرة أبناء شمال أفريقيا إلى فرنسا تولد العداء فى أوساط الفرنسيين ولكنها فى الوقت نفسه تزيد من تقبل هجرة البولنديين الكاثوليك الأوروبيين الصالحين .

٣ - تسببت عمليات التحديث الاقتصادى، والتغيير الاجتماعى فى فصل الهويات المحلية الراسخة بين البشر كما أنها تضعف الدولة القومية كمصدر للهوية، وفى كثير من مناطق العالم تحرك الدين لملء هذه الفجوة . وعلى ذلك فإن الإحياء الدينى يوفر مرتكزاً للهوية والتزاماً يتجاوز الحدود القومية ويقرب بين الحضارات، وقد لاحظ جورج فيجل (إن اقتلاع العلمانية من العالم هى إحدى حقائق الحياة الاجتماعية المهيمنة فى أواخر القرن العشرين) .

٤ - إن الدور المزدوج للغرب عزَّز زيادة الوعي الحضاري خارج أوروبا، ومن مظاهره الانكفاء على الذات، والتحوُّل إلى الطابع الأسيوي في اليابان ونهاية تراث نهرو، والتحول إلى الطابع الهندوسي في الهند وإخفاق الأفكار الغربية عن الاشتراكية والقومية ومن ثَمَّ « **إعادة أسلمة** » الشرق الأوسط، والتحوُّل إلى الطابع الروسي في روسيا .

وبعد تشرُّب النخبة في المجتمعات غير الغربية بالاتجاهات والقيم الغربية في الماضي، تحوَّلت إلى نزع الطابع الغربي وتأصيل الثقافة المحلية .

٥ - ظهرت أهمية الانتماء الحضاري بعد الصراعات بين الشعوب التي كانت تابعة للاتحاد السوفيتي سابقاً (مثل الأذربيجان والأرمن) . فالسؤال الآن هو (ما هويَّتك) ؟ ومن البوسنة إلى القوقاز ، إلى مناطق أخرى ، يمكن أن تعني الإجابة الخاطئة على هذا السؤال رصاصة في الرأس .

والدِّين يُميِّز - كليًّا وبجدٍّ - بين البشر أكثر من الانتماء العرقي بصورة جادة، إذ يمكن للشخص أن يكون نصف فرنسي ونصف عربي، وفي الوقت نفسه حتى مواطناً في بلدين، ولكن من الصعوبة بمكان أن يكون نصف كاثوليكي ونصف مسلم [1] .

---

(١) باختصار من كتاب (الإسلام والغرب - آفاق الصدام)

تأليف صموئيل بي هانتيجتون ترجمة مجدي شرشر - مكتبة مدبولي بالقاهرة ١٤١٥هـ / ١٩٩٥م .

ويقول هيلموت شـميث المستشار الألماني السابق (ومـا يقلقني الآن هو كتاب نشره المفكر الأمـريكي صمويل هانتنجـتون موضوعـه صراع الحضارات وانتـشرت الفكرة في العالم، وهو يقـول للأمريكيين إن الصراع بين الغرب والإسـلام لا مفرَّ منه . . هذه الفكرة غرسهـا هانتجتون في أرض خصـبة لأن الأمريكيين منذ وقت طويل يساندون إسرائيل، ويرى أن خطورة الفكرة أكبر مما نظن)[1] .

والحقيقـة أن هانتجتون لا يعبِّر بآرائه عن موقف المثـقفين الغربيين، فهناك من خالفوه فى الرأى أمثال إرسكين ب . تشـيلدرز ، وبول كيندى، وفريدها ليداى، مؤلف كتاب (الإسلام وخرافة المواجهة) ، وقد خصص بحثاً ضمن كتابه بعنوان (خطر الإسلام أم خطر على الإسلام ؟ وكان ضمن ما قاله (فقد اختفى منذ أمد طويل الخطر العسكرى الذى تثيـره قوات إسلامية موحـدة (فى ظل الامبراطورية العثمـانية)، ولكن خطورة رأى هانتجتون فى تبنيـه لفكرة (ضرورة تدشين القوة داخل صفوف العرب وخلخلة قوة الإسلاميين) [2] .

مناقشة النظرية فى ضوء الفكر الإسلامى :

فى مناقـشة فكرة الـصدَام ، يذكـر د / مانع الجـهنى - الأمين العـام للندوة العالميـة للشبـاب الإسلامي - أن سبب الصـدام والتدافع بين الشـعوب والأمم هو الاختلاف فى المعتقدات والعادات والأفكار ، وبسبب المطامع السياسية والاقتصادية وغيرها، ولكن هذا الصراع لا يمانع من التعاون والتعايش بين الحضارات، ويرشح حضارة الإسلام بين الحضارات لتحقيق السلم والوئام بينها لسببين :

---

(١) الغرب والإسلام - رجب البنا ص١٢٣ ط . دار المعارف بمصر سنة ١٩٩٧م .

(٢) مقال منى ياسين (الإسلام في عيـون الغرب) ص ٤٢ ، من كـتاب (الغرب والإسلام) ، دار جهاد بالقاهرة ، فبراير ١٩٩٤م ، ويُنظر كتاب (الإسلام وخرافة المواجهة) ترجـمة محمد مستجير - مكتبة مدبولي س ١٩٩٧م .

الأول : نظرة الإسلام إلى الإنسانية على أنها أسرة واحدة ، وأنهم كلهم خلق الله سبحانه وتعالى، والاختلافات الموجودة بينهم في العقائد والأفكار والألسن والعادات هي اختلافات طبيعية لابد أن تحصل .

الثاني : اعتراف الإسلام بالأديان الأخرى فلها الاحترام ويوفر الحرية لاتباعها والتعايش السلمي بينها أمر وارد [1] .

وشاركه فى الرأى الدكتور أحمد القديرى الذى يقترح إقامة حوار هادئ بين الحضارات الأخرى باستخدام السلاح الثقافى والاقتصادى والسياسى والاجتماعى فى الصراع المقبل، ويقول: (وإن النصر الذى ننشده للمسلمين فى هذا الصراع الحضارى، ليس نصراً عسكرياً، فنحن نأبى أن نختزل مجد الإسلام فى قوة حربية، وهو دين اتخذ السلام منهجاً، والسلام اسم من أسماء الله الحسنى، كما أن النصر الذى نأمله ليس طغياناً على الحضارات الأخرى، أو إرادة هيمنة على شعوب سوانا بقدر ما هو دفاع مشروع عن أصولنا الروحية، وثوابتنا الحضارية، حتى نعتمدها فى تحديد مصيرنا، وصيانة استقلالنا وإنشاء تضامننا)[2].

ومن ملاحظات الدكتور أحمد القديري، على آراء هنتجتون أنه يهمل التحدى الأكبر المفروض على الشرق الإسلامى بسبب توسع الدولة اليهودية لا على فلسطين وحدها بل على حساب أراض عربية مسلمة عديدة مما يجعل المعركة الفلسطينية أخطر مواطن صراع الحضارات مستقبلاً، ويستطرد قائلا: (وإننا نعتقد أن إهمال الكاتب اليهودى لهذا الصراع القادم الحتمى، ليس بسبب نقص فى

---

(١) د / مانع الجهني، مقال (الصراع بين الحضارات سنّة كونية . . والهجوم عليه ليس وليد العصر ، ص ٩٧ مجلة الحرس الوطني بالرياض) . ذو القعدة ، ذو الحجة ١٤١٦هـ ، مارس / إبرايل ١٩٩٦م ، (ملف العدد : الإسلام وصدامات الحضارات) .

(٢) ص ٥٠ (الإسلام وصراع الحضارات د / أحمد القديري ، كتاب الأمة ، قطر ذو الحجة ١٤١٥هـ ، مايو ١٩٩٥م .

ثقافـته، بل هو إهمال مقـصود عن أيديولوچية، لأن هنـتجتون يريد إيهـام قرائه والرأى العالمى، بأن هذه المسألة محـسومة، لأنه يضع الثقافة اليهودية فيـما يسميه بالمنظومة الثـقافيـة الشرقيـة التي يضع فيهـا الإسلام أيضاً هو ضـرب من ضروب التضليل، يندرج فى المخطط، بينمـا الواقع أن الثقافة اليهـودية انفصلت فى أواخر القرن التـاسع عشر عن جـذورها الشرقـية، واندمجت فى المشـروع الاستعـمارى الامبريالى الفكري والسياسى، ضد العدو المشترك: (الخلافة الإسلامية) [1] .

(1) نفسه ص ٥٨ .



أضـــواء
على الفكر الإسلامي الغربي
في العصر الحديث

أضواء على الفكر الإسلامي الغربي في العصر الحديث :

إن هناك دروساً وعبراً يمكن تعلمها بدراسة آراء بعض الغربيين المسلمين، سواء منهم من وُلِدَ مسلماً كالرئيس على بيجوفيتش، أو الذي اعتنق الإسلام متخطياً حواجز البيئة الثقافية والاجتماعية وحملات الدعاية العدائية للإسلام وتشويه تاريخه وحضارته وعقائده، أمثال جارودى، ورينيه جينو ومحمد أسد ود/ هوفمان ومريم جميلة وروجية دوبا سكويه .. وغيرهم .

إنهم يقدمون آية جديدة على أن ما أصاب مجتمعاتنا من نكسات ، لا تمسُّ جوهر حضارتنا، وبإمكاننا النهوض من جديد، فكما وسعهم اتّباع تعاليم الإسلام وكانوا بعيدين عنها بُعد المشرقْين - فبوسعنا من باب أوْلى اتباعها - وبين أيدينا الذخائر التى لا تحصى من تراثنا، بل فى أعماقنا أيضاً .

وننتقى صفحة واحدة من صفحات تراثنا الغنىّ الذى تعلمت منه البشرية، لنقرأها على مهل ، ونؤجّل الحكم إلى نهاية النص :

يضع ابن الوزير اليمانى شروط العدالة فى رواة الحديث ، فيقول :

... فإنه (يقيم الصلوات الخمس، ويحافظ عليها، ويصوم رمضان، ويؤدّى الزكاة ، ويؤدّى فريضة الحج إن كان ممن يلزمه هاتان الفريضتان، ويذكر أنه يشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، وأن الله عالم قادر، ويعدّد سائر الصفات الذاتية والمقتضاة، وأنه يستحقها لذاته لا لمعنىً، ويذكر جميع ما يتعلق باعتقاده من مسائل الوعد والوعيد والإمامة والولاء والبراء، ثم يذكر محافظته على الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، وأمثال ذلك من الواجبات مما يطول تعداده، ثم يذكر اجتنابه للمقبّحات، فيقول : إنه لا يقتل النفس المحرمّة، ولا يستحله، ولا يزنى، ولا يلوط، ولا يشرب الخمر ولا قليلها، ولا يسرق، ولا يقذف، ولا

يشهد الزور، ولا يغصب أموال الناس، ولا يُربى، ولا يفرّ من الزحف، ولا يأكل الربا، ولا أموال اليتامى، ولا يَعُقُّ والديه، ولا يكذب على الله، ولا على رسوله ﷺ - ولا على أحد - ولا يكتم الشهادة بلا عذر، ولا يطفف فى المكيال، ولا يبخس الميزان، ولا يؤخر الصلاة عن وقتها لغير عذر، ولا يضرب مسلماً بغير حق، ولا يبغض أمير المؤمنين - عليه السلام - ولا أحداً من العترة، ولا يسبّ الصحابة، ولا يُبغضهم ، ولا يأخذ الرشوة، ولا يسعى إلى السلطان، ولا يحرق الحيوان، ولا يتّخِذَه غرضاً، ولا يقع فى أهل العلم، ولا حملة القرآن،ولا يلعب بالنرد ولا بالحمام، ولا يكشف عورته فى الحمام، ولا يتساهل فى أكل الشبهات والحرام، ولا يسخر، ولا يسْحر، ولا يَنمّ، ولا يخاصم بالباطل، ولا يتكبّر من قول الحق، ولا يُرائى، ولا يُعجب بعمله، ولا يضحك فى الصلاة، ولا يبول ويتغوّط مستقبل القبلة ولا مستدبرها، ولا يشرب المثلث [*] ولا يفعل شيئاً من المختلف فيه وهو يعتقد تحريمه، ولا يباشر الأجنبية بغير جماع ، ولا يجامع زوجته فى الحيض والنفاس، - وإن كانت امرأة - انها تمتنع من زوجها بغير عذر، وتسافر من غير محرم ، ولا يحتكر، ولا يبيع على بيع أخيه ، ولا يسوم على سومته ، ولا يخطب على خطبته، ولا يبيع لبادٍ وهو حاضر، ولا تلقى الرُّكبان، ولا يُصرّى ، ولا يبيع المعيب بغير بيان ، ولا يدخل فى شئ من أنواع الغرر ، ولا يستعمل النجاسة فى بدنه لغير حاجة ، ولا يستعمل اللهو بالغناء والمعازف ، ونحو ذلك مما لا يكاد الإنسان يحصيه من التأمل الكثير) أ . هـ [1].

ويتبين من النص أن أحكام الإسلام نظَّمت أنشطة الإنسان، وغطت حركة حياته كلها .

(★) المثلث من الشراب : الذي طُبخ حتى ذهب ثلثاه (لسان العرب) .

(١) ص ٣٦٥ ، ٣٦٦ ، ٣٦٧ ، من كتاب العواصم والقواصم في الذّب عن سنّة أبي القاسم للإمام محمد بن إبراهيم الوزير اليماني المتوفي ٨٤٠ هـ حققه وضبط نصه وخرّج أحاديثه وعلق عليه شعيب الأرنؤوط - موسسة الرسالة - بيروت ١٤١٢هـ - ١٩٩٢م .

وإنها حقاً تجمع الأخلاق والسلوكيات التى اشترطها العلماء لرواة حديث الرسول ﷺ ، إلا أنها ترقى بالإنسان - إذا ما التزام بها - إلى مستوى خلافة الله عز وجل .

إن حضارتنا إذن، ليست إحدى الحضارات التى نبتت فى الأرض ، وإنما هى حضارة السماء .

ظاهرة إسلام الصفوة والإفادة منها :

إن الصفة العالمية للإسلام تقتضى عدم الانكفاء على الفكر الإسلامى بالشرق وحده والاقتصار على دراسة تراث علمائنا الذين وُلدوا مسلمين ، بل تقتضى عالمية الإسلام إضافة الدراسة الجادة للفكر الإسلامى النابع من الغرب، وحصيلة أذهان رجاله الذين وجدوا فى الإسلام ضالتهم المنشودة بعد رحلة العمر الطويلة .

لذلك كله، وبعد أن طوينا صفحات ملامح الفكر الإسلامى فى العصر الحديث لدى بعض علماء المسلمين، وانتهينا بعرض مجمل لآراء الرئيس على بيجوفيتش، بقى علينا فتح صفحات جديدة لنطّلع على رافد آخر من روافد الفكر الإسلامى النابع من التجارب والمعاناة من بعض الأوروبيين الذين نشأوا فى بيئة غربية، ثم اعتنقوا الإسلام بعد بحث ودراسة فاقتناع، وانطلقوا للدعوة إلى الإسلام والإسهام فى اقتراح الحلول للأزمات التى تعانى منها حضارتهم، بل ذهب بعضهم إلى تقديم الاقتراحات والحلول لأزمات العالم الإسلامى، كما فعل محمد أسد[1] ، ود/ هوفمان ومريم جملية وموريس بوكاي .

إن ظاهرة إسلام بعض الصفوة فى الغرب جدير باهتمام المعنيين بشئون الثقافة والفكر فى العالم الإسلامى، لا سيما أن الظاهرة تتسع. يقول روجيه دوبا سكويه (قابلت فى المغرب السفير الألمانى دكتور / مراد هوفمان ، الذى أخبرنى بإسلام شخصيات هامة فى ألمانيا، منها المتحدث باسم الحزب المسيحى فى بون، وسفير السويد السابق فى المغرب .

---

(١) يُنظر كتابنا (صيحة مسلم قادم من الغرب ، إسلام محمد أسد) ط ، دار الدعوة بالأسكندرية .

واتصلت بالأخير فقال فى معرض حديثه : الإسلام هو الطريق الطبيعى للمفكر الأوروبى)[1] . وربما يعارضنا البعض بأنها حالات فردية، ولكن النظرة المتأنية فى مجموع آرائهم تكشف أنها ليست صدى لتجربة فردية بل يمكن تعميمها إذا نظرنا إليها من زاوية اعتبارهم من الصفوة، إنهم لا يعبّرون فقط عن تجاربهم الشخصية بقدر ما يحملون على كاهلهم أعباء حضارتهم المزدهرة بالتكنولوچيا والتقدم العلمى، ولكنها تنوء أيضاً بأعباء التردى فى الحياة الإنسانية.

ويرجع ضرورة الاهتمام بهذه الظاهرة لعوامل كثيرة منها :

١ - دعوة المشتغلين فى الفكر الإسلامى بمختلف فروعه بضرورة الإفادة من آراء هؤلاء الصفوة .

٢ - ضرورة تعديل مناهجنا التعليمية للتخلص من النظرة الآحادية للثقافة الغربية فى العلوم والمعارف الإنسانية، والإفادة من الفكر الإسلامى الغربى لتوضيح الصورة الكاملة لهذه الثقافة بإيجابياتها وسلبياتها .

٣ - التحذير المتواصل للمفتونين بحضارة العصر، السّاعين لاقتباس ثقافتها وكأنها المنقذ من تخلّفنا بينما هى تعانى أزمة مستحكمة لاحلّ لها إلا من خارجها.

٤ - استخدام حصيلة فكر هؤلاء الصفوة كدرع فولاذى نحتمى به من طعنات الغزو الثقافى المدمّر لعقائدنا وهويّتنا وأجيالنا الجديدة .

فمنذ صدور كتاب (مستقبل الثقافة فى مصر) والأقلام عندنا تدّبج المقالات وتكتب المؤلفات عن ضرورة تقليد الغرب تقليداً تاماً للّحاق بركب التقدّم

---

(١) إظهار الإسلام ص ٧ ، مكتبة الشروق بالقاهرة ، سنة ١٩٩٤م ، ويقول ص ٩٢ (على أي حال إذا ظهر ازدياد معتنقي الإسلام اليوم فإنه يبقى في تعارض مع الاتجاهات الهدّامة في الحضارة العلمانية الحديثة)
ويُنظر كتاب (علماء الغرب يدخلون الإسلام) تأليف محمد حلمي ، ط النهضة العربية للصحافة والإعلان بالقاهرة ١٩٩٤م .

والعصرية والحضارة فى أرقى مراحلها !

وإذا كان الصخب يخفى صوت الحق إلى حـين ، فإن للحق رسوخاً وثباتاً لا يتزعزع مهما طال الزمن، فقد توالت الصدمـات المفجعة بعد حربين عالميتين أفنت الملايين وخرّبت المدن والديار، وزعزعت الثقة فى فكرة التـقدم المتواصل للحضارة المعاصرة، فـتعالت الأصوات بين فلاسـفة وعلماء الغرب تحـذّر من بداية الانهيار المرتقب وتطالب بحل الأزمة لإنقاذ الحضارة من الوقوع فى الهاوية .

هذا، وقد امتدّ بنا العـمر - والحمد لله وحده - فوجدنا فـى الغربيين أنفسهم من يجد الحلّ فى الإسلام ! واخترنا منهم ثلاثة :

١ - رينيه چينو .

٢ - د / مراد هوفمان .

٣ - روجيه دوبا سكويه .

وسنعـرض لبعض آرائهم من واقع مـؤلفاتهم، وكـان الثلاثة حـريصين على انتشـال الحضارة المعـاصرة في الغـرب من الأزمات االتي تهوي بـها، كمـا تهوى الدّوامات بالغريق فى البحر إلى القاع .

فهل هناك أزمة حقيقيـة ؟ وماهى أسباب ظواهرها ؟ أم أنها - عند البعض - تعبّر عن مجرّد رؤية تشاؤمية . يقول فوكـوياما : (قد أصبحنا بالغى التشاؤم فيما يتصل بإمكانية التقدم الشامل فى مجـال الأنظمة الديموقراطية ، وهو تشاؤم عميق لا أحسبـه عارضاً أو من قبيل المصادفـة وإنما هو ناجم عن أحداث سياسيـة رهيبة حقاً وقعت خـلال النصف الأول من القرن العشرين : حربان عالميـتان مدمّرتان ، وظهـور الأيديولوچيات الشـمولية ، واستـخدام العلم ضـد الإنسان فـى صورة

الأسلحة النووية وتدمير البيئة)[1] .

ويقول الدكتور / رشدي فكّار (إن روّاد الفكر وعمداء الفلسفة فى القرن العشرين يلتقون فى أن هناك مأزقاً حضارياً جاء نتيجة لأن إنسان هذا العصر، إنسان الحيرة، إنسان القلق، إنسان الإكتئاب، إنسان لا يشبع فى استهلاكه ويبحث دائماً عن الرفاهية وعن الرخاء)[2] .

أزمات العصر الحديث (فى الدين والعلم والفلسفة) :

نادراً ما يتفق العلماء والفلاسفة والسّياسيون على إحدى الظواهر كاتفاقهم على ظاهرة (أزمة الحضارة المعاصرة) ونظرة التشاؤم للمستقبل المحفوف بالمخاطر، منذ الحرب العالمية الأولى، مما دفع أستاذة التاريخ بجامعة كاليفورنيا أدريين كوخ إلى جمع آراء لفيف من الكتاب الفلسفيين والفلاسفة الدينيين، والفلاسفة الإنسانيين ونشرتها فى كتاب بعنوان (آراء فلسفية فى أزمة العصر) وسجّلت انزعاجها فى مقدّمة كتابها (لهذا القرن الفظيع ! مَنْ ذا الذى يتدبّر مسيره وتاريخه **ولا يحكم** عليه بالفظاعة ؟!، ومَنْ ذا الذى ينكر أن الثقة التى كانت تملأ نفوسنا عند مطلعه قد زالت من النفوس ؟!)[3] .

وعبّر شفيترر فى كتابه (المدنية والأخلاق) عن الأزمة بقوله: (إن موضوعى هو مأساة النظرة الغربية إلى العالم ... إن مدنيتنا تمر بأزمة حادة...)[4] .

---

(١) نهاية التاريخ وخاتم البشر ، فرانسيس فوكوياما ، ص ٩/ ١٠ ، ترجمة حسين أحمد أمين - مركز الاهرام ١٤١٣هـ / ١٩٩٣م ، ولكن فوكوياما يعبّر عن تفاؤله فيكتب مستطرداً (ومع هذا فإني زعيم بأن الأخبار السارة تطرق الآن أبوابنا) ص ١٠ .

(٢) د . رشدي أفكار، المفكر الإسلامي العالمي في : حوار متواصل حول مشاكل العصر ص ٥٥، بقلم خميس البكري، مكتبة وهبة، ١٤٠٧هـ - ١٩٨٦م .

(٣) (آراء فلسفية في أزمة العصر)، أدريين كوخ، ترجمة محمود محمود، مكتبة الأنجلو المصرية سبتمبر ١٩٦٣م .

(٤) نفسه ص ١٣ .

ونفس الملاحظة دوّنها الرئيس الروسى الأسبق جوربا تشوف، فوصف التهديد الذى ينتظر العالم بأنه لا يتمثل فى التهـديد النووى فحسب، وإنما فى جو مشاكل اجتـماعيـة هامة لم تحلّ، وضغـوط خلّفهـا التقدم العلمى والتنكـولوجى وتفاقم المشاكل العالمية، وتواجه البشرية اليوم مشاكل لم يسبق لها مثيل) (١) .

ويقول نيكسون الرئيس الأسبق لأمـريكا (وعلى الرغم من التقدم الهائل الذى حقـقه الانســان فى هذا القرن، فإنـه من الشائع أن تكون احـتمالاته للمـستـقبل سلبية)(٢) .

وسبقهمـا ونستون تشرشل فتنبأ بأن العصر الحجـرى قد يعود مرة أخرى على أجنحـة العلم البّراقـة ، وإن النعم المادية التى تغـمر الإنســان الآن ربما تؤدى إلى القضاء عليه تماماً) (٣) .

وسنعرض لآراء رينيـه جينو وهوفمان وروجيـه دوبا سكويه - على التوالي - وكلها تدور حول أزمة العالم المعاصر واقتراح الحلول لها .
فليس إذن من المبـالغة وصف أدريين كوخ أزمـة العصر الحـاضر بأنهـا فريدة فى تاريخ الإنسانيـة ، (فهى أعمق وأوسع انتشـاراً من أية أزمة أخرى عرفـها تاريخ الإنسان ، لأنها أزمة الوجود البشرى ذاته)(٤) .
إنها إذن ليست أزمـات عابرة تتصل بالخطط المرسومة لشـئون الاقتصاد والسـياسة والتسليح والتـعليم وغيرها، أى الأزمات التى تظهـر بوادرها بعد التطبيق فـيسارع العلماء، وأهل الاخـتصاص بتـعديلها، كـما حدث مثـلاً فى سنوات التنافس بين

---

(١) البيريسترويكا ، ميـخائيل جوربا تشوف ، ص ٨ ، ترجمة حمدي عبد الجـواد - ترجمة محمد المعلم ، دار الشروق يوليو ١٩٩٨م .

(٢) (١٩٩٩ - نصر بلا حـرب) ريتشارد نيكسون ص ٢٧ ، إعـداد وتقديم المشيـر محمد عـبد الحكيم أبو غزالة ،، مركز الأهرام للترجمة والنشر ، ١٤٠٩ هـ - ١٩٨٩م .

(٣) نفسه ص ٢٨ .

(٤) آراء فلسفية في أزمة العصر ص ١٥ .

روسيا وأمـريكا على غزو الفضاء ، أو الضـجّة التى أثيرت حول النظام التـعليمى الأمريكى بعد اكتشاف تقدم النظام التعليمى اليابانى .

لوكان الأمر كذلك لهان الخطب، ولما سبّب الانـزعاج الشديد الذى يلمسه الباحث من قراءة المصادر المتنوعة المعنية بالأزمة، فـهى تتصل إذن بأعمدة الحضارة **الدينيـة والعلمية والفلسفية** .

فمن حـيث **الديـن**: يقول هوفمان (إن المجتـمع التكنوقراطى الذى نعيش فيه فى الغرب، بعبادته للفرد وتأسيس أخلاقيـاته على مبدأ (دعه يعمل، دعه يمر) يواجه فى الحقيقة خطر التـدمير الشامل للأسس الأخلاقية التى ينمو عـليها هذا المجتمع ذاته، أى القيم وأنماط السلوك المتجذِّرة فى إيمان أجدادنا بالله) [١] .

ومن حيث **العلم**: (يقول هوسرل فى أول فقرة من كتابه أزمة العلوم الأوروبية عند نقده لأزمـة العلوم، وذلك تحت عنوان « أزمة العلوم بـاعتبـارها التعبـير عن الأزمة الحـقيقـية للانسانيـة الأوروبية »[٢] . فيكـتب مسجـلاً فقـد الإيمان المطلق بالعلم: (فهذا الإيمان المطلق فى العلم باعـتبار أنه يوصلنا إلى الحكمة، وهو ذلك الإيمان الذى كان قد حل محل الإيمان الدينى، قد فقد قوته عند الكثيرين .

إننا نعيش فى عالم أصبح البحث فيـه عن الغاية والمعنى عديم الجدوى بعد أن كان فيما مضى بحثاً لا يرقى إليه الشك)[٣] .

ويعبِّر جارودى عما سماه الأوهام التى تهاوت عقب الحربين العالميتين وانعكاساتها على **الفكر الفلسفى** فيقول : (وشاهدنا فى بحر سنوات معدودات أن الفلسفات التى كـانت قـد كتـبت لهـا السـيادة الـكاملة حتـى ذلك الحين - على الأقل فى

---

(١) يوميات ألماني مسلم ص ٨٠ .

(٢) من كتاب (نظـرات حول الإنسان) ، روجيه جـارودي ، ترجمة د / يحيي هويدي مطـبوعات المجلس الأعلى للثقافة بالقاهرة رقم ٢٧١ ، ١٤٠٣ هـ - ١٩٨٣ م.

(٣) نفسه ص ٣١ .

الجامعات – قد جرفها الطوفان، وانقلبت الليبرالية العقلية إلى اتجاه عدمى فاشٍ، وتحول المذهب التفاؤلى إلى وجودية مأساوية)[1] .

ونتيجة غلو نيتشه فى إلحاده (نزع النقاب من تلك الصورة للإنسان الأخلاقى والميتافيزيقى التى تعاون فى رسمها ألفان من السنين)[2] .

ثم جاءت بعض التصورات المذهبية لفلسفة البنيانية بإعلان موت الإنسان[3] . وأصبح الفرد فى صورة روائية، ليس فرداً ولكن (مجرد نقطة لقاء فى كل جزء من أجزائه لما يرد عليه من الخارج، فى غير أن يكون فى كيانه ما يسمح باعتراض هذا الوارد الخارجى وما يستعصى عليه)[4] .

وقد أجاد هايدجر عميد فلاسفة القرن العشرين فى وصف حال هذا العصر بأنه (عصر يبدو كقصر شامخ فى منظر كئيب . سادته يعانون من الأرق والملل والقلق، وخدّامه يقاسون من المرض والجهل والجوع)[5] .

هذه هي خلاصة تعليل الأزمات التي اقتصرت على رؤى جزئية من زوايا تخصص أصحابها الفلسفية والعلمية .

ولكن عندما يُنظر إليها بمنظار الآمال العريضة التي كانت معقودة على القرن العشرين لتحقيق الرخاء والحرية الفردية كما تخيلها الفلاسفة في أحلامهم لإقامة (المدن الفاضلة)، هذه النظرة ترتطم بالواقع المُخيِّب للآمال، فقد وصفت مؤلفة كتاب (المدينة الفاضلة عبر التاريخ) هذا الإخفاق بقولها { لقد أخفق القرن العشرين إخناقاً ذريعاً عندما حاول تحقيق الخطط اليوتوبية للماضي. أوجد دولاً

---

(١) نفسه ص ١٧ . (٢) ص ٢٩٣ .
(٣) ص ٢٩٣ . (٤) ص ٢٩٥ .
(٥) ص ٥٥ بكتاب (د . رشدي فكّار في حوار متواصل حول مشاكل العصر ، إعداد خميس البكري ، مكتبة وهبة ، ١٤٠٧هـ - ١٩٧٦م) .

جبَّـارة تتحكم في وسائل الإنتـاج والتوزيع، ولكنهـا لـم تقضِ على الجوع، دولاً شجَّعت الاكتشافات العلمية وطوَّرت الإنتاج، ولكنها فشلت في أن توفِّر للمواطن مستوى لائقـاً للحياة، وزعمت أنها حقـقت المساواة الكاملة، ولكنها خلقت بدلاً من ذلك طبقات جديدة مميزة وألواناً من عـدم المساواة ربما تكون أفظع مما سبقها، دولاً حوَّلت الناس إلى « ربوتـات » خاضعة لـلآلات التي تقوم على خدمـاتها، وجعلتـهم وحوشاً بتأثيـر الدعاية، دولاً أوجدت الظروف التي ينظر فيـها إلى كل فكر فردي على أنه جـريمة، ويتوقف فيها الأدب، والموسـيقى والفن عن أن تكون تعبيراً عن الفرد، وتتحول بـدلاً من ذلك إلى نفاق للنظام الذي حلَّت فيه العبودية للدولة، وآلهتها الجديدة محل الديانة القديمة }[1] .

(١) المدينة الفاضلة عبر التاريخ) تأليف ماريا لويزا ص ٤٤٣ .
ترجمة د/ عطيـات أبو السعود - مراجعة د/ عبـدالغفار مكاوي العدد رقم ٢٢٥ من كتـاب (عالم المعرفة) بالكويت ربيع الثاني سنة ١٤١٨هـ / سبتمبر سنة ١٩٩٧م .

[١] رأى رينيه جينو (المعروف بالشيخ عبد الواحد يحيى) فى أزمة العالم المعاصر

- فليسوف فرنسى، وُلد عام ١٨٨٦م لأسرة محافظة وأتم دراسته العليا فى بارس ١٩٠٨م، وفى ذات السنة أصدر رينيه مجلة علمية أطلق عليها (المعرفة) . . . وقد كان من الذين استعان بهم رينيه فى تحرير المجلة الشيخ (عبد الحق) . . وهو العلاّمة (شمبرينو) الذى كان قد سبق رينيه إلى الإسلام . . وقد تأثر به رينيه وتوطدت الصلة بينهما. كما اتصل بالشيخ عبد الرحمن عيسى، شيخ السادة المالكية بالأزهر الشريف وقتئذ .

وكان رينيه جينو مع اتصاله بالعلماء المسلمين وبمن أسلموا، لا ينقطع عن الدراسة للأديان عامة، والإسلام بوجه خاص، أشهر إسلامه ١٩١٢م بعد اقتناعه بأن القرآن الكريم هو الكتاب الوحيد الذى لم ينله التحريف والتعديل وتسمى باسم (عبد الواحد يحيى)، وحضر إلى مصر ١٩٣١م مندوباً عن إحدى دور النشر فى باريس لينقل إليها بعض النصوص الصوفية الإسلامية، فسكن فى حى الأزهر وتزيّ بزيّ علماء الأزهر المعروف حتى أصبح من يراه يحسبه عالماً أزهرياً مصرياً، وتزوج مصريَّة واستمر يشتغل بالتأليف والترجمة ويراسل المجلات العلمية الفرنسية حتى توفاه الله بمصر ١٩٥١ ، ومن أشهر مؤلفاته :

١ - أزمة العالم الحديث (الذى سنعتمد عليه فى دراستنا) .

٢ - الشرق والغرب .

٣ - كتاب رمزية الصليب .

٤ - أثر الثقافة الإسلامية فى الغرب[١] .

---

١) باختصار نقلاً عن كتاب (لماذا أسلموا) للدكتور عيسى عبده وأحمد إسماعيل يحيي من ص٢٠٥ إلى ص٢٠٨ ط دار المعارف بمصر ١٩٩٢م .

أزمة العالم المعاصر:

أقبل العلاّمة رينيه جينو (أو الشيخ عبد الواحد) على التراث الشرقى بتجرّد، متحرراً من نزعة التميّز المتوارثة عند أغلب المستشرقين لتراثهم الثقافى الغربى، ورأى بعين فاحصة السمات المميزة للحضارات الشرقية، وأبرزها ما سمّاه (التراث النقلى)، واعتبر الميتافيزيقا[1]. هى الجوهر والأساس، ووضع (الحكمة) فى مكانتها العالمية وفضّلها على (الفلسفة) لأن الطريق إلى الحكمة هو الحدس العقلى الذى جعله فى مصاف الإلهام، بينما طريقة الفلسفة هى (العقلانية).

وتبع مظاهر الانحدار فى ثقافة الغرب إذ هبطت من الحدس[2] وموضوعه الميتافيزيقا إلى مجرد توظيف العقل فى المحسوسات المادية، فأدى ذلك إلى تجميد العقلانية بواسطة ديكارت والانطواء تحت راية النزعة الفردية وبتر الصلة بين ماهو إلهى وماهو إنسانى، فانتهى بها المطاف إلى المذهب النفعى .

---

(١) الميتافيزيقا = مابعد الطبيعة ، وجاء في المعجم الفلسفي الصادر من مجمع اللغات العربية :

أحد أقسام الفلسفة ، وقد اختلف مدلوله باختلاف العصر تبعاً لقصره علي مشكلة الوجود أو المعرفة، ومن أهم هذه الدلالات :

أ - عند أرسطو والمدرسيين: هم علم المبادئ العامة والعلل الأولى ويسمي الفلسفة الأولى، أو العلم الإلهي .

ب - عند ديكارت : معرفة الله والنفس .

جـ - عند كانط : مجموعة المعارف التي تجاوز نطاق التجربة وتستمد من العقل وحده .

د - عند كونت : معرفة بين اللاهوت والعلم الوضعي، تحاول الكشف عن حقيقة الأشياء وأصلها ومصيرها .

هـ - عند برجسون : معرفة مطلقة، نحصل عليها بالحدس المباشر .

نقلاً عن كتاب (إظهار الإسلام) روجيه دوبا سكوبه، مكتبة الشروق بالقاهرة، ١٩٤٤ م ص٣١ .

(٢) الحدس : وهو مصطلح فلسفي، فإنه إدراك بالبصيرة، أو بالقلب أو بالوجدان، أو بالإلهام، أو بما تختاره من لفظ يؤدي معني الإدراك الذي يتم بصورة مباشرة بين الذات العارفة والشئ الذي تعرفه . تفسير الدكتور زكي نجيب محمود بكتابه (ثقافتنا في مواجهة العصر) س ١٢، ط، دار الشروق يناير ١٩٧٦م.

النقد الفلسفى :

إن المدلول الأصلى لكلمة (الفلسفة) معناه (حب الحكمة) كما وصفها فيثاغورث، ويرى رينه جينو أنها بهذا التعريف (لا تعدو أن تكون مرحلة للتمهيد وشوطاً فى سبيل الحكمة، كما أنها درجة أدنى من الحكمة ذاتها)، وقد تمثل الانحراف الذى وقع بعد ذلك فى النظر إلى هذا الشوط الانتقالى، وكأنه الغاية ذاتها ومحاولة إحلال الفلسفة محل الحكمة) .

ويرى جينو أيضاً أنه بسبب نسيان أو تجاهل طبيعة الحكمة الحقه (نشأ ما يمكن أن نسميه الفلسفة (الدنيوية) أى ما يُزعم بأنه حكمة إنسانية بحتة تندرج فى النطاق العقلانى وتحل محل الحكمة الحقه التى تستند إلى التراث ، وهى فوق المستوى العقلانى وهى غير إنسانية)[1] .

هذا الفكر العقلانى ظل يتزايد لينتهى إلى العقلانية (وهى اتجاه اختص به المحدثون ويتمثل فى إنكار كل ما يسمو على المستوى العقلانى إنكاراً صريحاً)[2] .

وتستمد أهمية أفكار جينو بأنها صدمت الآراء التقليدية حول مفاهيم متداولة حتى ظن الناس أنها صحيحة، كذلك وسّع آفاق دراسته لتشمل الحضارات الشرقية ليخفف من غلواء نظرة الاستعلاء الغربية التى ظن أهلها أنهم وحدهم أصحاب حضارة .

وألحّ فى طلب إعادة التراث النقلى الدينى إلى مكانته التى احتلها بجدارة فى الحضارات الشرقية، إذ لاحظ أن الحضارة الغربية تعادى روح العقيدة ، والتراث النقلى فقال: (وتواجهنا الآن فى العالم بحالته هذه جميع الحضارات التى تمسكت

---

(١) أزمة العالم المعاصر، رينيه جينو (المعروف بالشيخ عبد الواحد يحيى) ترجمة / سامي محمد عبدالحميد، دار النهار، بالقاهرة ١٩٩٦م ص ٥٦ .

(٢) ص ٥٦ أزمة العالم المعاصر .

بروح العقيدة والتراث، وهى الحضارات الشرقية من جانب وحضارة معادية لروح العقيدة والتراث النقلى من جانب آخر، وهى الحضارة الغربية الحديثة)(١) .

ومن أهم المسائل التى شغلته أيضاً صلة النقل بالعقل، لأن النقل يشمل على مجال العقل أيضاً (ولا بد للحضارة النقلية من أساس ميتافيزيقى مثل الصين والهند وتستند إليه أو أساس دينى مثل الحضارة الإسلامية والحضارة المسيحية فى القرون الوسطى، وهذا الأساس الثابت يشبه الفلك الذى تدور فيه الأجرام السماوية ولا تتخطاه ولكنها مع ذلك تدور ولا تكف عن الحركة ولا توصف بالجمود. وهذا يتفق مع قوانين الكون التى تأبى الخضوع للأهواء، ويعنى ذلك أن الحضارات تتجدد ولكن شريطة ألا تحيد عن المبادئ الميتافيزيقية أو الدينية العليا التى يفهمها رجال الصفوة ويعملون على بثها بين الناس على مختلف طبقاتهم بما يناسب كل طبقة)(٢) .

التحذير من فصل العلم عن المبادئ :

وأخذ يحذّر من استمرار دور الفلسفة والعلم (الدُّنيويين)، معللاً مظاهر الانحدار بتحول العلم - بعد فصله عن المبادئ - إلى (علم دنيوى) - (أى إنكار الفكر الأسمى الحقيقى وحصر المعرفة فى أدنى مستوى والبحث التجريبى والتحليلى لوقائع لا ترتبط بأى مبدأ)(٣) .

وكان سابقاً لعصره لأنه تنبأ بنتائج هذا الفصل الذى عانى منه العالم بتدمير المدن بالقنابل الذرية واختراع الأسلحة الكيماوية والجرثومية وخطر تلوث البيئة وإجراء التجارب الطبية على السّود فى أمريكا، وأخيراً - وليس آخراً - عملية الاستنساخ !.

---

(١) أزمة العالم المعاصر ، ص ٦٧ .

(٢) من مقدمة كتاب (أمة العالم المعاصر) بقلم مترجمة سامي محمد عبد الحميد ص ٢٠ .

(٣) نفسه ص ٥٩ .

ولئن أظهرت التطبيقات العملية التفوق الفعلى الوحيد للحضارة الغربية، إلا أنه أعطاها (طابعها المادى البحت الذى جعل منها مسخاً حقيقياً)[1] .

كذلك شاع (المذهب الانسانى) - لا بمعنى المحافظة على كرامة الإنسان وحريته وحقوقه - بل غايته حصر كل شئ فى أبعاد إنسانية بحته - أى الابتعاد عن السماء بحجة امتلاك الأرض)[2] .

ويرى العلاّمة عبد الواحد يحيى (رينيه جينو) أن هذه النزعة -النزعة الإنسانية- كانت الصورة الأولى (للعلمانية) المعاصرة (كما أن الرغبة فى النزول بكل شئ إلى مستوى الإنسان الذى اعتبر غاية فى ذاته أدى إلى الانحدار من درك إلى درك للوصول إلى أدنى ماهو خسيس فيه، وبذلك يتركز الاهتمام فى إرضاء نزعات الجانب المادى فى طبيعته، وهو سعى لا طائل فيه يُرجى من ورائه وذلك لأنه يخلق دائماً رغبات لم يكن لها وجود من قبل ولا يستطيع إشباعها)[3] .

وكان حريصاً أيضاً على مدّ جسور التفاهم بين الشرق والغرب، فهو فى سعيه لإصلاح شأن الحضارة الغربية الحديثة ولا يحمل لها العداء ، بل يعادى فقط (روح العصر الحديث)، ويبذل الجهد المناسب لإنقاذ (الغرب من فوضاه التى يتخبط فيها)[4] .

ويتعجب ممن يدافعون عن الغرب بينما هو الذى يهدد (باكتساح كل شئ واستدراج الإنسانية كلها إلى دوّامة نشاطة منطلقة على غير هدى)[5] .

ويرى الأوْلى الدفاع عن الشرق (لأن الشرق الحقيقى لا يفكر فى الهجوم أو السيطرة على أحد كائناً من كان، وكل ما ينشده إنما هو استقلاله وسكينته، وذلك مطلب مشروع)[6] .

وهكذا أسهم برأى صائبُ مخلص فميا يدور الآن حول ما يسمى (حوار الحضارات) !

---

(١) نفسه ص ٥٩ .　(٢) نفسه ص ٦٠ .　(٣) نفسه ص ٦٠ .

(٤) نفسه ص ٧٧ .　(٥) نفسه ص ٧٧ .　(٦) نفسه ص ٧٨

وهو يعارض من يعتقد بقرب (نهاية العـالم) وإنما الصحيح - فيما يبدو له - الاقتـراب من نهاية عـصر، أو دورة تاريخيـة، لا تمس غير عـالم الحيـاة الدنيا ، ويحث للعمل على قدر الطاقة لتهيئة المخرج من هذا (العصر المظلم)[1] .

هذا، وقد أبدى ارتياحه لاعتراف البعض بالأزمة التى تعترى العالم الحديث بعد التخلّص من أوهام الظن بأن الحضارة الغربية ستتقدم باطراد، وهي علامة مشجعة على إمكان عودة العقلية المعاصرة إلى جادة الصواب .

وممن تأثروا بكتـاباته الأديب الفـرنسى أندريه جـيـد (١٩٥١م) إذ كتـب مقـراً بذلك: (لقد علمّتنى كـتب جينو الكثير ولو برد الفعل عليهـا، إننى أعترف طائعاً مختاراً بعيوب القلق الغـربـى الذى مازالـت الحـرب بعض نتائجه . لكن المغامرة الخطيرة التى انطلقنا فى سبيلها دون حساب تستحق عناء المضى فيها حتى النهاية ، فقد فات أوان التراجع وعلينا أن نمضى فى المغامرة قدماً وأن نستمر حتى النهاية ! وهذه (النهـــاية) وهذا الطرف الـقـصى أظن أنه (الله) وســـوف نصل إليـــه عند دمارنا)[2] .

---

(١) نفسه ص ٤١ ، ٤٦ .

(٢) الإسلام والمسلمون في فرنسا : صادق سلام ، نقلاً عن (أزمـة العالم المعاصر) ، رينيه جينو ، ترجمة سامي عبد الحميد ص ١٧

٢ - آراء / هوفمان
بكتابه (الإسلام كبديل)

د / مراد هوفمان .

- ألمانى مسلم ، سفير ، مؤلف ، دكتوراه فى القانون من جامعة هارفرد ، اعتنق الإسلام يوم ٢٥ / ٩ / ١٩٨٠م ، ويقول فى كتابه (يوميات ألمانى مسلم) تحت عنوان (لم أملك إلا أن أكون مسلماً) .

بعد اتخاذه قرار إعلان إسلامه رسمياً ، فنطق بالشهادتين :

لا إله إلا الله محمد رسول الله

(نطقت بالشهادتين فى المركز الإسلامى بكولونيا « لا إله إلا الله محمد رسول الله، واخترت لنفسى من بين الأسماء الإسلامية اسم مراد فريد .

وأصبحت منذ اليوم - أى ٢٥/٩/ ١٩٨٠ مسلماً وهكذا بلغت مرادى).

ود / هوفمان وضع لأهم كتبه عنوان له دلالته فسمّاه (الإسلام كبديل)، وضمَّنه دعوته باتخاذ الإسلام بديلاً للانهيار الغربى [(١)] .

وبنظرة مقارنة بينه وبين الرئيس على بيجوفيتش قبله، نرى أن الثانى وضع الأساس النظرى العلمى والفلسفى بمنهج جدلى للإقناع بأن الطريق الثالث - أى الإسلام كما تبين لنا من دراسة كتابه - هو الأصلح للحضارة إذا أريد لها

---

(١) ص ٢٤٦ من الكتاب وقد رجعنا أيضاً إلي كتابيه : يوميات ألماني مسلم ، والإسلام عام ٢٠٠٠م ، ولكنه اشتهر بالكتاب أعلاه لما أُثير من ضجة حوله .

أن تبقى وتحقق العدالة والحياة الطيبة للبشرية، وكأنما قادنا إلى الطريق المستقيم، وجاء هوفمان بكتابه (الإسلام كبديل) ليفصل ما أجمله بيجوفيتش، ويتوسع فى الشرح والتحليل ليقنع قومه بأن الإسلام دين عالمى، ويعرض لعقائده ونظمه الاقتصادية والسياسية مدافعاً عن هذا الدين الذى تعرّض بواسطة القوى المعادية له (بنشر قصص الرعب المنفرّة . . . وملء أسماع شعوب أوروبا وغيرها بتلك القصص، كما تشهد بذلك وسائل الإعلام)[1]. ويقوم بدراسة مصادر الإسلام من الكتاب والسُّنة، وحضارته، ومجتمعاته، وبعض مذاهبه. وكتب فى المقدمة مسجلاً رأيه :

(كان الإسلام، إبّان الصراع بين العالم الغربى والشيوعية يستطيع أن يعتبر نفسه الطريق الثالث المباينة لهما، أى أنه الخيار الحرّ المستقل عن كليهما لفهم العالم والتعامل معه عقائدياً، أما اليوم فإن الإسلام يطرح نفسه بديلاً لكلا النظامين ، وذلك لتوفير الحياة على أفضل وجه، وتذليل مشكلاتها المستفحلة)[2] .

ولهذا فإنه لا يتفق فى الرأى مع فوكوياما صاحب كتابه (نهاية التاريخ وخاتم البشر) .

وفسّره د / هوفمان بأنه يحمل رسالة مضمونها اعتقاد الغرب (بصفة عامة أن أسلوب الحياة الأمريكى سيفرض نفسه على العالم) [3] .

ويقف بشدة إزاء هذا الأسلوب - أو الثقافة الواحدة - ، ويقول بلهجة حاسمة تحمل روح الفهم والإخلاص :

(إذا أردنا نحن المسلمين أن نترك وشأننا، فعلينا أن نجاهد جهاداً جبَّاراً لنحمى حقنا فى الاختلاف الثقافى فى عالم يسعى لفرض النموذج الغربى عالمياً)[4] .

---

(١) الكتاب ص ٢٢٣ .
(٢) ص ١٩ / ٢٠ .
(٣) ص ٣٠ .
(٤) نفسه .

ويضع لنا المنهج - كما سنرى - لإعادة تأسيس الفكر الإسلامى كما حاول قبله الشاعر الفيلسوف محمد إقبال، ويتلخص فى تحقيق التجديد :

وهوفمان - كسلفه جارودى - تشبّع بالثقافة الأوروبية بشقّيها الدينى والفلسفى، ويرى أنه (بعد إفلاس النظام والعقيدة الشيوعية منذ ١٩٩٠ وعلامات الخطر بأزمة روحية أخلاقية فى الغرب ، تمر المسيحية بتغيير فى المشروع، وما كان يسمى « مشروع التحديث » يتساقط أمام أعيننا).(١)

ولكنه يختلف عن جاروى بأنه تبوأ مناصب سياسية قرّبته من صانعى القرار، وأطلعته على أسرار وحقائق، فأخذ منذ إسلامه يوقظ فينا الوعى بما يحيط بنا من أخطار ، وما يُحاك حولنا من دسائس فكتب: (ويضع جنرالات النّاتو فى حسابهم أن أكثر المواجهات العسكرية احتمالاً فى المستقبل لن تكون بين الشرق والغرب، ولكن بين الشمال والجنوب، فالإسلام هو العدو المتنامى المرتقب)(٢) .

وقوبل كتاب هوفمان بثورة عارمة وكان إيذاناً بإعلان حرب شعواء ضده واتهامه بعدم الولاء لبلده . . إلخ .

وتوافقت هذه المخاوف مع التيار العام الذى اجتاح الغرب بعد انهيار الاتحاد السوفيتى وكتب جان مارى جيهنيو الأستاذ بمعهد الدراسات السياسية الفرنسى ليسجل المخاوف بعد تبدد الآمال (ومما يثير مخاوفنا التناقض بين- سأمنا نحن الذين تبددت آمالنا، والحزم الثورى لدى الإسلاميين، فكان بوسع الإسلام أن يقدّم مشروعاً سياسياً شاملاً بعد احتضار الشيوعية، وهو مشروع خطير الشأن بوجه خاص بعد أن فقدنا إيماننا بالديمقراطية لكل العالم) (٣) .

---

(١) الإسلام عام ٢٠٠٠ س ١٨ .

(٢) نفسه ص ١٧ ، وكان في مرحلة من مراحل حياته مدير مكتب استعلامات حلف الأطلنطي .

(٣) نهاية الديمقراطية ، جان - ماري جيهنيو ص ٨٦ ، ترجمة : حكيم طوسون - مكتبة الشروق يوليو ١٩٩٥م.

ضرورة التجديد :

لم يكتف د/ هوفمان بنقد الغرب بل أخذ ينقد أيضاً العالم الإسلامى بواقعية - سماها قاسية - لأنه يعانى بسبب إخلاصه من أحواله المتردية ساعياً إلى إيقاظ المسلمين من (السبات العميق والدعة والشك فى الذات ، وعقليتهم التى اعتادت تبرير المثالب) [1] .

ولكنه يدعو المسلمين المهتمين للعمل جميعاً (على تجديد الدين الإلهى، الأمر الذى نأمله جميعاً لصالح البشرية)[2] .

فبم يقصد بتجديد الدين ؟ هل يسعى إلى تطويره ليناسب العصر كما يتصور بعض المسلمين المهزومين نفسياً أمام حضارة العصر ؟

أم أنه فهم التجديد بمعناه الصحيح كما سبقه إلى ذلك علماء الإسلام النابهين .

يبدو من سياق عرضه للآية الكريمة ﴿ **إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ** ﴾ (سورة الرعد الآية ١١)، أنه فهم حديث الرسول ﷺ **(إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها)** مستعرضاً بعض أسماء العلماء المجددين، معقباً بقوله (إن الله سوف يساعدنا إذا غيرنا ما بأنفسنا)، ليس بإصلاح الإسلام، ولكن بإصلاح موقفنا وأفعالنا تجاه الإسلام) [3] .

ويصف مهمّة تجديد الإسلام بأنها مهمة هائلة لأنها تفترض تغييرات رئيسية فى المواقف والمداخل، لا بإجراء عملية جراحية لجعل الإسلام أكثر جاذبية، بل بإزالة الصدأ الذى يملأه من خارجه، وبهذا يستعيد جاذبيته الأصلية)[4] .

ويأتى شرح المقصود بإزالة الصدأ بقوله (فإذا نزعنا من الدين كل ما تراكم عليه من خارجه، رجع لأصله كجوهرة مصقوله برّاقة، يناسب العالم كله فى زماننا الحاضر: كديانه توحيدية نقية، تؤمن بالله وتسلم له تسليماً كاملاً[5] وهو

(١ , ٢) الإسلام عام ٢٠٠٠ ص ٧ .
(٣) نفسه ص ١٢ .
(٤) - نفسه ص ٦٩ .
(٥) نفسه ص ٧١ .

تشبيه بليـغ يصوّر فعلاً ما قام به المجدّدون على مدى تاريخ الإسلام[1] .

ويفضلّ النـفاذ إلى جوهر القـيم المعبـرة عن الإسلام فى شخص مـعتنقـيه لا الاكتفاء بالمظهـر، فيرى أنه من الأفضل التعرف على المسلم (فى كرمـه، خيريّته، صبره وجلده، عاطفـته، وتسامحه، علمه، إخلاصه ونجاحـه فى عمله، صدقه، أمانته، عدله، خشوعه فى الصلاة . .)[2] .

ويرى ضرورة إعمال مبدأ الاجتهاد لاسـتعادة المفهوم الأصلى للشريعة - أى ما جاء بالقـرآن والسُّنة ، والتميـيز بين الشريعـة والفقه - أى النظـام الكلى للقانون الإسلامى الذى بُنى من فهم واجتهادات الفقهاء[3] .

ويدخل ضمن التجديد أيضاً عودة العـالم الإسلامى إلى أصوله الصافية فى رفض تقديس الأولـياء، ويضرب على ذلـك بمثال صارخ حـول مايحـدث حول مـقابر (المرابطين) فى المغرب وغرب الجزائر، فيسميها **(الضلالات ذات الصبغة المسيحية)** التى زحفـت على الإسلام خلال بعض الـتيارات الصـوفيـة، التى ينبغى إزالتـها

---

(١) يقول الأستاذ / أحمد أمين رحمه الله :

(وكان المجددون يبعثون بحسب الحاجة إلي التجـديد، فكان الإمام عمر بن عبد العزيز مجدّداً في القرن الثاني لما يلي أمية ، وأخلقوا ومـا مزقوا بالشقاق وفرقوا، وكان الإمام أحـمد بن حنبل مجدداً في القرن الثالث لما أخلق بعض بني العـباس من إلباس السُّنة اتباع ما تشـابه من الكتاب ابتغاء الفـتنة وابتغاء تأويله وقالوا كان الأشعري مجدداً في القـرن الرابع بهذا المعني، والغزالي مجدداً في أواخر القرن الرابع ، وأول الخامس لما بزغت نزعات الفـلاسفة وزندقة الباطـنية، وكان ابن حزم مجـدداً في القرن السادس لما طغت الآراء على النصوص الشرعية، وكان ابن تيميـة وابن القيم مجدّدين في آخر القرن السابع وأول الثامن لما مزقت البدع الفلسـفية الكلامية والتصوفـية والإلحادية تعاليم الإسلام، ثم ظهـر مجددون آخرون في كل قرن، وكان تجديدهم منحصراً في قطر أو شعب كالشـاطبي صاحب الموافقات والاعتصام بالكتاب والسُّنة بالأندلس وولي الله الدهلوي والسيد محـمد صديق خان في الهند ، والمولى محمد بن بيـر عليا لبركوي في الترك ، ومحمد بن عبد الوهاب في نجد والشوكاني في اليمن) .

(ص ٢٠٦ ، ٢٠٧ من كتاب يوم الإسلام) للأستاذ أحمد أمين دار الكتاب العربي ، بيروت ١٩٥٢ م .

(٢) نفسه ص ٧٢ . (٣) نفصه ص ٧٣ .

والتخلُّص منهـا بحزم مقـرراً بيقين (هذا مما لا يجوز التـسامح فيه، فـالبحث عن وساطة يناقض أحد أهم مبادئ العقيدة فى الإسلام)[1] .

كذلك يطالب بكتابة سيـرة محكمة للنبى ﷺ لتنقيتها من الأساطـير لتساعد فى مجال الدعوة لأن الإسلام دون حصافة يخاطب راشدين أحرار الفكر[2] .

ولكن يبدو أن الدكتور هوفمان لم يطلع على بعض المصادر الموثوقة فى سيرة النبى ﷺ ، ونذكر منهـا: (زاد المعاد فى هدى خـير العبـاد محمـد ﷺ)، (خاتم النبين وإمام المرسلين) لابن القيم الذى اختصره الإمام محمد بن عبد الوهاب .

ومن الكتب الحديثة فى السُّنة : كتاب الأستاذ مـحمد لطفى جمعه (ثورة الإسلام وبطل الأنبياء)، وكتاب (الرحيق المختوم) للشيخ صفى الرحمن المباركفورى .

ومما يدخل الطمـأنينة فى قلوبنا وقلب هوفـمان أن توثيق السـيرة النبـوية المبـاركة موضع اهتمام من علمـاء المسلمين ، ونشير بصـفـة خاصـة إلى كتاب (صحيح السيرة النبوية) للأستاذ رزق الطرهونى الذى صدر منه جزءان .[3] .

---

(١) نفسه ص ٦٣ . (٢) نفسه ص ٦٤ .

(٣) مقال بعنوان (نحو توثيق السيرة النبوية المباركة) للأستاذ / محمد عبد الحكيم قاضي وهو يري أيضاً أن كتـابة السيرة النبـوية تحتاج في عصـرنا هذا إلى علماء محـدِّثين واعين ينقون عن هذا الموروث خبـثة، ويكتفون بالصحيح منه ، مجلة (منار الإسلام - الإمارات - ربيع الأول ١٤١٨هـ / يوليو ١٩٩٧م).

الإسهام فى تصحيح المفاهيم المشوّهة عن الإسلام فى أوروبا :

يبدى الدكتور هوفمان أسفه لأن الحروب التى شنها العالم الغربى قروناً بطولها على العالم الإسلامى لم يصحبها محاولة معرفة كنه الإسلام طيلة تلك القرون، إلا فى حالات منفردة ومن زوايا معينة تتسم جميعاً بالتحيز وعدم الموضوعية[1] .

ويشيد ببعض قلة قليلة من المستشرقين الجادة الذين التزموا فيها بالمنهجية المنطقية، ولكن البعض الآخر نظر إلى الإسلام إما بعيون القساوسة المبشرين بالمسيحية مثل جيب، أو علم الاجتماع الماركسى مثل رودنسون أو بطريقة الانثروبولوجيا المتخصص فى الأعراق البشرية ويعتبر المسلمين شعباً بدائياً يرى التعجيل بدراسته قبل انقراضه!

وكان معظم المستشرقين بوعى أو بغير وعى كانوا أداة لخدمة الاستعمار ، ومنهم من كان جاسوساً للغرب بالفعل مثل لورنس [2] .

ولكن ظهر اتجاه آخر فى الاستشراق منذ القرن العشرين بل الأقل يغلّب فكرة ولادة الحضارة فى المشرق ثم تحوّلت إلى المغرب ، وإن كثيراً من هؤلاء المستشرقين متعاطفون مع الإسلام وقد أسهمو بأبحاثهم بتصويب صورة الإسلام لدى الأوروبيين[3] .

ولكن مازالت الحاجة ملحة لنشر كتب هؤلاء، ومنهم الدكتوره / هونكة حتى يمكن إزالة الصورة المشوهة للشرق فى أذهان الأوروبيين التى اخترعتها الروايات الخيالية وأفلام ألف ليلة وليلة .

واستطاع د / هوفمان - كغيره من الباحثين عن الحق بتجرد - الخروج من دائرة

---

(١) الإسلام كبديل ص ٢١١ . (٢) نفسه ص ٢١٢ .

(٣) نفسه ص ٢١٤ .

تشـويه الإسلام الذى دأب عليـه أغلب المسـتشـرقين والمبشـرين التـابعين للدوائر الاستـعمارية ، وتابع الآراء الصـحيحـة المبنيّة على الدراسة الأمـينة، وأسهم فى تصحيح الأخطاء التى لا تكاد تخلو منها الدراسات المتحيّزة . .

والواقع أن دائرة الاستـشراق فى ألمانيـا تذخـر بعلمــاء على شاكلـة هـوفمان، من أبرزهم الأستاذ مـحمد أسد (ليوبولد فايس قـبل إسلامه) الذى علل ظاهرة تشويه الإسلام بالإحساس بالقهر أمام عظمـة الحضارة الإسلامية عندما احتكت بها جيوش أوروبا فى الحروب الصليبية .

وتتعجب المستشرقة الألمانية هونكة مرّة من معرفة الغربى السطحية بطبيعة العرب والمسلمين مما يخـالف خلق الغـرب وطبعـه وطبيـعتـه ، ومرّة أخـرى من وصف الإسلام ظلمـاً بأنه يشكـل خطـراً يتهـدد البـشريـة فتـقـول: (وحسبك مـثال واحــد فريد فى نوعــه إبان تلك العصــور لتفنيد تلك التخرّسات، ولك أن تقول الوجه المشـرق لتلك الميدالية الحـالكة السواد ، والذى أشرق على البـشرية حقـبه مباركة لم تكن بالقصيرة وإنما قرابة ثمانية قرون: نعنى إسبانيا)[١] .

وهناك أيضاً حالة خاصة يعبّر عنها الفيلسـوف الفرنسى الشهير فولتير تستحق العناية والاهتمام من جانب الباحثين، إذ مما يلفت النظر، أنه بعد تنحيه عن أقواله الأولى المتسرعة عن الإسلام والرسـول ﷺ ، ظلت المؤلفات تردد كلماته السابقة أى قبل تحوله إلى مـرحلة تصحيح المفاهيم، وهاهى آراؤه الأخيـرة وفحواها (ولا يزال القرآن فى واقع الأمـر، يشتهر إلى اليـوم بأنه الكتاب الأكثر تميّـزاً، وسمواً، الذى كتب هذه اللغة (العربية) ، لقد ألصـقنا بالقرآن مالا نهاية له من السفاهات التى لم تكن به على الإطلاق) .

ثم فنّد الشـدة المزعومـة فى معـاملة النساء بقـوله : (كان يكفى مع ذلـك قراءة

---

(١) كتاب (الله ليس كذلك) ترجـمة د / غريب محمد غريب ، ص ١٢ ، ٥٢ ، دار الشـروق - مؤسسة بافاريا، مجلة النور الكويتية ١٤١٦هـ - ١٩٩٥ م .

السورتين الثانية والرابعة من القرآن حتى يهتدى الناس إلى الحق).

ودفاعاً عما يُنسب للرسول ﷺ ، قال : (كما أننا لا نستطيع أن ندينه على عقيدته فى الإله الواحد ، فهذه هى كلمات السورة رقم ١١٢ تقوله: ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝١ اللَّهُ الصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ ۝٤ ﴾ .

إننى أقول إن هذه الكلمات أخضعت له الشرق أكثر مما فعل سيفه، وفى كلمة موجزة، فإن شريعته صالحة، وعقيدته تدعو إلى الإعجاب به)[1].

حديث هوفمان إلى رفاقه المسلمين فى الغرب :

سجلّ هوفمان الاقتراحات المتداولة للأخذ بيد شباب الغرب من الضياع والتأرجح بين بدائل الماركسية، ومذهب الخضر والبوذية، وكان حينئذاك رئيساً للمؤتمر السنوى (للناتو) لمديرى الإعلام بوزارات الدفاع المكلفين بعرض اتجاهات الرأى العام فى المدى المتوسط (نوفمبر ١٩٨٤م) [٢] .

وكان من رأيه أن الشباب محبطون ومتبلدون عاطفياً وقد تزعزت ثقتهم فى الديمقراطية المطبقة ومؤسسات الدولة، وشبّه هذه الظواهر بقمة جبل جليدى تخفي تحته تفسخات إجتماعية وثقافية وهى تشكل أعراض التداعى الهيكلى الزاحف على العالم الغربى[٣] .

وكان لا بد من إيجاد حلّ لوقف أسباب التدهور الدينى فى الغرب ، لأن المجتمع الغربي مدين- للقيم اليهودية المسيحية - فى تثبيت دعائمه .

---

(١) القاموس الفلسفي لفولتير، المجلد السابع، نقلاً عن اللواء / أحمد عبد الوهاب بكتابه (الإسلام في الفكر الغربي) ، دين ودولة وحضارة ص ٥٠ ، ٥٣ ، ٥٤ ، مكتبة التراث الإسلامي بالقاهرة ص ١٩٩٣م.

(٢) يوميات ألماني مسلم ص ١٤٦ .

(٣) نفسه ص ١٤٦ ، ١٤٧ بتصرف .

وعندئذ قام أحد المندوبين فسأل عما إذا كان هناك فرصة لحدوث صحوة دينية فى الغرب ؟، ووقف هوفمان ليعلن بكل جدية واقتناع أن الحل فى دين الفطرة (أى الإسلام) .

وظن المستمعون أنه يمزح[1] !، مع أنه كان فى غاية الجدية، ومقتنعاً بصحة ما اقتراحه تمام الإقتناع وتعالوا نستطلع حجج الرجل من كتابه (يوميات ألمانى مسلم) الذى يتسم بالصدق مكتفين باختيار ما سجّله من الأسباب التى حوّلته إلى الإسلام بعد الدراسة والتدبر والمقارنة، بدءاً بالإيمان بالله عز وجل وتوحيده ، وتصديقاً برسالة الرسول ﷺ .

يتبين من قصة إسلامه أنه دأب على الاطلاع على مؤلفات من سبقوه بالإيمان، وظل يسير على طريق الهداية شوطاً بعد شوط، وكل حقيقة يكتشفها تُسلمه إلى أخرى .

وكانت له صلات أيضاً بمن سبقوه وأهمهم محمد أسد - وهو منحدر من أصل يهودى - وقد أسهم إسهاماً عظيماً فى شرح ونشر الإسلام فى الغرب (٦٥ يوميات)، وكان فى مقابلاته معه دائم السؤال عن إنجازاته العلمية والأدبية فى سبيل الإسلام (ترجم وعلق على الجزء الأول من أحاديث البخارى ، سنوات الإسلام الأول، وكذلك ترجم معاني القرآن الكريم كله ، رسالة القرآن) [2] .
وكان محمد أسد يأمل منذ الثلاثينات فى أن (يشغل الإسلام الفراغ الناجم الذى سيخلفه رحيل الإلحاد الغربى والشيوعى من مسرح الأحداث فى حالة إفلاس روحانى) [3] .

ويأسف د / هوفمان لأنه بالرغم من تحقيق النبوءة جزئياً، ولكن لم يتم الاعتراف

---

(١) نفسه ص ١٤٨ .   (٢) يوميات ألماني مسلم ص ٦٧ .
(٣) نفسه ص ١٩٢ .

بالإسلام كبديل، وسبب أسف أنه (من دولة إسلامية قد استطاعت أن تطوّر نفسها بطريقة تجعل الغرب ينظر إليها كنموذج مضاد مقنع وجذاب) [1] .

أى أنه يرى أن هذه الطريقة هى أقوى الطرق فى الدعوة إلى الإسلام، وتناسب عقلية الإنسان الغربى الذى يقتنع عن طريق الواقع، وتزيح عنه التعصب.

وهو اقتراح عملى سبقه به منذ سنوات الدكتور عماد الدين خليل الذى قال : (... فالنظام والحل الإسلاميان للمشكلة الحضارية المعاصرة موجودان فى الحقيقة، على الأقل نظرياً، ولكن تطبيقهما فى حيز من الأرض الإسلامية غير موجود، ولو استطاعت بعض الدول الإسلامية ،فى العصر الحاضر أن تقوم بالتجربة الإسلامية العقائدية، لقدّمت مثلاً عملياً منظوراً لإمكانية الحل والخلاص من بأسى الحضارة المعاصرة ، ولحققت بذلك هدفين :

أولهما : إنقاذ الإنسان الشرقى المسلم من مأساة وجود المتغرّب المريض .

وثانيهما : حمل رسالتها الحضارية، للعالم الغربى الذى ينتظر الخلاص)[2] .

كذلك اقتفى د / هوفمان أثر أحد المهتدين للإسلام - وهو الرَّحالة سير ريتشارد بيرتون (١٨٢١ - ١٨٩٠ م) الذى خاطر بمغامرة السفر إلى المدينة ومكة ، وتوغل فى العقيدة، والتاريخ واللغة والثقافة الإسلامية إلى درجة لم يسبقه إليها أحد، ولكنه لم يستطع التغلب على الحاجز النفسي عند مواطنيه بسبب تعصبهم ضد الإسلام[3] .

وكان يُتابع إصدارات الكتب عن الإسلام، ويجمع نتائجها المؤيده لصحة الإسلام، حتى ولو كانت من غير المسلمين، ومنهم د / بول شفارتسنا وهو أستاذ

---

(١) نفسه .

(٢) تهافت العلمانية ، د / عماد الدين خليل ص ١٦٧ ، مؤسسة الرسالة ١٣٩٥ هـ - ١٩٧٥ م.

(٣) يوميات ألماني مسلم ص ٣٩ .

بروتستانتى فى أصول الدين - وقد ألفّ كتاباً بعنوان (القرآن - دليل المسيحيين)، فـوصف فيـه لاالقرآن بأنه صـحيح (ووحى غـيـر مخـتلق، وأنه على الرغم من الأحداث التاريخيـة الواردة فيه، إلا أنه مستقل عن أى سـياق تاريخى ، لا يحدّه زمان ومتضمن للـحقيقة المركزة، وشبّه القرآن ببلـورة دوّارة متعددة تصوّر نور الله فى انعكاسات لاحصر لها) [١] .

وتأكد من صدق نبوة نبينا محمد ﷺ عندما تتـبع حياته وسيرته معتمداً على كتابين أحـدهمـا كتاب السـيرة لابن اسحق والثانى بعنـوان (مـحمـد ﷺ ، حياته منتقاه من أقدم المصادر) نيويورك ١٩٨٣ لمارتن لنجر .

وأبدى ذهوله من سلوك الرسـول ﷺ ذات الطابع السياسى - دسـتور المدينة وصلح الحديبية - وقيادته العسكرية الفذّة .

مع نجاحه فى التـجارة وحكمته كقـائد وقدرته الخطابية وبلاغته ، واسـتعراض هذه الحياة الحافلة يرى أنه ليس هناك من تفسـير هذا كله لعربى محروم من التعلم أمى، ينتمى إلى مـجتمع متخلف إلا الإقـرار بأن هناك شيئاً غـريباً فى هذا الأمر هناك شئ إلهى فى هذا الأمر) [٢] .

وأمام الحـياة المضطربة المليئـة بالجرائم والأمراض - وعلى رأسـها « الإيدز » - يرجح التفسير الصـحيح بأنها نتيجة مخالفة القـواعد التى سنّها الله تعالى للسلوك الإنسانى، فـهى (نتائج طبـيعـية صرفـة للعيش فى تناقص وتعـارض مع النظام الفطرى للحقيقة التى نحن جزء منها) [٣] .

وهو يعطى لما سمّـاه بقانون السلوك الإسلامى -أى الشريعـة- اسم «الصراط»، ثم يستطرد مبـيناً ضرورة البقاء عليه (وكـثيراً ما يطلب المسلمون فى دعـائهم البقاء على هذا الصراط كلما قرأوا فاتحة القرآن، طالبين الهداية إلى الصراط المستقيم)[٤] .

---

(١) نفسه ص ١٢٢ .

(٢) يوميات الماني مسلم ص ١٨١ .

(٣) يوميات الماني مسلم ص ٣٧ .

(٤) نفسه .

ويستمـر الدكتور / هوفمان مـسجلاً بكتابه « يوميـات ألمانى مسلم » ألواناً من الحياة السعيدة التى تتحقق فعلاً من اتباع تعاليم الإسلام ، عندما يحرّم المسلم على نفسه شرب الخـمر وأكل الخنزير وباقى المحرمات ، ويتطهر ويتـوضأ للصلاة مؤدياً سائر الشعـائر ، ثم يشرح آثار ذلك كله على حياة الإنسان بحـيث ينشرح صدره وتتحقق الصحة الجسمية والنفسية ويتخلص من آفات حضارة الغرب[1] .

ولئن كان حـديثه موجـهاً فى المقام الأول لرفـاقه المسلمين فى الغـرب، فلا يمنع ذلك من تقديمه لضحايا التغريب من بنى جلدتنا كأحد وسائل الإقناع لرجل خاض التـجربة وهى أقـوى البراهين، فـإن العالم الفـيـزيائى فى معـمله يدرس الظاهرة وموضوعهـا وهى بعيدة عنه أى لا يندمج فيهـا بأحاسيسه وعواطفـه وجوارحه ثم يجرى التجارب ويستقرئ النتائج ويضع النظرية وفقاً لها، أما فى مثل هذه الظاهرة الدينية الفذة، فإن الإنســان يندمج بكيانه كله فى التجربة، فيـقرأ ويتدبر ويفحص ويقارن، ثم يأتمر بالأوامر وينتهـى عن النواهى الإلهية، ويظل يكتشف شيئاً فـشيئاً مع تجاربة كمـسلم حديث عهد بالإســلام - نتائج جديدة، تعمُّق فى نفـسه عرى الإيمان متذوّقاً حلاوته، فصدق عندما قال (وهكذا أدركت وقد هزتنى الحقيقة)[2] .

ويفيدنا د / هوفـمان بتجربته وتجارب المسلمين المعـتنقين للإسلام فى الغرب، فى تلقى ثلاثة دروس هى :

الأول : إقناع بعض مثقفينا المُصريّن على التغريب بعدم جدوى هذا الإصرار، إذ يدعو هوفـمان وغـيره من مـسلمى الغرب إلى اتخـاذ الإسلام بديلاً للانهـيار الغربى)[3] .

الثانى : إفحام بعض المشككين من المستشرقين المتذرّعين بظاهر أحوال المسلمين المعاصرين فيتساءلون متهكميّن .

---

(١) يوميات ألماني مسلم ص ١٨١ ، ١٨٢ .
(٢) يوميات ألمني مسلم ص ٧٣
(٣) الإسلام كبديل ص ٢٤٦ .

(أى إسلام يريـدنا المسلمون أن ندرس: هل إسـلام المغرب العـربى أم إسلام الهند أم إسلام إيران أم إسلام . . . .)

وقد ألقى مستشرق نفس السؤال بهذه الصيغة فى إحدى المحاضرات فانبرى له الدكتور / مانع الجهنى بسؤال مضاد :

(إنك كشخص متخصص فإن مصادر الإسلام معروفة فى مقدمتها الكتاب والسنة، وعليك إذا أردت أن تتعرف على الإسلام أن تدرسه من مصادره الأصلية وليس من خلال أتباعه)[١] .

الثالث: عرف حقيقة الشمول في الإسلام فلم يقدمه لغيره من الأوروبيين من زوايا جزئية - كما يحلو للبعض أن يفعل (أى المأوى الروحى) لكى يوزان عند الأوروبى بين احتياجات البدن، واحتياجات الروح، أو اعتبره ملاذاً (للمضطهدين والمهمشين والمبعدين)[٢] وكأنه مجرد حزب سياسى يحقق المساواة والعدالة لأتباعه.

لم يفعل د / هوفمان شيئاً من ذلك لأنه فهمه على حقيقته وقيامه بتنظيم شئون الحياة الإنسانية ـ على أكمل ـ وجه لأنه الدين الخاتم، والرسالة الأخيرة للبشرية، فإن (محمداً -ﷺ- لم يدع مطلقاً بأنه قد جاء بدين جديد وإنما كانت رسالته هى تجديد وإتمام دين الله الواحد، إنه التسليم والخضوع)[٣].

صحيح إن الإسلام يغذى فى الإنسان الروح ولكن يتعامل معه كبدن أيضاً، وهو

---

(١) مجلة الحرس الوطني، بالرياض، العدد ١٦٤ / ١٦٥، ذو الحجة ١٤١٦هـ ، مارس / إبريل ١٩٩٦م، (ملف العدد : الإسلام وصدام الحضارات) ص ٩٦ .

(٢) وهو رأي الأستاذ / أحمد عباس صالح، عندما وصف مظاهرة المسلمين السود في أمريكا التي قُدرت بنحو مليون شخص بأنها تجسيد للشعور بالاضطهاد، مقال بعنوان (الفردية والنفعية في الثقافة الغربية) الشرق الأوسط في ١١ / ٧ / ١٩٩٧م .

(٣) يوميات ألماني مسلم) ص ١٠٦ .

ينظم حياة الفرد والمجتمع ، ويتضمن أسس النظام الاقتصادى والسياسى .

وباختصار فإن هوفمان يضع الإسلام كدين وحضارة مقابل حضارة الغرب برمتها (لأن القانون الإسلامى يرى نفسه بكل ما فى الكلمة من معنى مأخوذاً من الوحى السماوى أى أنه قانون إلهى أو سماوى)[1] ويصف المخطط الإسلامى لفلسفة الحياة (والذى يفرض نفسه بديلاً، قادماً من بيئة مخالفة، مواجهة حقيقية تصدم الفلسفة العصرية الغربية، وجهلها بالقيم، وإباحيتها المطلقة لكل شئ، حسب التعبير الأمريكى - لا شئ ممنوع - هذه المدينة العصرية الغربية تصطدم بالمخطط الإسلامى المضاد الجاد، الذى يراه البعض قديماً بالياً لا لشئ سوى قيام صرحه واستمراره ، غير مرتبط بعنصر الزمان، بمعنى صلاحيته لكل العصور [٢] .

مع امتداد تصور الحياة بطرفيها فى الدنيا والآخرة، فإن المسلم (يحيا فى دنيا لا تساوى شيئاً إذا قيست بنعيم الآخرة، أو كما علّمه القرآن الكريم ﴿ **وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلَلدَّارُ الآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلا تَعْقِلُونَ** ﴾ (سورة الأنعام الآية ٣٢) .

ومنذ إسلامه وهو يلقى المحاضرات والدروس على المسلمين فى كل مكان، وكانت جهوده الأخيرة فى أمريكا حيث قام بجولة لإلقاء محاضرات ومقابلات مع الجالية الإسلامية الأمريكية فى عدد من المدن الأمريكية، وقال عن زيارته إن الغرض منها هو بناء جسور وأن نعمل كل مافى وسعنا، لنؤكد بأننا لسنا قادمين علي صراع حضارات[٣] .

وفى مؤتمر الإسلام والغرب الذى عُقد بالقاهرة فى ربيع الأول ١٤١٨هـ ، ١ يوليو ١٩٩٧ ، صرّح بأن فرصة الإسلام فى الانتشار فى أمريكا أفضل بكثير من فرصته

(١) ص ١٧٨ الإسلام كبديل . (٢) نفسه س ٢٠٦

(١) مجلة العالم الإسلامي بمكة المكرمة ، ٤ - ١٠ صفر ١٤١٨هـ .

فى أوروبا لأن أوروبا تخلّت عن الدين عموماً ، ومازالت تنظر إلى الإسلام بعيون العداوة والحقد الذي تركته الحروب الصليبيــة والفتوحات الإسلامية ، بينما الوضع يختلف فى أمريكا حيــث ينتشر الإسلام بسرعة حتى أنه من بين كل خــمسة أطباء فى أمريكا يوجد طبيب مسلم [١] .

العلمانية فى الغرب لا تعادى الدين :

ويرى هوفمان أن نموذج العلمانــية السياسية محقــق أتم ما يكون فى فرنسا، ولكن هناك وشائج وترابط بين الدين والدولة بصورة ما فى أمريكا وبريطانيا وألمانيا - أى أنهــا لا تعادى الديــن هناك - والأدلـــة على ذلك كثـيرة مــعهــا (تدريس الدين بالمدارس ، وأداء الصلــوات فى المدارس، والضــريبــة التى تُستـــقطع من رواتب المسحيين للكنيسة ، والأعياد المسيحية و(تقديس) يوم الأحد) [٢] .

يحتل إذن الدين مكانته الــهامة اجتماعــياً وسياسياً فــى الغرب، وتُخفى علينا بعض الأقــلام عندنا هذه الظاهرة عن عــمْــد، لنلقى بالدين وراء ظهــورنا، ولكن هوفــمان الأمين فى نقل صــورة الدين هناك، يعرّفــنا بمكانة المسيــحيــة فى النظام الاجتماعى، وفى تحديد علاقته بالسياسة عندما يتحرك ليؤدى دور استثارة الغربيين لمواجهة الإسلام، والتحذير من المسلمين ! بل إن الأساقفة الكاثوليك يشيرون رمزاً باجــتناب التصــويت لبــعض الأحــزاب، أليس هذا التصــرف تدخــلاً فى أعمــاق السياسية ؟!

---

(١) اللواء الإسلامي بالقاهرة، ١٢ ربيع الأول ١٤١٨هـ، ١٧ يوليو ١٩٩٧م .

(٢) ص ١٣٧ ، الإسلام كبــديل، ويقول في كتابه (الإســلام سنة ٢٠٠٠) (في ألمانيا ، الله معــتبر في الدستــور . . . يقسم الجــنود بالله على ولائهم للجمــهورية والدفــاع عنها . . للكنائس الحــق في قرع أجراسها، التجديف جريمة يعاقب عليها قــانون العقوبات، أشار الأساقفة الكاثوليك - رمزاً - باجتناب التصويت لبعض الأحزاب) ص ٤٢، وبعد أن يذكــر تشابه الأحوال في البلدان الأوروبية الأخرى وفي أمريكا يقول (أما في فرنسا فالعلمانية تؤخذ على أنها دين) .

وأمام هذه الحقائق التى لا تخفى على أحد، يعلق هوفمان على الوسواس الأوروبى ضد قيام حكومات إسلامية للخوف من أنها لن تتوافق مع الحكومات العلمانية فى الغرب ، فيقول ساخراً :

(يكون نفاقاً صريحاً رفض الحكومة الإسلامية لأنها ليست علمانية)(١) .

وهناك مؤشرات أخرى إضافية - كما سيأتى - تقودنا إلى رؤية أكثر وضوحاً للحيّز الذى يشغله الدين فى الثقافة الغربية، كغيرها من ثقافات الأمم الأخرى ، إذ إن التأثير الدينى - فى دراسة للأستاذ محمد الرابع الندوي - يشغل حيزاً كبيراً من حياة الأمة الثقافية، بعد ملاحظته أنه فى أغلب الأحيان لا نفطن إلى ذلك، ثم يدفعنا دفعاً للتدقيق فى النظر إلى بعض المعالم التى أدهشته، فيقول :

(ولكن نظراً مُمعناً فى ذلك يكشف هذا الواقع، ومثال ذلك فى حياة الغرب المسيحى إبراز شكل صليب فى العمارات، وفى المظاهر المدنية والثقافية المختلفة، فأقواس الأبنية وأبراجها تشبه أقواس الكنائس وأبراجها أحياناً، وشعارات الهيئات الصحية وجمعيات الإغاثة توجد على شكل صليب، ومنعرجات وثقوب في الجدران والحيطان قد ترمز إلى شكل صليب، والكرافتات المعقودة حول الرقاب ترمز إلى شكل صليب . .)(٢) .

ويتبين مما تقدم أن أبواق الثقافة الغربية المتسللة إلى عقولنا نجحت فى إبعاد صور الدين لحكام الغرب وشعوبه ليسهل عليها خداعنا بترك ديننا وراء ظهورنا، فإن حكام بريطانيا وهولنده واسكنديناڤيا، يعترفون جميعاً أنهم مسيحيون . . . وقد وقف هذا الموقف قادة كثيرون فى الولايات المتحدة، فالرئيس روزفلت كان معترفاً بمسيحيته وناظراً لكنيسة أسقفية، والرئيس ترومان بعد مؤتمره الصحفى الأول طلب أن يصلّي لأجله .

---

(١) الإسلام سنة ٢٠٠٠ ص ٤٢ .

(٢) الثقافة الإسلامية والواقع المعاصر ، محمد الرابع الحسني الندوي ص ٥٨ ، دار الصحوة بالقاهرة ، ١٤١٠هـ / ١٩٩٠م .

ولما جاء رئيس أفريقى وثنى إلى الملكة فيكتوريا متسائلاً (إلى من تنسبين ازدهار الامبراطورية البريطانية، دفعت إليه كتاباً مقدساً وقالت ببساطة (إلى هذا الكتاب).

وكان الإبراطور الألمانى القيصر فلهلم - دارساً للكتاب المقدس - وكان يعظ فى (كنيسة) القصر أحياناً (١) .

وعندما انتقلت قيادة العالم إلى أمريكا، كان لبعض رؤسائها مواقف دينية ثابتة فقد ألقى الرئيس الأمريكى الأسبق جيمى كارتر خطاباً فى سياسته الخارجية مع إسرائيل، أمام « الكنيست الإسرائيلى » فى شهر مارس ١٩٧٩ قال فيه : (لقد آمن وأظهر سبعة من رؤساء الجمهورية إن علاقة الولايات المتحدة الأمريكية بإسرائيل هى أكثر من علاقة خاصة، لقد كانت ولاتزال علاقة فريدة، وهى علاقة لا يمكن تقويضها لأنها متأصّله فى وجدان وأخلاق ودّيانة ومعتقدات الشعب الأمريكى نفسه . . . إننا نتقاسم معاً ميراث الثورة، وبالقدر نفسه من النجاح تمكنت الصهيونية من التأثير الروحى على أوساط الكنائس الأمريكية ، الذين صاروا يعتقدون أن نزول المسيح المخلص مرتبط كل الارتباط بقيام إسرائيل الكبرى، ومن هذا المنطلق تستخدم هذه الكنائس، فى غالبيتها كل إمكاناتها لحشد التأييد لإسرائيل فى أوساط الرأى العام الأمريكى)(٢) .

الأصولية والسلفية :

يستبعد د / هوفمان أولاً شرح مصطلح (الأصولية) بأنه تعصير الدين لكى يتفق ومتطلبات العصر، ولكن المصطلح الغربيFunda mental ism ليس له مطابق فى العربية لأنه يطلق على ظاهرة (غربية) فاستعمل أولاً لتمييز

---

(١) نبوة إشعيا ، تفسير سفر إشعياء ، هـ . آ : ايرنسايد ص ١٧٩ ، تعريب س . ف باز ص ٢٠٧ ، دار الحياة - عمّان ، الأردن (المقدمة بتاريخ ١٩٥٢) .

(٢) مقال بعنوان (مستقبل الصراع العربي الإسرائيلي - دراسة في الحرب القادمة) ص ١٧٧ مجلة (منبر الشرق - يصدرها المركز العربي الإسلامي للدراسات) ذو القعدة سنة ١٤١٢هـ ، يونيو ١٩٩٢م .

الأمريكيين البروتستانت فى القرن التاسع عشر الذين أكّدوا عصمة الإنجيل فى قصة الخلق رافضين النظرية الفجة عند دارون ، وينسحب أيضاً على القائلين من اليهود بالعصمة المطلقة لتوراتهم[1] .

ثم يأتى بتعريف الأصولية فى الإسلام ، وهى (عبارة عن موقف فكرى ورؤية عالمية ، وبالمعنى البعيد أيضاً لحركة - ترى الالتزام بالإسلام ، كما هو فى أول عهده وكما عرفه السلف الصالح من الصحابة ، منطلقاً ومثالاً يُحتذى به فى صياغة المعايير والقيم وقواعد السلوك والمعاملات فى عملية بناء الحاضر)[2] .
وهو تعريف يتوافق مع (السلفية) فى رأينا. ثم الإمام أحمد بن حنبل بوصفه صبغ الإسلام بالمذهب الفقهى كما يعرفه السنّيون، وهو يقصد بذلك تغليب الاهتمام بالقضايا الفقهية على الآراء الفلسفية، فيقول (مع الأخذ بالانتقادات الفلسفية التى قال بها الأشاعرة)[3] .

وفى إحدى مقالاته بكتاب (يوميات ألمانى مسلم) يكتب تحت عنوان (لولا الوحى لظللنا عمياناً) فيذكر قراءته لكتابى (تهافت الفلاسفة) للغزالى وكتاب (تهافت التهافت) لابن رشد .

ويُبدى ألمه لانزلاق فلاسفة المسلمين إلى نفس شرك التساؤلات التى حاكها أساتذتهم من الإغريق !! ثم يتساءل فى حيرة (هل استولى أرسطو هذا الثعبان ، على عقول هؤلاء الفلاسفة المؤمنين . . . ؟)[4] .

رجّح د/ هوفمان إذن منهج السنة ذاكراً الإمام أحمد والأشاعرة وقد عرف شيخهم أيضاً الإمام أبا الحسن الأشعرى، كما مدح الدور الذى قام به فى

---

(١) الإسلام كبديل ص ١٠٧ . (٢) الإسلام كبديل ص ١٠٧ .
(٣) نفسه . ويُنظر كتابنا (السلفية بين العقيدة الإسلامية والفلسفية الغربية) ط دار الدعوة - بالأسكندرية .
(٤) ص ٤٦ يوميات ألماني مسلم .

معارضة الفلسفة ويصفه بقـوله (فليس لودفيج شتاين ابن القرن العشرين هو الذي قرع النواميس إيذاناً بموت الفلسفة، وإنما قرعها قبله أبو الحسن الأشعري في القرن التاسع الميلادي)(٢) .

كذلك يرى أن حركة إحياء الإسلام اتباعاً للإمام أحمد قام بها أئمة تالون له منهم الشـيخ ولى الله - توفى ١٧٦٣ م - ومـحـمـد بن عـبـد الوهاب - توفى ١٧٨٧م . وهو من مؤسـسي الوهابية السعوديـة ، والسنوسى والحركة الليبـية فى الثلاثينات والإخوان المسلمون فى مصر ، والجماعة الإسلامية الباكستانية) .

ويدافع عن مـثقفى الأصـوليين رداً على الاتهـامات الظالمة الموجّـهة إليهـم قديماً وحديثـاً بالسذاجة والتأخـر والاستمسـاك الحرفى بالنصوص، فـيكتب (علماً بأن وسائلهم فى الدرس، والتحليل والاستنتاج ومعالجة النصوص، تتفق وأفضل نتائج فلسفة اللغة التحليلية للمعاصرين فى أوطانهم)(٢) .

وقد أسس د / هوفمان هذا الحكم الصـائب على أساس متين من الاقتناع بأن (حدود ما يمكننا إدراكه ليست هى حدود الحقيقة ، وبقدر ما نحن أسرى لمعجمعنا الذى وضعناه بأنفسنا ، بقدر ما تبدو قـدرتنا - حتى بمساعدة الوحى - عاجزة عن إدراك سوى لمحات من حقيقة الله - عز وجل - الشاملة)(٣) .

وكان مقـتنعاً برأى ابن خلدون الذى أورده فى المقدمة، وخلاصـته (أن العقل هو فى الواقع ميزان سليم، ومع ذلك فإنه ينبغى ألا يستخدم العقل لوزن بعض الأمور مثل: وحـدانية الله عز وجل، والعالم الآخـر، وصدق النبوة، والصفـة الحقيقـية للخـصائص الإلهيـة، وإن المرء ليقـارن ذلك بالرجل الذى يرغب فى وزن الجـبال بميزان الذهب)(٤) .

---

(١) الإسلام كبديل ص ٧٤ .
(٢) الإسلام كبديل ص ١٠٨ .
(٣) يوميات ألماني مسلم ص ١٢١ .
(٤) نفسه ص ٨٨ .

ونحن نقرّه على رأيه باستثناء صدق نبوة نبينا ﷺ ، إذ ذهب علماؤنا إلى إمكان إثباتنا بالعقل بناءً على أمر الله عز وجل فى القرآن الكريم .

ومثال ذلك قوله تعالى ﴿ **قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ أَن تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَادَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ** ﴾ (سورة سبأ الآية ٤٦) .

قال القاسمى فى تفسير هذه الآية (أى قياماً خاصاً لله بلا محاباة ولا مراءة اثنين اثنين ، وواحداً واحداً (ثم تتفكروا) أى فى أمره ﷺ وما جاء به من الهدى وإصلاح الأخلاق، ورفع النفس عن عبادة ما هو أحط منها من الأوثان إلى عبادة فاطر السموات والأرض، واتباع الأحسن ونبذ التقاليد وإنزال الرؤساء إلى مصاف المرؤسين رغبة فى الإخاء والمساواة، إلى غير ذلك من محاسن الإسلام وخصائصه فى الكتب المؤلفة فى ذلك وقوله تعالى﴿ **مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ** ﴾ أى جنون ، مستأنف وصفه لهم على ماعرفوه من رجاحة عقله كاف فى ترجح صدقه . . والتعبير عنه ﷺ بـ(صاحبهم) للإيماء أن حاله معروف مشهور بينهم . لأنه نشأ بين أظهرهم بقوة العقل، ورزانة الحلم وسداد القول والفعل ﴿ **إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ** ﴾ وهو عذاب الآخرة والمآل[1] .

وعلى آية حال، فقد كان د / هوفمان مقتنعاً بصحة منهج أهل السُّنة ناقداً منهج المعتزلة (باتخاذهم منطقهم همْ المعيار الأعلى الذى يحتكمون إليه)[2] .

هذا ، بينما ما يطمح إليه السنّى فى معرفة الله عز وجل (وخلقه وتصاريفه إنما يؤخذ من الوحى، الذى لا يمكن للبشر الإحاطة به عن طريق العقل)[3] .

---

(١) القاسمي : محاسن التأويل ص ١٤ ص ٤٩٦٦ ، تصحيح محمد فؤاد عبد الباقي ، ط الحلبي و ينظر كتابنا (الإسلام والأديان) ص ٢٣٧ ، وما بعدها عن (المدخل العقلي لصدق نبوة محمد ﷺ) ط دار الدعوة بالإسكندرية .

(٢) الإسلام كبديل ص ٧٢ .   (٣) نفسه ص ٧٣ .

وبحكم اطّلاع هوفمان على مذاهب الفلسفة الألمانية ، فقد استخلص من آراء الفيلسوفين (كانت) و(فتجنشتاين) فى العصر الحديث ما يؤيد صحة منهج أهل السُّنة ، فيكتب متسائلاً (ولئن كان من علامات الذكاء الأخذ بنقد نظرية المعرفة واتباع الفيلسوفين « كانت » و « فنجنشتاين » فى الاقتناع بالمحدودية الضيقة للإدراك الحسى، وللمنطق البشرى، أفيكون من علامات الغباء إذن أن يأخذ المسلمون بالنقد نفسه، أى بعجز المنطق والإدراك الحسى فى تناول ماوراء الطبيعة، أو الغيبيات التى ترد فى القرآن) ؟! [1] .

٣ - روجيه دوبا سكويه
(إظهار الإسلام)

كاتب وصحفى سويسرى يبلغ من العمر نحو ستين عاماً ، درس الإسلام واعتنقه تحت اسم : سيدى عبد الكريم، وكذلك أسلمت زوجته الهولندية[2] .

وبإحساس عميق بالأزمات التى تأخذ بخناق العالم ، يبدأ روجيه أو (عبد الكريم) الفصل الأول من كتابه - وهو بعنوان (تحدى العصر)- فيسجّل قلقه وانزعاجه ، ويكتب هذه الأسطر :

(يبدو أنه لا شئ على الأرض يمكنه الهروب من الأزمات التى تزلزل العالم الحديث، لا يكفى الحديث عن أزمة حضارة بعد أن اكتسبت الظاهرة أبعاداً عالمية ويبعث الظلام الوشيك شعوراً متزايداً بعدم الاطمئنان) [3] .

---

(١) الإسلام كبديل ص ١٠٩ ،

(٢) ص ٥٧، من كتاب (الإسلام في الفكر الغربي) للواء / أحمد عبد الوهاب ، مكتبة التراث الإسلامي ١٩٣٣م .

(٣) ص ٩ أظهار الإسلام .

وها هو ينضم إلى سلفيه فى الرغبة فى الخروج من هذا المأزق المتمثل فى الأزمات التى تعصف بالإنسان المعاصر فتفقده نفسه ، والبحث عن البديل الذى وجده فى الإسلام فيقول :

(يساعد الإسلام المرء على العيش فى هذه المرحلة من التاريخ بدون أن يفقد نفسه، تقدم الحلقة النبوية الخاتمة فى سلسلة التنزيل الإلهى وسائل مقاومة الفوضى الحاضرة، وإعادة تأسيس الطمأنينة والوضوح داخل الروح - مع التوافق فى العلاقات البشرية - وتحقيق الغاية العظمى التى خلقنا الله لها)[(١)] .

وبهذا البيان الموجز عرّف برسالة الإسلام كوحى إلهي جاء به الأنبياء والرسل جميعاً عليهم السلام وخاتم النبيين محمد ﷺ .

وأخذ روجيه - مثلما فعل[(٢)] د/ هوفمان - يقترح الإسلام لحل أزمة حضارة العصر، ولكن بسبب هذه الظاهرة أكسبتها أبعاداً عالمية فقد أصبحت تزلزل العالم الحديث .

ولا يستثنى العالم الإسلامى - من حالة الأزمة - التى لم يسبق لها مثيل ولكنها أخف وطأة من أزمة الغرب الصناعى (فليست أساساته الأخلاقية والروحية رهن التحدى بنفس الطريقة ، وتحتفظ الغالبية العظمى من المسلمين بإيمانها التقليدى ، الأزمة التى تمر بها البلاد الإسلامية أزمة مادية)[(٣)] .

فقد دخل روجيه الإسلام من باب اليقين بأن القرآن الكريم هو معجزته الدالة على صدق الرسول ﷺ ، وسيرته تقدمّ للإنسان أحسن منهج للحياة الإنسانية ، فإن كل (حياته - ﷺ - كانت امتثالاً لله) [(٤)] .

---

(١) نفسه . .

(٢) وذكر في المقدمة أنه قابله بالمغرب حيث أخبره هوفمان بإسلام شخصيات هامة في ألمانيا ، منها المتحدث باسم الحزب المسيحي في بون ، وسفير السويد السابق في المغرب الذي قال لروجيه (الإسلام هو الطريق الطبيعي للمفكر الاوروبي ص ٧) .

(٣) إظهار الإسلام ص ٢٦ . (٤) إظهار الإسلام س ٦٣ .

(عاش محمد ﷺ وأنجز مهمته بالاعتبار الكامل للدنيا والآخرة، وأعطى المثل فى إمكانية تحقيق الحالة الانسانية على الأرض بدون إغفال - ولو للحظة - البعد الروحى، وأقام الاتزان الرائع الذى يميّز المسلم ، والذي يسمح له بالتمتع بالحياة الدنيا دون أن ينسى أننا كلنا راجعون إلى الله عز وجل وماثلون أمامه)[١] .

ولا تعجبه مظاهر التطبيق الغير الكامل للشريعة فى بعض البلاد الإسلامية أو إبعادها عن البلاد الأخرى ويزعجه انحدار القيم الأخلاقية فى العالم الإسلامى المعاصر .

هذه الانحدارات الأخلاقية لا تحمله على الحكم على الإسلام من واقع أحوال المسلمين إذا أخذ يرفع الغشاوة عن أعين بنى قومه (لإظهار الإسلام) ويعنى به (إثبات الدليل على إمكان العيش فى ظلال الحقيقة على المستويات الفردية والجماعية، عيشة كاملة بلا تنازل ولا حلول وسط) [٢].

لما كان غرضه شرح رسالة الإسلام بطريقة تناسب القراء أصحاب الخلفية أو التعليم الأوروبى، ونضيف المخدوعين - أو ضحايا - حضارة العصر ، فقد حرص على تصحيح المفاهيم حول الانسان : نشأته، ومكانته ، حتى يزيل أثر تجاهل - أو جهل - الحضارة العصرية للبعد العلوى ، وتطلّع الإنسان للسّمو والكمال ، إنها تجهل سبب ميلادنا (لماذا نعيش ، ولماذا يجب أن نموت) [٣] .

بينما يعرّف الإسلام منزلة الإنسان بين الخلق أمام الله تعالى ، ويعيد تأسيس الطمأنينة داخل الروح ، (مع التوافق فى العلاقات البشرية وتحقيق الغاية العظمى التى خلقنا الله لها) [٤] .وهو التصور الصحيح الذى يحقق الطمأنينة ويرتقى بالإنسان بدلاً من الحط من قيمته واختزاله إلى مجرد مادة

---

(١) إظهار الإسلام ص ٦٥ .
(٢) إظهار الإسلام ص ٦ .
(٣) إظهار الإسلام ص ١٠ .
(٤) إظهار الإسلام ص ٩ .

ووظائــف كمــية مســخرة للإنتاج والاستــهلاك مع إفســاده (وتمزيق داخله وإفراغ حياته من المعنى والأمل)[1] .

الإسلام مبنى على عقيدة التوحيد

وتقتضى شهــادة (لا إله إلا الله) الامتثال الضرورى والتسليم لمشيــئته - عز وجل -، ثم تأتى الخطوة الثانية (محمد رسول الله) فتقرر (أنه لتحقيق الامتثال والتسليــم لله، لا توجد وسائل أفضــل من اتبــاع رسوله ﷺ)[2] .

وتتضح سهولة ممارسة شعائر الإسلام بوصفها سهلة ومرنة تناسب كل ظروف الحيــاة - حتى عصــرنا - وتصور (فــعالية الممــارسة - بوضــوح - حفظ الاتزان الرشيد بين الروح والجسد)[3] .

ويتوقف روجيه ليعنى بشعائر الإسلام ليجعل منها سبيلاً لتحقيق العبودية لله عز وجل وتذكيراً له بحقيقة الحياة ومغزاها إذ يعدّ السجود فى الصلاة عن تطلع العابد للتسليم الكلى للذات الإلهية، وعندمــا يحقق الإنسان قوله تعالى ﴿ **فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ** ﴾ فإنه يحافظ (على الصلة بين المرء والحقيقة، بينما تحــوّله الغفلة إلى كــائن هامشى مــقهور بــالمظهر الكمى الخارجــى للعالم ، والجاذبية الدنيــوية الواضحة فى أخريات القــرن العشري)[4] ويعــرف الصــلاة بأنها :

(ليست الصــلاة عمل عقلى فــقط ، بل تسمو بــكل كيان المصلى وتشــمل أربعة

---

(1) نفسه ص ١٣ .
(2) إظهار الإسلام ص ١٩ .
(3) نفسه ص ٢٠ .
(4) إظهار الإسلام ص ٢١ .

أوضاع رئيسية ، القيام ، الركوع ، السجود ، الجلوس) .

ويقوّى الصيام إرادة المسلم ويهذّب رغباته ويزيد اتصاله الروحى بالله عز وجل وتهذّب الزكاة الغنى وتعين الفقير وتقيه الحقد والحسد ، وتزرع التكافل والتراحم ويعنى الحج الكثير ، فهو عودة للمركز ، للكعبة ، وتأكيد لوحدة العالم الإسلامى فتتلاشى الاختلافات وتذوب الفوراق [1] .

مكانة الإنسان

أصاب روجيه فى فهم آية « الأمانة » بإنها تمنح الإنسان حرية الاختيار فى قوله تعالى : ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً ﴾ (سورة الأحزاب الآية ٧٢) .

كما يدل على أنه اطلع على أحد تفاسير علماء السُّنة، يضيف إليها بسابق خبرته بمذاهب الفلاسفة أنها تجيب على سبب وجود الانسان فى الأرض وبذلك يقدم الإسلام (علم الإنسان) تام الترابط فى مقابل (اللاإدارية الحديثة)[2].

كذلك أصاب فى فهمه أن الإسلام يقدم العلاج الأكثر فعالية لمرض العصر. وهو ماسمّاه (تكبّر إبليس)، بعد عرضه لقصة غواته إبليس لآدم عليه السلام ، ثم قبول الله تعالى لتوبته وهدايته، هذه الهداية هى الدين الأزلى، الذى اتخذ على مرّ العصور تعابيراً متعددة ، ختامها ما أُنزل على النبى ﷺ ، إذ يبين الإسلام للمرء كيف ينجو من إبليس ، ويتمتع فى الأرض بما أحلّه الله له ، فهو دين وسط - وإن كانت الآخرة أكبر تفضيلاً - وينظّم حياة المرء بانسجام بين الحياة الفردية

(١) نفسه ص ١١٢ / ١١٥ باختصار .

(٢) إظهار الإسلام ص ٢٢ ، ٢٣ .

والجماعية ليعيش في رضـا وقناعة بمشيئة الله تعالى[1] وبدراسته للتاريخ أيقن أن القيم الأخلاقية فى الشـريعة كفلت استقرار وانسجام المجتمعات الإسلامية لقرون طويلة، ولكنها تواجه الآن تحـدّياً خطيراً لا سيما من الشبـاب المقلدين لغيرهم في أمريكا وأوروبا ، كـذلك تغيرت القـيم الأخلاقية عند النـساء ، بسبب التغـيرات الاجتماعيـة والاقتصادية التى زلزلت البلاد الإسلامية عقب الحـرب العالمية الثانية، وبالرغم من الأعداد التى لا تحصى من المؤمنين المتـمسكين بدينهم بإخلاص إلا أن حياة المسلم تُقاسى اليوم انحطاطاً لم يسبق له مثيل منذ عصر النبوة، لذلك يحتاج الأمر إلى مزيد من الإصرار والجهد والمثابرة (ويعزّى أولئك المتمسكين بدينهم جاء فى حـديث الرسـول ﷺ : **(يأتى على الناس زمـان القابض فيـهم على دينه كالقابض على الجمر)**[2]. والكلمات الأخيرة هي من حديث طويل للرسول ﷺ ، فعن أبي أمـية الشعبـاني قال : (سألت أبا ثعلبة الخـشني قال: قلت يا أبا ثعلبة كيف تقول في هذه الآية ﴿عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾؟، قال: أما والله لقد سألت عنها خيراً، سألـت عنها رسول الله ﷺ فقال: { ائتمروا بالمعروف وانتهوا عن المنكر حتى إذا رأيتم شحاً مطاعاً وهوىً متبعاً، ودنيا مؤثرة وإعجاب كل ذي رأي برأيه ، فـعليك بنفسك، ودع عنك العوام، فإن من ورائكم أيام الصـبر فهن مثل القـبض على الجمر للعامل، فـيهن مثل أجر خمسين رجلاً يعملون مـثل عملكم } رواه ابن ماجه والترمذي، وقال : حديث حسن غريب، وأبو داود وزاد :

قيل يارسول الله صلى الله عليه وسلم : (أجر خـمسين رجلاً منَّا أومنهم؟ قال : **بل أجـر خمسين منكم**)[3] .

---

(١) إظهار الإسلام ص ٣٥ .　　(٢) نفسه ص ١٢٣ .

(٣) الترغيب والترهيب للمـنذري جـ٤ ص ١٢٥ / ١٢٦ . ضبط أحاديثه وعلّق عليه مصطفى محـمد عمارة ط الحلبي بمصر ١٣٨٨ هـ / ١٩٦٨م .

ويتضح من كتابه أنه اجتاز الطريق الصحيح إلى الإسلام حيث أيقن صحة القرآن الكريم بدراسته لسيرة النبى ﷺ فلم يقدّم أحد (تفسيراً مقبولاً لكيفية تقديم تاجر قوافل أمّى مثل هذا النص الذى لا يُضاهى فى الجمال ، وإثارة الانفعالات، الذى يزخر بمعرفة وحكمة يحلّقان عالياً عن الأفكار السائدة فى ذلك العصر، وحتى اليوم)[1] .

وخلاصة آرائه تقديم التفسير الصحيح بما يتفق مع التنزيل عن الإنسان ومصيره، فاتَّجه بكل عناية لتقديم الحل للإنسان المتأزّم في ظل حضارة قدمت له وسائل الراحة والرفاهية والإنتاج الوفير، ولكنها لم تحقق له واحة الأمان والطمأنينة النفسية، التي بدونها تصبح الحياة جحيماً لا يطاق .

وباتِّباعه للطريقة العلمية في التفكير، تأكد من نبوة نبينا محمد ﷺ ، وانبهر بكلام الله عز وجل - القرآن الحكيم - ووقف بعد التجارب العملية على أسرار العبادات ، وفي قمتها الصلاة.

إن القارئ لكتابه (إظهار الإسلام) يرى روحه وكأنها تقفز بين سطوره بالإيمان ، محققاً في الواقع حديث الرسول ﷺ **(ثلاث من كنّ فيه وجد حلاوة الإيمان : أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لايحبه إلا لله ، وأن يكره أن يعود في الكفر كما يكره أن يُقذَف في النار)** رواه البخاري .

والإسلام إذن دين الوضوح واليقين والدراسات التى تحاول جاهدة تحديد المصادر التى استخدم بزعمها الرسول ﷺ أو تلقى الضوء على أحواله النفسية ، هذه الدراسات أبرزت شيئاً واحداً فقط (أبرزت تعصّب الدارسين ضد الإسلام)[2] .

---

(١) نفسه ص ٧٣ .   (٢) نفسه ص ٧٣ .

وهكذا يأتى الفكر الإسلامى الغربى ليضيف أقوى دليل إلى أدلتنا التى نستمسك بها، أي موقفنا الثابت الذي يتلخص فى أن التنازل عن منهجنا الذى خطّه لنا رسول الله ﷺ ، يعنى التنازل - بمحض إرادتنا - عن المنهج الحق والنزول عن مستواه إلى مستوى المناهج البشرية التى يختلط فيها الحق بالباطل، وهو يعنى أيضاً قبولنا للاحتواء داخل دائرة الثقافة الغربية ، لامنابذتها وتحدّيها ، كما فعل علماؤنا طوال تاريخنا ، إعتزازاً بإسلامهم واعتقاداً بأفضلية ثقافتهم النابعة من التنزيل .

كذلك يعطينا هذا الفكر مفاتيح حل أزمات عصرنا ، ويزيل عن بعض المثقفين الوهم بأن الفكر الإسلامى لا يزال يعيش فى الماضى ويعجز عن التصدّى لمشكلات الحاضر .

إنّ أفكارهم فى مجملها سمة من سمات الطبيعة المتجددة لهذا الدين .

الفكر الإسلامى

فى مواجهة الفلسفة البرجماتية (العملية)

وأخيراً سنعرض فى الصفحات التالية بإيجاز للفلسفة البرجماتية- أى العملية - التى يراها البعض أساس نجاح التجربة الأمريكية، والتى يُراد لها أن تُعمّم على مستوى العالم المعاصر باعتبارها النموذج الذى يُحتذى للّحاق بركب الحضارة .

وسيتّضح لنا بعد مناقشة هذه الفلسفة أنها لا تقوى على الصمود أمام النقد بالمنهج الفلسفى ثم يأتى الفكر الإسلامى ليدعم هذا النقد، ويضيف عرض البديل الذى تحقق فى ظل الحضارة الإسلامية، ومازالت دعائمة قائمه، وهى التى أبقت على أمة الإسلام وحضارتها التى وصفها توينبى بأنها (نائمة) متوقعاً أن النائم لا بد أن يستيقظ !!.

تنسب (البراجماتية) كفرع فلسفى إلى أصل شجرتها المسماة بـ(الوضعية)، فيجب أن نعرّف أولاً بالوضعية ليسهل علينا بعد ذلك فهم أحد معالم الفلسفة البراجماتية .

إن الوضعية (هى اتجاه فكرى يقنع بما هو كائن ويفسره ويرفض أن ينبغى أن يكون) ثم أخذت الوضعية الشكل الجديد فى الولايات المتحدة الأمريكية اسمه (البرجماتية)، هذا الشكل الجديد يحدده الدكتور توفيق الطويل بقوله (إذا كانت الوضعية قد رفضت التسليم بالحقائق المطلقة والقضايا الميتافيزيقية ، فإن الفلسفة العملية لا تتردد فى قبولها واعتبارها صادقة متى كانت مفضية إلى نفع يتحقق فى حياة الإنسان)[1] .

ولفهم مضمون هذه الفلسفة ، ينبغى أن نعرف أولاً أصلها اللغوى ثم ننتقل

(١) د . توفيق الطويل : الفلسفة الخلقية . نشأتها وتطورها ص ٢٧١ دار النهضة العربية بالقاهرة سنة ١٩٦٧م.

إلى التعريف بمؤسسها (بيرس) ، ثم بيان تفصيل الفلسفة عن أبرز فلاسفتها وهو وليم جيمس .

والأصـل اللغـوى يفـيد (**مـاهـو عـمـلـى**) ومن هنـا أطلـق عليـها اسـم (الفلسفة العملية) ، لذلك فإنها تهتم بالعمل على حساب النظر[1] .

إن مـؤسس المذهب الفلسـفى هو تشـارلس ساندر بيـرس (١٨٣٩-١٩١٤)م وصاحب فكرة وضع (العـمل) مبدأ مطلقـاً فى مثل قوله (إن تصـورنا لموضوع ماهو إلا تصورنا لما قد ينتج عن هذا الموضوع من آثار عملية لا أكثر) .

وهذا يعنى أن علامة الحقيقة أو معيارها العمل المنتج لا الحكم العقلي.

ويتوسع فى دائرة العمل بحيث يشـمل المادى والخلقى أو التصور، وتثمر هذه النظرة للعمل اتساع العالم أمامنا، إنه عالم مرن، نستطيع التأثير فيه وتشكيله، وما تصوراتنا إلا فروض أو وسائل لهذا التأثير والتشكيل [2].

أما أشهر فـلاسفة البراجماتيزم فـإنه وليم جيمس (١٨٤٢ - ١٩١٠م) الذى تدرج فى اهتمـاماته العلمية والفلسـفية التى تلقاها فـى معاهد وجامعـات أوروبية وأمريكيـة حتى حصل على درجة (الدكـتوراه) فى الطب من جامعـة هارفارد سنة ١٨٧٠ ، وعين أستـاذاً للفسيولوچـيا والتشريح بهـا ، ثم أستاذاً لعلم النفس فـبرز فيه[3] .

ويتبـين من ترجمـة حياته أن سـبب اتجاهه إلى الـفلسفـة يرجع إلى سمـاعه لمحاضرة فلسفيـة ألقاها (شارل بيرس) الذى كان يعرض فيها مـذهبه، فشعر وليم

---

(١) د . مراد وهبه : قصـة الفلسفة ص ١٠١ ط دار الثقافة الجديدية بالقـاهرة ١٩٨٠م والوضعية تنسب إلى الفيلسوف الفرنسي (أوجست كونت ١٧٩٨ - ١٨٥٧) ثم امتدت إلى انجلترا على يد (هربرت سبنسر ١٨٢٠ - ١٩٠٣) والولايات المتـحدة الأمـريكيـة على يد شارلس س . بيـرس (١٨٣٩ - ١٩١٤) وليم جيمس (١٨٤٢ - ١٩١٠) ثم جون ديوي (١٨٥٩ - ١٩٥٢ م) .

(٢) يوسف كرم : تاريخ الفلسفة الحديثة ص ٤١٧ / ٤١٨ ، ط . دار المعارف بمصر سنة ١٩٦٩م .

جـيـمس على أثرها وكـأنه ألقى عليـه رسـالة مـحـدده، وهى تفسـيـر رسـالة (البرجماتية)[1] .

ويعرُّف وليم جيمس الحقيقة بأنها (مطابقة الأشياء لمنفعتنا ، لا مطابقة الفكر للأشياء) ولا خـتصار الإحاطة بهذه الفلسفـة فإن مدخل دراستها يقـتضى تحليلها إلى مكوناتها الأساسية فى النظم والقيم ، فنحن أمام مقولتين :

الأولى : إزدراء الفكر أو النظر .

الثانيـة : انكار الحقائق والقيم .

أى بعبـارة أخرى أكثر وضـوحاً ، فإن العمل عـند جيمس مقـياس الحقيـقة (فالفكرة صـادقة عندما تكون مفـيدة . ومعنى ذلك أن النفع والضـرر هما اللذان يحددان الأخذ بفكرة ما أو رفضها) [2] .

وقد نبتت فلسفتـه منذ بداية اهتماماته بها من حاجاته الشـخصية ، إذ عندما أصيب فى فترة من عمره بمرض خطير، استطاع بجهوده أن يرد نفسه إلى الصحة، فاعتقد أن خلاص الإنسـان رهن بإرادته، وكان الموحى إليه بالفكرة المفكر الفرنسى (رنوفيير) الذى عرف الإرادة الحرة بأنهـا (تأييد فكرة لأن المرء يختار تأييدها بارداته حين يستطيـع أن تكـون له أفكار أخرى) .

وكانت تجـربة شفـائه من المرض قد هدته إلى أهمـية العمل ورجـحت عنده الاجتهاد فى العمل بدلاً من الاستـغراق فى التأمل (لأن العمل هو الإرادة البشرية استحالت حياة) [3] .

---

(١) هنري توماس ودانالي توماس : المفكـرون من سقراط إلى سارتر ص ٤٣٠ / ٤٣١ ترجمة عـثمان نويه - مكتبة الأنجلو المصرية سنة ١٩٧٠ .

(٢) مراد وهبة / قصة الفلسفة ص ١٠٥ .

(٣) نفسه ص ٤٣٣

وتلون هذه الفلسفة نظرة أتباعها إلى العالم . فإن العالم الذى نعيش فيه ليس نظرية من النظريات، بل هو شئ كائن، وهو فى الحق مجموعة من أشياء كثيرة، وليس من شئ يقال له الحق دون سواه . إن الذى ندعوه بالحق إنما هو فرض عملى - أى أداة مؤقتة نستطيع بها أن نحيل قطعه من الخامات الأولية إلى قطعة من النظام .

ويلزم من هذا التعريف للعالم، أنه خاضع للتحويلات والتغيرات الدائمة ولا يستقر على حال (فما كان حقاً بالأمس - أى ماكان أداة صالحة أمس - قد لا يكون اليوم حقاً - ذلك بأن الحقائق القديمة، كالأسلحة القديمة - تتعرض للصدأ وتغدو عديمة النفع)[1] .

نقد البرجماتية من وجهة النظر الفلسفية :

١ - فى نقدنا لهذه الفسلفة، سنبدأ بالمنهج المقارن حيث يتبين أنها فى جوهرها الفلسفة الرواقية القديمة، ومؤسسها زينون (٣٤٣ - ٢٧٠ قبل الميلاد) !!

فإذا أباح وليم جيمس لنفسه بعث الحياة فيها من جديد، فإن ذلك يقوض دعائم فكرته عن استبعاد (الحق القديم) كما سنوضح بعد قليل .

٢ - الحق قيمة مطلقة - وليست نسبية - وإلا فإن المجتمع يصاب بالفوضى المدمرة لكيانه وبعلاقاته مع غيره من المجتمعات بسبب الحرب .

٣ - هل نلتزم بالدين لأنه نافع ؟

إن هذا الاعتقاد يجعل البراجماتية فى موضع نقد شديد لأنها أخضعت أعظم علاقة تربط بين العبد وربه - عز وجل - إلى مجرد علاقة نفعية تتأرجح بين الإيجاب والسلب ، فأين الإيمان الذى يهب الإنسان القدرة على مقاومة أعتى الصعاب ؟ وهو نفسه - أى وليم جيمس - فى طور من أطوار حياته - استطاع

---

(١) هنري توماس / المفكرون من سقراط إلي سارتر ص ٤٣٨ .

التغلب على المرض بإرادته النابعة من إيمانه !!

ونأتى الآن إلى التحليل والتفصيل فى نقد المذهب :

١ - لتقويم هذه الفلسفة ينبغى ألا نبخس وليم جيمس حقه فى بعثه للأمل الذى يحفزنا إلى تحدي الشر وغلبته ويهبنا الشجاعة (على أن نأخذ الحياة غلاباً)[١] وحثنا على ترقية العالم، لأنه فى وسعنا أن ننهض بترقيته بفضل إرادتنا.

هذا الشرط من فلسفته لاغبار عليه ، بل يتضمن كثيراً مما يحتاجه الإنسان الفرد لشحذ إرادته، ودفعه إلى العمل الإيجابي المثمر، ولكن وفق أى (مبدأ) ؟

تلك نقطة الخلاف معه، إذ نعتقد بثبات القيم والمبادئ فى بداية الطريق ، ثم نمضى بإرادتنا لتحقيقها وإذا فرض وفشلنا فى الوصول إلى الهدف ، فلنعد النظر فى طريقنا إذ ليس العيب فى (المبدأ) ولكن العيب فينا وفى منهجنا .

وبغير الاعتقاد فى ثبات المبادئ ، فإننا لسنا أمام فلسفة جديدة وإن بدت كذلك، ولكنها مجرد إعادة للنظرية الرواقية القديمة (مضافاً إليها الروح النضالية الحديثة)[٢]. فإن الخير الحقيقي عند الرواقى القديم فى حكمة الاختيار وحدها وليس فى الشئ المختار الذي يصطفيه (مثله كمثل ضارب القوس يهدف إلى عين الثور، فغايته ليست فى إصابة الهدف نفسه، بل إظهار مهارته فى إصابته)[٣]!!.

---

(١) هنري توماس : المفكرون من سقراط إلي سارتر س ٤٣٦ .

(٢) نفسه ص ٣٢٧ .

(٣) د . هـ . سدجويك : المجمل في تاريخ علم الأخلاق جـ ١ ص ١٦٥ . ترجمة وتعليق د . توفيق الطويل وعبد الحميد حمدي - دار نشر الثقافة بالإسكندرية ١٩٤٩ معني ذلك أننا نساوي وفق هذه الفلسفة بين اللص الذي ينهب الثروات وينجح في جمعها بأية وسيلة ، وبين التاجر الذي ينمي ثروته وفق مبادئ الشرف والصدق (والرواقية تنسب إلى زيتون الرواقي (٣٤٣ - ٢٧٠ ق . م) وكان يختار (ليعلم الناس فيه) .

ولكن من جهة أخرى يرى الدكتور توفيق الطويل، أن العمليين اتفقوا مع السوفسطائية في رد القيم إلى الإنسان ولكنهم خالفوا السوفسطائية في جعل الإنسان - وليس الفرد - معيار هذه القيم، فقصدوا بهذه التجربة الإنسانية وهي تجربة تصطبغ في نهاية المطاف بطابع اجتماعي) الفلسفة الخلقية ص ٢٧٢ .

إن تعليق الحكمة هنا فى مظهرها العـملى - أى على النجاح فى ذاته بصرف النظر عن إصـابة الهدف - تجعـل من المجتمع غـابة من الوحوش الضـارية يأكل بعضها بعـضاً إذ تتنافس على (التفوق) و(الغلبة) ولا تتفـق إراداتها على تحقيق أى قيمة من القيم الفاضلة : كالحق والعـدل والإيثار وغيرها من الفضائل الإنسانية الثابتة فى ذاتها .

فهل نحن مـرة أخرى أمام دليل جديد يثـبت أن الفلسفة الغربيـة تعيش على تراثها القديم ؟

٢ - يرى وليم جيمس أن (الحق) إنما هو فرض عملى، أى مجرد أداة يختبر بها (تصوره) السابق، ويرى أن الحقائق تنقسم إلى قديمة وجديدة !!

والصواب الذى يتفق عليه أغلب الفلاسفة ، أن الحق يستمد قيمته المطلقة من قيمته الثابتة خارج مقولتى (الزمان) و (المكان) .

ونراه أيضاً يخلط خلطاً مـعيباً بين المبـادئ والأهداف حيث يصبهـا فى قالب (المنفعة)، بينمـا التفكير السليم يقتضى العكس، أى الإيمان بالفكرة والـعقيدة أولاً عن اقتناع وتثبت بقـيمتها الذاتية، ثم السـعى بمقتضاها مهـما قابلنا فى طريقنا من صـعوبات، فـضلاً عن افـتقـاد (المنافع) وهذا هو منهج الأنبـياء والرسل عليـهم السلام.

ومهـما كـانت نية وليم جيـمس وحوافـزه ذات الطابع الأخلاقى فـإن صدى فلسفته كانت متعارضة مع نـواياه فقد فوجئ بإخوانه الأمريكيين يندفعون لتكديس الثـروات ، وأخـذ يلومـهم (لأنهم يعـبـدون تلك الآلهـة الفـاجـرة التى تدعى «النجاح») [1] .

ولكن ماذا كان يتوقع غير ذلك ؟

---

(١) هنري توماس المفكرون من سقراط إلي سارتر ،ص ٤٣٩ .

إن هذا هو المصير المحتوم والنتيجة المنطقية لفلسفة تعظم المنفعة وتزدرى الفكرة الثابتة والقيم المطلقة[1] .

يقول الدكتور توفيق الطويل فى تقييم هذه الفلسفة (ويكفى أن تعتبر البراجماتية الحق أو الخير كالسلعة المطروحة فى الأسواق ، قيمتها لا تقوّم فى ذاتها بل فى الثمن الذى يدفع فيها فعلاً ، فالحق فيما يقول جيمس كورقة نقد تظل صالحة للتعامل حتى يثبت زيفها ! ولم يجد أصحاب البراجماتية غضاضة فى النظر إلى الحق أو الخير كما ينظرون إلى السلعة التى تطرح فى الأسواق ، هذه هى العقلية الأمريكية فى الفلسفة وفى الأخلاق وفى السياسة وفى كل مجال)[2] .

ونضيف إلى ذلك أن هذه الفلسفة كانت ملهمة للنظام الرأسمالى القائم على مبدأ المنافسة الحرة[3] . ثم ظهرت مساوؤه عند التطبيق،

---

(١) وفي تحليل المجتمع الأمريكي المعاصر . يقول الأستاذ / هيكل الصحفي المعروف ذو الخبرة الواسعة بالسياسة العالمية : (إننا نتصور أحياناً أن التأثير ممكن بمنطق الحق والعدل والقانون، وننسى أننا حيال مجتمع تعود أن يتعامل مع الواقع بصرف النظر عن التاريخ ، وبالنسبة لمعاييره فليس هناك حق ولا عدل ولا قانون في المطلق . إنما معيار القيمة الوحيدة هو النجاح) من كتابه (زيارة جديدة للتاريخ) .

(٢) د . توفيق الطويل : الفلسفة الخليقة ص ٢٧٨ .

(٣) د . مراد وهبة : قصة الفلسفة ص ١٠٥ .

ويرى أن المنافسة الحرة غير المقيدة تضرفى نهاية أمرها بالمشروعات الخاصة ، الأمر الذى يؤدى إلى ضرورة تكتلها واتخاذها على هيئة شركات كبرى وبنوك وغرف تجارية فتنتهى الرأسمالية إلى مرحلة احتكار يتم فيها تقسيم العالم بين الاحتكارات الدولية الكبرى ، وتسمى هذه المرحلة بالإمبريالية ، وبظهور التطور للهيكل الاقتصادى للرأسمالية لزم تغيير فى الفكر الفلسفى البرجماتى الذى عبر عنه (ديوى) فى جمعه بين فكره (العمل) كمقياس للحقيقة من البرجماتية و (الروح المطلق) عند هيجل . يقول الدكتور وهبه (ولهذا فإن الاحتكارية فى حاجة إلى ايديولوجية تروج لإزالة الفوارق والفواصل من جهة ، وإلى تجميد الأوضاع الاجتماعية من جهة أخرى وليس فى الإمكان توفير الإزالة والتجميد إلا بأن ترقى الإيديولوجية المطلوبة إلى مستوى المطلق (ص ١٠٩ نفس المصدر - ويقصد بإزالة الفوارق بين أصحاب المعتقد الواحد ثم تذويب الفوارق بين المعتقدات كلها . كذلك يرى أنه من أجل تحقيق الخطوة الأولى تشكلت منظمات دينية فى المسيحية باسم (مجلس الكنائس العالمى) الذى أسس سنة ١٩٤٨ م (ص ١١٠ نفسه) .

واستفحلت أخطاره التى تتضح - كما يرى الدكتور فؤاد زكريا فى ثلاثة :

أ - اللاأخلاقية بالرغم من التقيد ببعض الفضائل كالأمانة والانضباط والدقة ومراعاة المواعيد ولكنها - كفضائل - ليست مقصودة لذاتها ولكنها تفيد الرأسمالى فى تعامله مع الغير ، وتظهر (اللا أخلاقية) بوضوح فى أساليب الدعاية والإعلان .

ب - الارتباط الوثيق بالحرب .

جـ - الانحرافات السلوكية وأظهرها الإجرام ، إذ إن فتح الباب على مصراعيه للمنافسة والصراعات من شأن تمجيد العنف، ويتضح الانحراف بصورة أخرى فى شرب المسكرات والمخدرات وعقارات الهلوسة وغيرها (وتفسيرها أنها ظاهرة هروبية من واقع العنف والمنافسة المريرة التى لا ترحم)[1] .

٣ - ولم يسلم (الدين) أيضاً من التفسير (النفعى) فى ضوء الفلسفة البراجماتية؛ (فإن اعتبار شروط وجود الدين وأصوله ونشأته لا أهمية لها عند من يسأل عن قيمة الدين ، لأن قيمته فيما ينتجه) [2] .

الفرق بين نظرته للدين وعقيدتنا الإسلامية :

ولم يكن (الدين) عند وليم جيمس كموضوع للبحث فى ذاته ، ولكن فى آثار الانفعال الدينى ، وهل هذه الآثار حسنة تحقق الأمل ؟ وهل يمكن الحصول عليها بطريق آخر خلاف الدينى ؟

---

(١) د . فؤاد زكريا : الجوانب الفكرية في مختلف النظم الاجتماعية ص ٦ / ٥٠ ط جامعة عين شمس سنة ١٩٧٢ م .

(٢) اميل بونرو : العلم والدين في الفلسفة المعاصرة ص ٢٤٧ ترجمة د .أحمد فؤاد الأهواني - الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة ١٩٧٣م .

أنه يرى أن للدين أثراً أخلاقياً ، كما أنه يتفوق على أى مصدر آخر للحث على النشاط والمثابرة وفعاليته تظهر بإيحائه المؤثر فى الغالب أكثر من الأساليب المادية ، ويضرب على ذلك مثالاً بالطبيب الذى يعترف بأن شفاء المريض لا يتحقق بالعلاج المادى وحده بل بالإيحاء أيضاً، ذلك الإيحاء الناجم عن قوة الإيمان .

إذن الدين نافع فى بعض الأحوال مما لا يمكن استبدال غيره به (فماذا يجب أن نطلب أكثر من ذلك لنقوله إنه حق) ؟ [1] .

وهذا الرأى - كما يقول (برتراندرسل) - لا يقنع مؤمناً مخلصاً فى إيمانه، لأن المؤمن لا يطمئن إلا متى استراح إلى موضوع لعبادته وإيمانه ، إن المؤمن لا يقول : إنى إذا آمنت بالله سعدت - ولكنه يقول إنى أُؤمن بالله ومن أجل هذا فأنا سعيد . . . إن الاعتقاد بوجود الله - تعالى - فى نظر المؤمن الصادق مستقل عما يحتمل أن يترتب على وجوده من نتائج وآثار) [2] .

النظرة الإسلامية :

أما نحن معشر المسلمين فإننا بحمد الله نمتلك أعظم ثروة للعقيدة والقيم تضمنها كتاب الله عز وجل ونفذها الرسول ﷺ حيث حقق فى عقيدته وسلوكه وأخلاقياته الأسوة الحسنة - وجمع بين (الحق) عقيدة وإيماناً، و(العمل) أخلاقاً وسلوكاً حدد الأهداف ، ووضع المنهج وأحصى القيم ، مبيناً الطريق الذى يجتازه المسلمون من دنياهم إلى أخراهم ، وقد ألف علماؤنا مجلدات فى هذه الأغراض كلها ولكن يكفينا أن نسجل بهذه المناسبة بعض التعليقات التى تصلح لعلاج آفات (البراجماتية) ، والتى تبرهن على أن العقل البشرى لا يستطيع

(١) نفسه ص ٢٤٨ .

(٢) نقلاً عن الدكتور توفيق الطويل بكتابه : الفلسفة الخلقية ص ٢٧٩ ، ويُنظر كتاب (تاريخ الفلسفة الغربية - الكتاب الثالث - براتراندرسلي ص ٤٧٥ ، ترجمة د / محمد فتحي الشنطي - ط الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة ١٩٧٧م .

الوقوف وحده بغير عون من الوحى :

أولاً :

أ - أن الخير هو الذى يحدد الشرع ويستمد إلزامه منه للتسليم بأن الله تعالى هو العليم الحكيم . قال تعالى : ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لا تَعْلَمُونَ ﴾ (سورة البقرة الآية ٢١٦) .

يفسر ابن كثير هذه الآية ببيان وجوب الجهاد وآثار قتال أعداء الإسلام من النصر والظفر ثم يمضى فى تفسير قوله تعالى ﴿ وَعَسَىٰ أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ﴾ فيذكر ابن كثير أن (هذا عام فى الأمور كلها ، قد يحب المرء شيئاً وليس له فيه خيرة ولا مصلحة ، ومن ذلك القعود عن القتال ، قد يعقبه استيلاء العدو على البلاد والحكم) ثم قال تعالى ﴿ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لا تَعْلَمُونَ ﴾ - أى هو أعلم بعواقب الأمور منكم ، وأخبر ما فيه صلاحكم فى دنياكم وأخراكم، فاستجيبوا له ، وانقادوا لأمره ، لعلكم ترشدون) [(١)] .

ب - كذلك قد يجهل الإنسان الفروق المرجحة لما يفيده عما يضره ، قال تعالى : ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ﴾ (سورة البقرة الآية ٢١٩) .

أما إثمهما فهو فى الدين، وأما المنافع فدنيوية، ولكن هذه المصالح لا توازى المضرة والمفسدة الراجحة لتعلقها بالعقل والدين ، ولهذا كانت هذه الآية ممهدة للتحريم على البتات كما فى سورة المائدة ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ص ٣٦٧ / ٣٦٨ ، طبعة دار الشعب بالقاهرة .

﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴾[1] (سـورة المائدة الآية ٩٠ . ٩١) .

ثانياً :

أن النجاح مطلوب والسعى والتنافس على فعل الخيرات مرغوب فإن المؤمن القوى أحب إلى الله تعالى من المؤمن الضعيف ولكن ينبغى أن يستظل السعى هدفاً وطريقاً بأوامر الشرع والالتزام بآدابه . وسنورد هنا بعض الآيات للاسترشاد:

١ - قد يوسع الله تعالى الرزق للعبد استدراجاً له ، ثم ينزل به عقابه الشديد، قال تعالى : ﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾ (سورة آل عمران الآية رقم ١٧٨).

وقال عز وجل: ﴿ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ۞ وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴾ (سورة الأعراف الآيتين ١٨٢-١٨٣) .

وقال سبحانه : ﴿ أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ۞ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَل لَّا يَشْعُرُونَ ﴾ سورة المؤمنون الآيتين ٥٥/٥٦) .

٢ - لا يصلح الله حال أمة إلا إذا صلحت ضمائرها وأعدت نفسها للتقوى، قال تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾ (سورة الرعد الآية ١١) .

٣ - تكثر المصائب عند فساد الأخلاق ، قال تعالى : ﴿ وَمَا أَصَابَكُم مِّن

---

(١) نفسه ص ٣٧٣

مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ ﴾ (سورة الشورى الآية ٣٠) .

٤ – وفيـما يتعلق بتقـوية الإرادة فهناك آية تبين كيـف يربى الله تعالى المسلم على تحمل الشدائد حتى يكون قوى العزيمة مـعداً لتحمل كل خطر : قال تعالى : ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ أَلا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ ﴾ (سورة البقرة الآية ٢١٤) [١] .

ثالثاً : ضرورة أعمال الخير لإقامة المجتمعات الإنسانية :

إن إقامة المجتمع على موازين المكسب والخسارة وحدهما كفيل بهدمه مادامت العلاقات بين أفراده لا تقوم إلا على أساس المصلحة ، والكسب المادى ، فكم من علاقات أخرى تقـوم على الإيثار والتضحيـة وحب الخير لذاته ،و هى التى تكفل تحقيق السـعادة للمجتمع لأن التعـاطف والتعاون هما الرائدان فى حركـة المجتمع الإنسانى وإلا تحول إلى غابة من الغابات التى يأكل فيها القوى الضعيف .

ومن الصعب – بل يتعذر – ولا نقول: يستحيل إقناع النفوس بأعمال الخير، التى لا تقوم بالمال، إلا بناءً على عقـيدة إيمانية راسخة تحقق أعمـالاً خيِّرة وتسعى لاكتساب فضائل أخلاقية وتنميها ابتغاء مثوبة الله تعالى وجنته .

وكم فى الإسلام من أعمال خيرة يحض عليها ويحث على فعلها أفضل حياة إنسانية ممكنة على ظهر هذه الأرض !!

---

(١) ينظر (المصحف الميسر) بتـفسير الشيخ عبد الجليل عـيسى وهو تفسير جليل لجأ فيـه عالمنا – رحمه الله تعالى – إلى تفـسير الكتـاب بعضه ببـعض وهو يكاد يكون فريداً فى هذا البـاب . فضلاً عن وضـعه لفهرس ببعض مبادئ مهمة تعرَّض لها القرآن . وقد اعتمدنا عليه فى الاستدلال بالآيات أعلاه : البنود رقم ٤٥ و ٥٧ و ٢٢ و ٣٥ بمقدمة التفسير المذكور . ط . دار الشروق سنة ١٣٩١ هـ .

إن الحديث عن هذه الأعمال يحتــاج إلى مجلد كامل ، ونكتفى بالإشارة هنا إلى نزر يسيــر منها ونحيل القارئ إلــى المصادر للتوسع فى معــرفتها وتنفــيذها ، لتحقق لنفسه الطمــأنينة النفسية والسعادة المرجوة ، ولمجتمعــه المثالية على المستوى الانسانى الذى تحقق فى عصر الحضارة الإســلامية الزاهرة ، مع العلم بأنه كثيراً ما تشمل هذه الأعمال على الجزائين الدنيوى والأخروى :

عن أبى موسى ﷺ عن النبى ﷺ قال : **(على كل مسلم صدقة)** قال : أرأيت أن لم يجد ؟ قال : **يعمل بيديه، فينفع نفسه، ويتصدق** ، قال : أرأيت إن لم يستطع ؟ قال: **يعين ذا الحاجة الملهوف** ، قال : أرأيت إن لم يستطع ؟ قال: **يأمر بالمعروف أو الخير** ، قال : أرأيت إن لم يفعل ؟ قال : **يمسك عن الشر فإنها صدقة)** متفق عليه .

وعن جابر ﷺ أنه قال : قال رسول الله ﷺ **(ما من مسلم يغرس غرساً إلا كان ما أكل منه له صدقة ، وما سُرق منه له صدقه ، ولا يرزؤه أحد إلا كان له صدقه)** رواه مسلم .

وفى رواية له **(فلا يغرس المسلم غرساً ، فيأكل منه إنسان ولا دابة ولا طير، وإلا كان له صدقة إلى يوم القيامة)** .

وفى حديث (متفق عليه) **(اتقوا النار ولو بشق تمرة)** .

وعلى قمــة العلاقات بين الناس التى تخلو من أية شــوائب مادية نفعــية نضع الحديث القدســى أمام القارئ ليتدبر نتــائج العمل به فى البناء الاجتــماعى ، ففى حديث أبى هريــرة فى مسلم **(إن الله عز وجل يقول يوم القيــامة : أين المتحابون بجلالى أظلهم فى ظلي يوم لا ظل إلا ظلى)** .

ويضيق كتابنا عن ضم الأحاديث المشابهة والتى تشكل لو نفذت فى مجموعها

أمة كاملة - لا مجتمعاً من المجتمعات فحسب - مترابطة متعاونة ، يتعاون أفرادها ويتبادلون أعمال الخير - وما أكثرها - يبتغون بها رضى الله تعالى والآخرة ، وهى كلها : إمــا أنها لا تتــصل بالنفع المادى بتاتاً أو تخــتلط مع النفع المعنوى إن صح التعبير كما بيّنا [1] .

---

(١) ينظر كتـاب (رياض الصالحين) باب فى بيان كثـرة طرق الخير وله طبعـات متعددة ونظراً لأن مـؤلفه - الإمام النووى رحمه الله - قد رتبه على الأبواب، فإنى أحيل القارئ إلى بعضها: باب المبادرة إلى الخيرات، التعاون على البر والتـقوى، تعظيم حرمات المسلمين وبيان حقوقهم وقـضاء حوائج المسلمين، الإصلاح بين الناس، بر الوالدين وصلة الأرحام، وتوقير العلمـاء والكبار وأهل الفضل، زيارة أهل الخير، الكرم والجود والانفـاق، الإيثار والمواسـاة، إكرام الضيف، عـيادة المريض وتشـييع الميت، إعـانة الرفيق. . . وغيرها، وغيرها .

وكلها كـما يتـضح من عناوينها لا تتـصل بالكسب المادى والنفع العاجل بأية صلة، ولكنـها ضرورية لإقـامة مجتمع مترابط يحقق السعادة لأفراده ، كمـا يكفل له البقاء والاستمرار، وإلا تعرض للانهيار والتآكل، وأصبحت الحياة فيـه لوناً من الشقاء المحقق فى الدنيا قبل الآخرة ، وينظر أيضاً كتـاب (مختصر شعب الإيمان) للبيهقى - اختصره القزوينى .



إن من دواعي الثقة بالنفس أن الفكر الإسلامي أثبت أنه عصيّ على الاحتياجات وقت سطوة الماركسية ونفوذها، ويقف اليوم أيضاً على أرض صلبة في مواجهة (العولمة) الحديثة التي تريد إخضاع العالم لثقافة واحدة !

وأول خطوات الصمود في المعركة القادمة هي الاستمساك بعقائدنا وتنفيذ شرائع ديننا، مع الامتناع عن التقليد الأعمى (للمأكولات والمشروبات والاستغراق في مشاهدة الأفلام السينمائية والمسلسلات التليفزيونية التي تستهدف اختراق المجتمعات ، مع أن الكاتب الأمريكي ميشيكو كاكوتاني وصفها بأنها « نفايات حضارية »)[1] .

ويرى (لويس فرقان) زعيم جماعة « أمة الإسلام الأمريكية » أن الخلاص في الإسلام كمنقذ وحيد لحضارة العصر من الغرق، موجهاً نداءه للعالم الإسلامي للعودة إلى صراط الله عز وجل لتحقيق الأمان والأمن والثقة بالنفس ، وهذا سيجعل من العالم الإسلامي **(المجداف الخلقي لقارب الحضارة الضالة في محيط الظلام)**[2] .

إن أكبر الدروس المستفادة من تجاربنا الفاشلة وهزائمنا المتكررة منذ التخلص من الاستعمار العسكري الأوروبي أن الحضارات لا تقوم على التقدم العلمي أو التفوق العسكري أو الازدهار الاقتصادي وحده، أي ما لم يصحب ذلك كله عقائد متميزة وقيم إنسانية راقية ومبادئ أخلاقية ثابتة، وهي بحمد الله

---

١ - من مقال (الأستاذ جميل مطر ، بعنوان : أمريكا تقحم الدين في السياسة لإضعاف الكنائس الشرقية جريدة (الحياة) في ١٩٩٧/ ١٠/ ١٧م ص ١٧ .

٢ - مقال (لويس فرقان يتحدث) بقلم محمد جمال عرفة جريدة (الشعب) القاهرة ٢٣شعبان ١٤١٨هـ ٢٣ديسمبر ١٩٩٧م .

وفضله متوفرة في شريعتنا . يقول الأستاذ / شريف الشوباشي (فإذا كان الغرب يفوقنا سياسياً واقتصادياً وعلمياً ، فإن للعالم العربي والإسلامي تراثاً ثقافياً مضيئاً يتيح له أن يكون نداً للغرب ، إن لم يكن متفوقاً في هذا المجال)[1] .

ولكن ، كيف نستفيد من تراثنا الثقافي المضيء في معركة الصراع الفكري الحالي وهي معركة حقيقية تُدار من وراء الستار ولا تتوقف أبداً ، فإن (قادة الصراع الفكري ومراصدهم موزعة في العالم وهي دائمة المتابعة والمراقبة)[2]؟ . . نوجز الإجابة فيما يلي :

أولاً : الثقة بالنفس :

وإننا لنستخلص أيضاً من دراستنا المختصرة بهذا الكتاب، أننا على أعتاب فترة يظهر فيها الإسلام ظهور الحجة والسلطان العقلي العلمي - وإن بدا الضعف في أمته - والامارات على الطريق كثيرة، منها الصحوة الإسلامية[3] المعاصرة، فهي لم تظهر في بلد دون آخر، ولكنها أصبحت ظاهرة عامة في بلاد المسلمين شرقاً وغرباً، وهي سبب انزعاج الغرب لأنه لم يكن يتوقع قط - بعد كل أعمال التغريب والتنصير والاستعمار الثقافي وفرض التبعية سياسياً واقتصادياً على العالم الإسلامي المغلوب على أمره بالاستعمار العسكري ، ولم يتوقع أن تستيقظ أمة الإسلام وتبدأ في العمل على استرداد ما اغتصبه منها من ثروات منهوبة - وقبلها استرداد الهوية والكرامة الإنسانية - بل

---

١ - هل فرنسا عنصرية ؟ ، شريف الشوباش ص١٢ مطابع الأهرام بالقاهرة ١٩٩٢م .

٢ - مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي ، مالك بن نبي ترجمة محمد عبدالعظيم ص١٩٢ مكتبة عمار بالقاهرة ١٣٩١هـ - ١٩٧١م .

كذلك يرى أن الاستعمار مسئول عن النصيب الأكبر من الفوضى التي تسود العالم الإسلامي اليوم ص٩٧ .

٣ - يُنظر كتابنا (الصحوة الإسلامية عودة إلى الذات) ط دار الدعوة الإسكندرية .

أصبحت ظاهرة اعتناق الإسلام بداخل بلاده والعالم تقلقه، إذ تبيَّن (أن معدل اعتناق الإسلام هو أعلى معدل في العالم)[1] .

ثانياً : تصحيح المفاهيم وزيادة الوعي :

وفي ضوء ما تقدم لا ينبغي إذن أن تخدعنا الألفاظ المنمقة عن التنوير والتجديد والتطور والعصرية ، بينما غرض أصحابها حثنا على السير على نفس قضبان القاطرة التي يقودها السائق المتفرنج لكي نصل إلى المحطة النهائية ونكتشف أننا كنا نسير وراء السراب !.. بل إن هذا ما حدث بالفعل عندما جرَّبت الأمة تطبيق الأنظمة والأيديولوجيات الغربية ، فماذا حدث لها؟..

إن الإجابة على السؤال واضحة في تجربة تركيا الكمالية (وكان أتاتورك من يهود الدونمة) وهي الآن ملفوظة من أوروبا لأن الأتراك هم أحفاد العثمانيين الذين فتحوا القسطنطينية وظلوا سادة العالم لعدة قرون عندما رفعوا راية الإسلام .

لقد تقدمت بعض الدول الإسلامية بخطوات ناجحة نحو هذا الهدف ، فهناك تجربة النمور الأسيوية وفي مقدمتها اندونسيا و ماليزيا حيث ارتبط المنهج العلمي للحاق بالعصر مع المحافظة علي الشخصية و الثبات على الهوية الإسلامية كما صرّح بذلك الدكتور/ محمد ماجد رئيس الوزراء الأندونيسى. وقد تأسس هناك (المنتدى الإسلامى العالمى للعلوم و التقنية و تنمية الموارد البشرية) و مقره جاكرتا .

---

١ - هذا ما أكدته شبكة سي . إن .إن الإخبارية الأمريكية (مجلة المختار الإسلامي - ١٥ شعبان ١٤١٨هـ ١٥ديسمبر١٩٩٧م .

ثالثاً : أصبح تحصيل العلوم الشرعية فرض عين على كل مسلم و مسلمة :

ولا حجة للمسلمين كأفراد أيضاً فى الجرى وراء مباذل العصر و نفاية الثقافات، لأن بين أيديهم الوحى المعصوم بالكتاب و السنة ، وسيرة الرسول ﷺ تجمع مالا نستطيع حصره فى هذا الحيز و لكن يكفى بعض الإشارات المضيئة على الطريق :

ولابد أولاً من التأكيد على المسئولية الشخصية لكل مسلم ومسلمة : قال رسول الله ﷺ { كلكم راعٍ وكلكم مسئول عن رعيته الإمام راعٍ ومسئول عن رعيته ، والرجل راعٍ في أهله وهو مسئول عن رعيته، والمرأة راعية في بيت زوجها ومسئولة عن رعيتها والخادم راع في مال سيده ومسئول عن رعيته، فكلكم راعٍ ومسئول عن رعيته } متفق عليه .

وقال ﷺ : { لا تزول قدما عبد حتى يُسأل عن عمره فيما أفناه، وعن علمه فيما فعل فيه، وعن ماله من أين اكتسبه وفيمَ أنفقه، وعن جسمه فيما أبلاه}.

(رواه الترمذي وقال : حديث حسن صحيح) :-

والمسلم المعاصر لا يختلف - شأنه في ذلك شأن كل مسلم منذ عصر النبي ﷺ حتى قيام الساعة - من حيث عقائده وأعماله وأهدافه وخلقه وهي من الثوابت التي لا تتغير بتغيُّر العصور: ففي وصفه قال النبي ﷺ : { المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده، والمهاجر من هجر ما نهى الله عنه } رواه البخاري .

وعن صلة الإيمان بالأعمال، نأتي بالحديث الذي رواه أبو ذر الغفاري إذ سأل النبي ﷺ عن الإيمان فقال عليه الصلاة والسلام: قال الله عز وجل

﴿ لَيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴾ سورة البقرة١٧٧[١] .

أما الطارئ في عصرنا الحاضر فهو من قبيل المتغيرات فى كل عصر من العصور بلا استثناء وهى سنّة من سنن الحياة التى لا تتوقف .

فعن الزبير بن عدىّ، قال: اتينا انس بن مالك ﷺ، فشكونا إليه ما نلقى من الحجاج، فقال: اصبروا !! فإنه لا يأتى زمان إلا والذى بعده شرٌ منه حتى تلقوا ربكم ، سمعته من نبيكم ﷺ (رواه البخارى)

ومن جوا مع الكلم للرسول ﷺ في ارشاد المسلمين هو امره بالاستقامة، ومعناها لزوم طاعة الله تعالى، وهى نظام الأمور كلها. فعن ابى عمرو – وقيل أبي عمره – سفيان بن عبدالله ﷺ قال: قلت : يا رسول الله، قُل لي في الإسلام قولاً لا أسأل عنه احداً غيرك، قال: قُل : آمنت بالله ثم استقم (رواه مسلم) [٢] .

وتقتضي الاستقامة تنفيذ أوامر الله عز وجل وأوامر رسول الله ﷺ ومنها الكفّ عن التقليد أو التشبّه بالأمم الأخرى : قال تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ ﴾المائدة ٥١

١ – الشريعة ، للإمام ابن بكر الأجري ص١٢١ تحقيق محمد حامد الفقي دار الكتب العلمية – بيروت ١٤٠٣هـ – ١٩٨٣م .

وقال الأجري في تعليقه على هذا الحديث : وبهذا الحديث وغيره احتج أحمد بن حنبل في كتاب الإيمان : أنه قولٌ وعمل ، وجاء به من طرق .

٢ – رياض الصالحين للإمام النووي – باب في الإستقامة .

وفي حديث أبي سعيد الخدري عن رسول الله ﷺ أنه قال : { لتتبعن سنن من قبلكم شبراً بشبر، وذراعاً بذراع حتى ولو دخلوا جحر ضب خرب لتبعتموهم، قلنا يا رسول الله : اليهود والنصارى؟ قال: فمن غيرهم؟ (متفق عليه) .

ونقول: إن مشاغل المسلم المعاصر على كثرتها فإنها (تدور كلها حول كيفية الحفاظ على دينه ودنياه فى نفس الوقت ، على نحو يجعل كلا منهما سنداً للآخر ودعامة له)[1] أى يلتزم بأوامر الشرع ونواهيه - كما تقدم - متيقظاً لما يدور حوله، عارفاً بمذاهب العصر بإيجابياتها و سلبياتها، وقادراً على فرز الصحيح من الفاسد فيما يسمع ويرى ويقرأ، بعلم وبصيرة .

وما لم يبذل كل واحد منا جهده ما استطاع لدرء الفتن المتزايدة فسنقبل -كما يقول أحد الكتاب اللبنانيين- على (مرحلة دجاجية في ثقافتنا وفي حياتنا، حيث يصبح الجميع بلونٍ واحد في قفصٍ واحد ، يطلقون تلك النظرة الفارغة البلهاء عبر زجاج المقاهي . إنها مرحلة توحيد العلف الثقافي والفكري والسياسي . . في مزارع النظام العالمي الجديد)[2] .

تم الكتاب بحمد الله تعالى

---

١ - من مقدمة كتاب (فكر المسلم المعاصر ، ما الذي يشغله) ؟ مركز الأهرام بالقاهرة - الكتاب الثاني سنة ١٩٩٤م .

٢ - من مقال عن كتاب (الثقافة ووسائل نشرها في الوطن العربي) أصدرته المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم للباحث الإعلامي نبيل الدجاني - جريدة الشرق الأوسط ١٩شعبان سنة ١٤١٨هـ - ١٩ديسمبر ١٩٩٧م .

المراجع

======

حرف (أ)

١ - الوحي المحمدي - محمد رشيد رضا المطبعة السلفية بالقاهرة .

٢ - الأركان الأربعة أبو الحسن الندوي دار القلم الكويت

٣ - الإسلام في الغـرب - جان بول رو ص٥٦، ٧٠ تعريب نجـدة هاجر وسعـيد الغز ، المكتب التجاري - بيروت نوفمبر ١٩٦٠م

٤ - العالم الإسلامي د/ جمال حمدان ص١٣٢ عالم الكتب - القاهرة ١٩٧١م.

٥ - الإسلام في عالم متغير ص٧١ ، د/ مصطفي الفقي ص٩٧ .

٦ - الإنسان القرآني ، سمير عبدالحميد ابراهيم .

٧ - الإسلام كـبديل، هوفمـان ترجمة د/ غـريب محمـد غريب ص١٨ , ٢٠، ١٩٩٣م .

٨ - الحوار الإسلامي العلماني أ/ طارق البشري ص (١٨٢ ، ١٨٣).

٩ - الذين يلحدون في أسمـائه، دار المعارف القاهرة ١٩٨٣م .د/ كامل سـعفان ص٩ .

١٠ - الصراع الكبير بين الشرق والغرب ط الأهرام ١٤١٣هـ ، ١٩٩٢م . اللواء عبدالحميد شرف

١١ - الفكر الإسلامـي الحديث وصلته بالاسـتعـمار الغربي ، دار الفـكر بيروت د/ محمد البهي ١٩٦٨م .

١٢ - الله أو الدمار أ/ سعد جمعة ص٧٥ المختار الإسلامي ١٩٧٦م .

١٣ - الإسلام والمسلمـون ، فتحي رضـوان ص٤٩٥، ٥٠٦ دار الشروق ١٩٨٢م ص٥٠١

١٤ - التطور والإنسان ، حسن زينو ص١٤٩ بيروت سنة ١٩٧١م ص, ١٥٠

١٥ - أربع وخمسون وظيفة يجب على المؤمنين.في كل اليوم ، للحسن البصري التحقيق دار التراث بطنطا ١٩٩٢م .

١٦ - « الحملة الأمريكية - متعبون وسفراء ورحَّالة » ترجمة محمد الخولي .

١٧ - القول الفصل بين الذين يؤمنون بالغيب والذين لا يؤمنون ص٨٨ دار الإسلام .

١٨- الغرب والشرق الأوسط ص ٥٦، ٥٧ تعريب د / نبيل صبحي .

١٩ - الإسلام دين المستقبل ، جارودي ترجمة عبدالمجيد بارودي ص١٨٣، ١٨٩ دار الإيمان بيروت سنة ١٩٨٣م .

٢٠ - الشرق الأوسط في العصر الحديث د/ حسين مؤنس مكتبة التجاريين مصر سنة ١٩٣٨م .

٢١ - الإسلام بين الشرق والغرب علي بيجوفيتش ص٣٤، ٧١، ٩٣، ٩٤، ٣٥٦، ٣٧٣.

٢٢ - الإسلام حضارة ص١١١ الدار السعودية - جدة سنة ١٩٨٧م .

٢٣ - الإسلام ومشكلات العصر ص٩ د/ مصطفى الرافعي دار الكتاب اللبناني - بيروت سنة ١٩٨١م .

٢٤ - الإسلام في مواجهة العصر وتحدياته ص٢٣٢، ٢٣٣ عبدالكريم الخطيب الغد العربي .

٢٥ - الإسلام والمذاهب الفلسفية د/ مصطفى حلمي دار الدعوة - الإسكندرية سنة ١٩٨٥م .

٢٦ - الإسلام منهج حياة ص١٧٢/ ٩ د / عمر فروخ دار العلم سنة١٨٣م .

٢٧ - الإسلام في القرن العشرين ، حاضره ومستقبله ص٣٢ عباس العقاد .

٢٨ - الذريعة إلى مكارم الشريعة الراغب الأصفهاني .

٢٩ - الشفا بتعريف حقوق المصطفى (ﷺ) المجلد ص٩٧/ ٢٩٦١ مكتبة دار التراث القاهرة سنة ١٣١٢هـ .

٣٠ - الإسلام على مفترق الطرق ص١١ محمد أسد دار العلم بيروت - الإنسان ذلك المجهول ص٣٣، ٣٢٤، ٣٣١ ألكس كاريل ، ترجمة شفيق أسعد فريد، مؤسسة المعارف - بيروت .

٣١ - البوسنة والهرسك ص٧٢ قصة شعب يواجه العدوان ، دا رالاعتصام، بقلم كاريتش سنة ١٩٩٤م .

٣٢ - البوسنة والهرسك من الفتح إلى الكارثة .

٣٣ - آراء في أزمة العصر - أدريين كوخ .

٣٤ - الإسلام قوة الغد العالمية ص٢٢٣ د/ محمد شامة مجلة الأزهر سنة ١٩٧٩م.

٣٥ - المسلمون في آسيا الوسطى والبلقان د/ محمد حرب .

٣٦ - الوعي التاريخي والثورة الكونية ص٢٣٧ السيد يس مركز الدراسات سنة ١٩٩٥م .

٣٧ - اليابان لم تقل لا - صراع المستقبل بين الكبار ، ترجمة هالة العوري - القاهرة سنة ١٩٩١م .

٣٨ - أرنولد توينبي ص ٩٧، ٩٨ لمعي المطبعي دار الكتاب العربي - القاهرة سنة ١٩٧٢م .

٣٩ - مجلة العالم الإسلامي .

٤٠ - مجلة المختار الإسلامي .

٤١ - التاريخ وكيف يفسرونه من الكنفوشيوسية إلى توينبي - الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة١٩٧٢م .

٤٢ - { الإسلام والغرب - آفاق الصدام } صموائيل بي هاتينجتون .
٤٣ - الغرب والإسلام - رجب البنا ص٢١٢، ٢١٣ - دار المعارف - مصر سنة ١٩٩٧م .
٤٤ - الإسلام و صراع الحضارات .
٤٥ - العواصم والقوائم في الذَّب عن سنة أبي القاسم للإمام / محمد بن ابراهيم.
٤٦ - البيرسترويكا - ميخائيل جورباتشوف مؤسسة الرسالة- بيروت سنة١٩٩٢م.
٤٧ - المدينة الفاضلة عبر التاريخ ص٤٤٣ ماريا لويزا .
٤٨ - أزمة العالم المعاصر مارينيه جينو ص٢٠، ٥٩، ٦٧ دار النهار القاهرة سنة ١٩٩٦م ، سامي محمد عبدالمجيد .
٤٩ - الإسلام كبديل د. هوفمان
٥٠ - الإسلام سنة .... د/ هوفمان .
٥١ - الله ليس كذلك د/ غريب محمد غريب ص١٢، ٥٢ دار الشروق سنة ١٩٩٥م .
٥٢ - الثقافة الإسلامية والواقع المعاصر ، محمد الرابع الندوي ص٥٨ دار الصحوة - القاهرة ، سنة ١٩٩٠م .
٥٣ - السلفية بين العقيدة الإسلامية والفلسفة الغربية د/ مصطفى حلمي ، دار الدعوة - الإسكندرية . الإسلام والأديان .
٥٤ - الإسلام في الفكر الغربي للواء / أحمد عبدالوهاب ، مكتبة التراث سنة ١٩٣٣م .
٥٥ - الترغيب والترهيب للمنذري ص ١٢٥، ١٢٦ الحلبي - مصر ١٩٦٨م.
٥٦ - إظهار الإسلام .

٥٧ - الفلسفة الخلقية دار النهضة / توفيق الطويل ص٢٧١ القاهرة سنة ١٩٦٧م .
٥٨ - المفكرون من سقراط إلى سارتر / هنري توماس ودانالي توماس ص٤٣٩ .
٥٩ - المجمل في تاريخ علم الأخلاق د/ سرجويك .
٦٠ - الجوانب الفكرية في مختلف النظم الاجتماعية د / فؤاد زكريا .
٦١ - العلم والدين في الفلسفة المعاصرة - إميل بوترو ص٢٤٧، الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة ١٩٧٣م .
٦٢ - المصحف الميسر / الشيخ / عبدالجليل عيسى .
- الحضارة د/ حسين مؤنس ص٣١٢ عالم المعرفة بالكويت سنة ١٩٧٨م.

حرف (ت)

٦٣ - تجديد في المسلمين - لا في الإسلام د/ عمر فروخ ص١١، ١٢، ٢٠٦ دار الكتاب العربي - بيروت ١٤٠١هـ ١٩٨١م .
٦٤ - تاريخ العرب والإسلام أنور الرفاعي دار الفكر ص٤٧٠ .
٦٥ - تغريب العالم دار العالم القاهرة سيرج لا توش سنة ١٩٩٢م .
٦٦ - تفسير التاريخ ص٢٩ دار القلم - الكويت عبدالحميد صديق ترجمة د/ كاظم الجوادي .
٦٧ - تهافت العلمانية ص١٦٧ عماد الدين خليل الرسالة، القاهرة سنة ١٩٧٥م.
٦٨ - تاريخ الفلسفة الحديثة / يوسف كرم .
٦٩ - تفسير ابن كثير .
- ترجمه إلى العربية د/ حسين أحمد حسيني - مركز الأهرام سنة ١٩٨٣م .
٧٠ - أدب الاختلاف في الإسلام ص١٦٠ قطر. جمادي الأولى سنة١٤٠٥هـ .
٧١ - الحملة الأمريكية ترجمة محمد الخولي سنة ١٩٩١م ص٧٠، ٨٢، ٨٧ .

٧٢ - الفكر الإسلامي د/ إبراهيم مدكور سيدكو للطباعة القاهرة ص١٦١ .
٧٣ - المفردات في غريب القرآن ص٥١٩ محمد سعيد كيلاني ص١٩٦١م .
٧٤ - الإسلام والغرب والمستقبل ص٦٢ د/ نبيل صبحي الدار العربية بيروت سنة ١٩٦٩م .
٧٥ - الاستقطاب الفكري، مجلة منار الإسلام قطر سنة ١٩٨م ص٩٥إلى١٠٠ .
٧٦ - الحياة الاجتماعية كما صورها بعض المستشرقين ص١٥٥ د/عبدالوهاب مكتب التربية العربي سنة ١٩٨٥م .
٧٧ - الإنسان القرآني ص ٧٥،٣٨،٣٧ د/ سمير عبدالمجيد دار الصحوة مصر سنة ١٩٨٥م .
٧٨ - الموافقات في أمور الشريعة لأبي إسحق الشابي المجلد٢ ص٧٩٠ دار المعرفة بيروت .
٧٩ - آراء في أزمة العصر ص٩٠،٩١ مكتبة الأنجلو المصرية سنة ١٩٦٣م .
٨٠ - المسلمون في آسيا الوسطى والبلقان ص٢١٨، ٢٢٠ د/ محمد حرب ، المركز المصري للدراسات مدينة نصر - القاهرة سنة ١٩٩٣م ، ص٢٢، ١٧٤،١٣٥،١١٢،٣٠ .
٨١ - الصراع بين الحضارات ص٩٧،٥٨ إبريل سنة ١٩٩٦م .
٨٢ - إظهار الإسلام ص٧ ، مكتبة الشروق - القاهرة سنة ١٩٩٤م .
٨٣ - الإسلام عام٢٠٠٠ ص١٢،٧ .

حرف (ح)

٨٤ - حصوننا مهددة من داخلها محمد حسين المكتب الإسلامي بيروت ص٣١٣،٣٠٩ سنة١٩٧٧م .

٨٥ - حضارة الإسلام في دراسة توينبي ص٩١ ، فؤاد محمد شبل ، دار الكتاب العربي - القاهرة سنة ١٩٦٨م .

٨٦ - حوار متواصل حول مشاكل العصر - رشدي فكار .

حرف (د)

٨٧ - رسالة في الطريق إلى ثقافتنا، كتاب الهلال العدد ٤٨٩ - سبتمبر ١٩٩١م.

٨٨ - رياض الصالحين الإمام / النووي رحمه الله .

حرف (س)

٨٩ - سلوك المالك في تدبيـر الممـالك ص١١٣ د/ حامـد ربيع مطبـعة الشـعب القاهرة .

حرف (ص)

٩٠ - صليبية إلى الأبد ص٤١٠ عبدالفتاح عبدالمقصود الدار القومية القاهرة.

٩١ - صفحات من أوراقه الخاصة د/ جمال حـمدان تقديم / عبدالرحمن حمدان دار الغد العربي - القاهرة سنة ١٩٩٦م .

٩٢- صوت أسيا ص٨٤، ١٧٤، ١٧٥ تأليف محاضير بالاشتراك مع شينتاراوايتهار مجلة منار الإسلام - الإمارات سنة١٩٩٧م .

٩٣ - صيحة مسلم قادم من الغرب (إسلام محمد أسد) د/ مصطفى حلمي .

حرف (ع)

٩٤ - علم التقى والأخلاق ص١١٥، ١١٦ - هافليد - ترجمة / عبدالحميد أبو العز مكتبة مصر سنة١٩٥٣م .

٩٥ - علماء الغرب يدخلون الإسلام - محمد حلمي .

حرف (ف)

٩٦ - في الفكر الإسلامي د / ابراهيم مدكور .

حرف (ق)

٩٧ - قصة الفلسفة ص٧٣ ديل ديورانت ، ترجمة أحمد الشيبان ، منشورات المكتبة الأهلية - بيروت سنة١٩٦٥م .

٩٨ - قراءة في كتاب الإسلام بين الشرق والغرب ، علي عزت بيجوفيتش - كلية دار العلوم سنة ١٩٩٥م .

حرف (ك)

٩٩ - كلمة الحق ، دار الكتب السلفية - القاهرة ص٥ سنة١٤٠٧هـ .

حرف (ل)

١٠٠ - لماذا أسلموا ص٢٠٥ إلى ٢٠٨ عيسى عبده وأحمد إسماعيل يحيى دار المعارف مصر سنة ١٩٩٢م .

حرف (م)

١٠١ - مخططات استعمار العالم الإسلامي، دار الثقافة، مكة المكرمة سنة١٩٦٥م.

١٠٢ - مجتمعنا المعاصر والطريق إلى الإسلام ص١٠٣ نور عالم خليل الآميني دار الصحوة مصر سنة ١٩٨٨م .

١٠٣ - مع الفيلسوف ص٤٥،٤٦،٢٥٩،٢٧٢ د/ محمد ثابت الفندي، دار النهضة العربية سنة١٩٨٠م .

الجزء الثاني

١٠٤ - مجموعة رسائل الإمام الشهيد حسن البنا ص١١٠، ١١١ بيروت

حرف (ن)

١٠٥ - نظرات إسلامية للإنسان والمجتمع من خلال القرن الرابع عشر الهجري ص٧٤ د/ رشدي فكار، مكتبة وهبة - القاهرة سنة ١٩٨٠م.

١٠٦ - نظرية المصلحة في الفقه الإسلامي ص٣١٢ د/ حسين حامد حسان مكتبة المتنبي - القاهرة سنة ١٩٨١م .

١٠٧ - نهاية التاريخ وختام البشر - فرانبي فوكوياما ص٥٦ ترجمة حسين أحمد أمين مكتبة الأهرام سنة ١٩٩٣م .

١٠٨ - نصر بلا حرب ص٢٣٨ ريتشارد نيكسون، تقديم المشير / محمد عبدالحليم أبو غزالة مركز الأهرام سنة ١٩٨٨م .

١٠٩ - نهاية عمالقة في حضارة الغرب ص١٣٨، ١٣٩ د/ رشدي فكار، مكتبة وهبة القاهرة سنة ١٩٨٩م .

١١٠ - نظرات حول الإنسان ص٢٧١ سنة ١٤٠٣هـ د/ روچيه جارودي ، القاهرة سنة ١٩٨٣م .

١١١ - نبوة أشعيا - تفسير سفر أشعياء .

١١٢ - نهاية الديموقراطية ص٨٦ جان - ماري جيهنيو مكتبة الشروق سنة ١٩٩٥م.

١١٣ - ندوة اتجاهات الفكر الإسلامي المعاصر ، قلم د. محمد الأحمر الرشيد ص٩، ١٠ مكتبة التربية .

حرف (ي)

١١٤ - يوميات ألماني مسلم ص٨٠ د/ مراد هوفمان .

١١٥ - يوم الإسلام ، أحمد أمين .

الفهرس

الموضـــوع	الصفحة





دار الأمين للطباعة

٨ ش أبو المعالى (العجوزة) الجيزة - ت/فاكس ٣٤٧٣٦٩١

١ ش سوهاج من ش الزقازيق - الهرم - ت/فاكس : ٥٦٣٤٦٩٩